الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعـــــة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم التاريخ

الرقم الترتيبي:....._2001

رقم تسجيل الطالب:.....

مبارك الميـــلي وجهوده في الحركة الإصلاحية في الجزائر 1945-1897

بحث مقدم لنيل شهادة ماجستير في التاريخ المعاصر

إعداد الطالـــب:

علي بن الطاهر

إشراف الأستاذ الدكتور:

عبد الكريم بوالصفصاف

أمام اللجنة:	الاسم واللقب	الرتبة	الجامعة الأصلية
1_ الرئيس :	د. أحمد صاري		
2_	د. عبد الرحيم سكفالي		
3_	د. أحميدة عميراوي		
4_	د. سعيد عليوان		
5_			

نوقش (ت) يوم : 12 نوفمبر 2001

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الإهداء

إلى والدي رحمه الله، الذي أجَّل دخولي إلى مدرسة "أراقو" الفرنسية بسنتين قبل نهاية الاحتلال لألتحق بمعهد بن باديس بداية الاستقلال.

إلى روحه الطاهرة أهدي هذه الثمرة . . .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

شكر وتقدير

إذا كان المولى عز وجل يقول "هل جزاء الإحسان إلا الإحسان" فإن من الواجب تقديم الشكر لكل من ساهم من قريب أوبعيد في هذا البحث ، وأخص بالذكر :

الأستاذ المشرف الدكتور: عبد الكريم بوالصفصاف الذي شجعني على اختيار هذا الموضوع، ومنحني ثقته الكبيرة في سير خطوات هذا البحث، ولم يبخل بكل ما من شأنه أن يعين على هذا العمل.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الشيخ مبارك بن محمد الميلي

(أيـــام عمله الإصلاحى بالأغواط)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مقدمـــــــــة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

التعريف بالموضوع:

يعتبر هذا الموضوع من المواضيع الهامة في تاريخنا الجزائري المعاصر؛ لكونه يتناول شخصية علمية تعد من الشخصيات الإصلاحية التي برزت إبان فترة الحركة الوطنية الإصلاحية. فالشيخ مبارك الميلي المعلم المربي، المؤرخ المنظر في حركة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، والكاتب الصحفي المؤطر، ساهم بجهد معتبر في إعادة إحياء وبعث الشخصية الجزائرية العربية الإسلامية طيلة حياته الحافلة بالعلم والتعليم والعمل، وقد كللت جهوده الإصلاحية إلى جانب إخوانه من علماء الجزائر بنتائج طيبة في حصيلة الكفاح الوطني للتخلص من الهيمنة الاستعمارية وسياستها الرهيبة في محو مقومات الشخصية الوطنية الجزائرية.

ولا شك أن تسليط أضواء البحث على مختلف جوانب شخصية مبارك الميلي ستكشف عن حقائق تاريخية جديدة ستزيد في رصيدها في الدفاع عن الشخصية الجزائرية بكل مقوماتها الأساسية، وتنور الباحثين بعناصر جديدة في محاولات فهم حاضر الجزائريين، من خلال البحث في وقائع ماضيهم ؛ لأن البحث في شخصياتنا الوطنية جزء هام في مرآة تاريخنا الذي تجب المحافظة عليه لترى الأجيال صور التاريخ الجزائري كما هي، وستبقى الفهومات والاستنتاجات موضوع الاجتهاد والبحث عن الحقيقة التاريخية التي يختلف فهمها من جيل لآخر.

أسباب اختياري للموضوع:

من الأسباب التي جعلتني اختار هذا الموضوع ما يأتي:

أولا: عدم إفراد الشيخ مبارك الميلي كرائد من رواد الإصلاح ببحث جامعي، رغم مساهماته في الحركة الإصلاحية الإسلامية الجزائرية، على العكس من زملائه الذين لفتوا أنظار الباحثين والدارسين الجامعيين واهتماماتهم؛ بدءا بالشيخ عبد الحميد

بن باديس[1]، والبشير الإبراهيمي (1897_1965)[2]، والطيب العقبي(1888_1960)[3]، والعربي التبسي(1894_1957)[4] والأمين العمودي (1897-1957)[5]، فقد كانوا جميعا موضوعا لأبحاث في الفترات الأخيرة لرسائل جامعية، وليس الشيخ مبارك الميلي أقل من ذلك شأنا، لذلك ارتأينا تقديم هذه الدراسة عن جهوده الإصلاحية.

ثانيا: تنامي الإحساس بالواجب تجاه تراث الحركة الإصلاحية الإسلامية الجزائرية في ضوء الطروحات القائمة في الوسط العلمي، وامتدادها في الواقع الاجتماعي والسياسي والثقافي؛ خاصة في العشرية الماضية، أين طغت حقائق صارخة في الفكر والممارسة، بقدر ما فرضت استدعاء الماضي الجزائري والاستعانة به في فهم وتفسير وقائع الحاضر، بقدر ما فتحت شهية الباحثين عن تحميل تاريخنا، بمقوماته الأساسية، مسؤولية ما يجري، قصد إلغائه نهائيا من المعادلات القائمة في الصراع باسم التاريخ للوصول إلى أهداف من بينها إلغاء جزء من تاريخ هذا الوطن.

ثالثا: تعد التجربة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر، في مرحلة ما قبل الاستقلال، وليدة بيئة جزائرية محلية، استطاعت توظيف الموروث الحضاري للأمة في مواجهة نقائص الذات

---

[1] لقد كتبت لحد الآن العديد من الدراسات حول شخصية بن باديس، نذكر منها: ابن باديس حياته وآثاره، أربعة مجلدات، إعداد وتصنيف عمار الطالبي، دار اليقضة العربية، دمشق 1968، محمود قاسم، الإمام عبد الحميد بن باديس: الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية، دار المعارف، القاهرة، تركي رابح : الشيخ عبد الحميد بن بايس، فلسفته وجهوده في التربية والتعليم، الشركة الوطنية للنشر والتعليم، الجزائر، 1969، حسن عبد الرحمان ساداوي، عبد الحميد بن باديس مفسرا، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، 1971.
Ali Merad : Ibn Badis commentateur du Coran, Geuthner, Paris, 1971, 1984. Id : « Ibn Badis ou la fondation du mouvement orthodoxe en Algéric » In. Les Africains, T II, 1977, pp1466-170.

[2] حول الإبراهيمي أنظر ماري نجم: الإبراهيمي في حياته وبعض آثاره المنظورة والمخطوطة، مخطوطة بمكتبة الدكتور أبو القاسم سعد الله، محمد العيد تاورتة، نثر الشيخ الإبراهيمي في الفترة 1929-1939، رسالة ماجستير، جامعة قسنطينة 1980.
- محمد زرمان: المرجعية الفكرية عند محمد البشير الإبراهيمي، جامعة الأمير عبد القادر 1992، كما خصص له عدد خاص بمجلة الثقافة، العدد 87، مايو-يوليو 1985. كما نشرت آثاره في عدة أجزاء.

[3] بالإضافة إلى المقالات التي كتبت حوله هنا وهناك، خصصت له رسالة ماجستير من طرف الطالب أحمد مريوش: الطيب العقبي ودوره في النهضة الوطنية، جامعة الجزائر، 1992.

[4] جمعت آثاره من طرف السيد أحمد شرقي الرفاعي، تحت عنوان: مقالات في الدعوة إلى النهضة الإسلامية في الجزائر، في جزئين، دار البعث، قسنطينة 1989.

[5] بالإضافة إلى بعض المقالات التي نشرت حوله، هناك رسالة ماجستير للطالب نور الدين ثنيو بعنوان: قضايا الحركة الإصلاحية عند الأمين العمودي ورابح تركي، جامعة الأمير عبد القادر، 1998.

الجزائرية، وفي نفس الوقت مواجهة النموذج الحضاري الغربي في جوهره الاستعماري التدميري لهوية الشعب الجزائري.

وقد كانت حركة العلماء متميزة في هذا عن فصائل الحركة الوطنية الجزائرية الأخرى برمتها.

ومبارك الميلي من مؤسسي تلك التجربة الإصلاحية الذاتية، ولذلك عددنا دراسة شخصيته أمرا ذا أهمية خاصة، ليس لإبراز جهوده في الحركة الإصلاحية وحسب، وإنما في نقدها باعتباره منظرا ومؤطرا متميزا.

رابعا: توافق المضمون الفكري لهذا الموضوع مع ميولاتي الفكرية، في الاهتمام بالفكر التاريخي الإسلامي، والاتجاهات النقدية المعاصرة في إعادة دراسته برؤى المناهج الحديثة في دراسة التاريخ.

وفي تقديري فإن تاريخ الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر جدير بأن يدرس وفق هذه الرؤى الجديدة، والتي مهما كانت نتائجها ستزيد من قيمة تراث الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر والاستعانة بذلك في فهم حاضر الجزائر من خلال تاريخها.

الإشكالية:

لن تخرج إشكالية هذا الموضوع عن ما يطرح من تساؤلات في أبحاث ودراسات التراجم والسير الخاصة بشخصيات علمية ودينية وسياسية للتعرف على مختلف جوانبها، من خلال حياتها وآثارها.

وفي حالة موضوع بحثنا فالسؤال المحوري هو:

- ما هي نقطة الأساس في الحركة الإصلاحية عند مبارك الميلي؟.
- وماذا قدم للنهضة الوطنية خلال الربع الثاني من القرن العشرين؟
- وهل أن دراسة حياته وآثاره ستكشف لنا عن جوانب خفية من الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر؟.

- وهل المنهج الذي اتبعه مبارك الميلي في النهوض بالمجتمع الجزائري كان مستنبطا من واقع الحياة الجزائرية ؟ أم هو بضاعة مستوردة من خارج حدود الوطن الجزائري؟.

إذا كان السؤال المحوري السابق له إجاباته في السياق العام لنشأة وتطور الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر، فإن نشأة مبارك الميلي وحياته في طلب العلم، يطرح سؤالا آخر يعد أيضا من صلب إشكالية البحث، وهو بتعبير الشيخ البشير الإبراهيمي "لقد شارك مبارك الميلي أقرانه، وشاركه السابقون واللاحقون في كل شيء، في البداية وفي النهاية وفيما بينهما، وشاركهم في التدريس والتأليف، ولم ينفرد بمواصفات خارقة فما الذي بلغ به ما بلغ من الشغوف على أقرانه في ألا يُسمّى العالم عالما إلا به؟"[1].

ويتضح من السؤالين السابقين أن مدار بحثنا هو التكوين العلمي للميلي من جهة وآثاره العلمية والفكرية من جهة ثانية هما طرفا إشكالية هذا البحث.

كما أن هناك أسئلة فرعية أخرى تفرض نفسها ضمن طرح هذه الإشكالية ومنها:

ما هي جوانب الحقيقة في الآراء المتداولة في أوساط الباحثين والدارسين للحركة الإصلاحية في الجزائر في تصنيفهم مبارك الميلي من روادها الأوائل؟ وأنه منظرها من خلال كتاب "الشرك ومظاهره" وأنه مؤرخ الجزائر من خلال كتاب "تاريخ الجزائر في القديم والحديث".

إن إجابتنا عن مثل هذه التساؤلات وغيرها تقودنا إلى طرح أسئلة أخرى:

- لماذا أقدم مبارك الميلي وتفرد بهذه الجهود الفكرية؟. فالسياق التاريخي يحدثنا عن أن مجموعة الرواد كانت كلها نهلت من نبع واجد هو الإسلام. وعايشت واقعا واحدا هو الاحتلال الفرنسي ونتائجه في استدمار مقومات الشخصية العربية الإسلامية للجزائريين.

- فهل فهم مبارك الميلي الإسلام فهما خاصا، وفقهه الواقع الجزائري بما أثمر عن تلك المؤلفات في فكره السلفي؟ -أي التنظير المبني على حقائق الواقع- وما شرعية ذلك المنهج في فكر سلفي له مرجعيته الثابتة وهي الدين الإسلامي وأصوله؟ وكيف تجاوز مبارك الميلي العقبات الفكرية القائمة في مجابهة الواقع الجزائري المزري، بكل مكوناته الدينية والاجتماعية والسياسية؟.

---

(1) البشير الابراهيمي : "البصائر" الثانية، عدد 26 مارس 1948.

المنهـــــج:

إن العناصر التي تضمنتها إشكالية هذا البحث جعلتني أحاول تطبيق منـــاهج علميـــة معينة، وتماشيا مع طبيعة الموضوع، ومن المناهج المتبعة:

أ_ **المنهج التاريخي الوصفي**: الذي اتبعته في عرض المادة العلمية وتوزيعها، وفقـــا لخطـــة الرسالة، وملء كل ثغرات الموضوع في تتبع حياة الرجل وأعماله منذ البداية حتى النهاية.

ب_ **المنهج التحليلي**: الذي استخدمته في دراسة وتحليل مختلف القضايا الفكرية والعلميـــة والدينية؛ انطلاقا من مفهوم الشيخ الميلي لقضايا الإصلاح والنهضة الوطنية.

ج_ **المنهج المقارن**: وقد وظفته بصورة خاصة في المقارنة بين جهود المترجم لـــه في هـــذا البحث، وجهود مصلحين آخرين، حسب مقتضيات البحث وضروراته العلمية.

وكل ما كان يهمني في استخدام المناهج السابقة الذكر هو: ماذا قال مبارك الميلـــي؟ ولماذا قال؟ وماذا عمل؟ ولماذا وكيف عمل؟ وماذا قيل عن مبارك الميلي ولماذا قيل عنـــه؟. كل ذلك من أجل الوصول إلى الأجوبة التي طرحتها في إشكالية البحث.

صعوبات البحث:

لا يخلو بحث من الصعوبات التي تعترض الباحث، وهو يعد رسالته من جمع المصـــادر والمراجع، وفي استنباط المادة العلمية ودراستها وتبويبها وتحليلها وفق خطة الرسالة.

وفي عملي هذا، فإنه قد تطلب مني بذل مزيد من الجهد في سبيل الحصول على تلـك المصادر والوثائق؛ خاصة وأن معظمها يوجد في ثنايا الدوريات والصحف التي كان مبـــارك الميلي ينشر فيها آراءه ومواقفه وأفكاره، لعل ما في تلك الصعوبات هو أنها غير موجـــودة وغير مرتبة في دور الأرشيف والمكتبات الخاصـــة، وإن وجـــدت في بعـــض المؤسســـات كالأرشيف الولائي بقسنطينة، فإن العطب المزمن في جهاز الميكرو فيلم، قد منعنـــا حـــتى الاستفادة منها.

يضاف إلى ذلك صعوبات جمع الشهادات الشفوية، فمعظم المعاصرين للشيخ مبـــارك من زملاء وتلاميذ التحقوا بالرفيق الأعلى دون أن يتركوا آثارا مدونة، باستثناء القلة النـــادرة

منهم كالشيخ خير الدين، والشيخ محمد الصالح بن عتيق، والشيخ أحمد حماني رحمهم الله، وفي هذا خطر على الذاكرة الوطنية التي تفتقد للمدون والموثق. بل هناك شح كبير في المادة العلمية من مصادرها الأساسية المتعلقة ببعض الجوانب الشخصية في حياة مبارك الميلي، من طرف أفراد أسرته، ومنهم ولده المثقف الواعي محمد الذي اجتهدت للاستفادة العلمية منه، فسافرت مرتين إلى تونس، وكاتبته لكن دون جدوى، لأني كنت أسعى للحصول على آثار أخرى للشيخ مبارك كخلاصة دروسه العلمية، ومحاضراته، والكراسات التي ألفها لطلبته، كما استقيت ذلك من إشارات لها في بعض المراجع.

ومن جهة أخرى فقد اعترضتني صعوبات منهجية؛ من حيث أن شخصية مبارك الميلي المتميزة بثرائها الواسع لم تكن على مستوى واحد، مما يجعل الباحث يحتاط في تبويبها وترتيبها؛ حسب الأهداف المرسومة في خطة البحث، ومن ذلك التشابك القائم في شخصية مبارك الميلي المدرس المجدد، والصحفي، والمؤرخ، والسلفي الإصلاحي..بين هؤلاء جميعا وبين عمله الميداني في التربية والتعليم والدعوة والكتابة، وتعدد وسائله في عمله ونشاطه الإصلاحي الواسع.

ومهما يكن من شأن الصعوبات فإني حاولت جمع أطراف الموضوع من مصادره ومراجعه الأساسية والثانوية، طبقا لخطة الرسالة المتفق عليها مع الأستاذ المشرف، فإن وفقت فذلك فبفضل الله عز وجل وعونه، وإن أخفقت فحسبي أني بذلت جهدا خالصا في دراسة الموضوع دراسة علمية وموضوعية متأنية بهدف إضافة لبنة جديدة إلى المكتبة العربية الجزائرية في موضوع الحركة الإصلاحية الإسلامية المجددة.

مصادر البحث ومراجعه:

أولا: آثاره المنشورة في الصحف والتي ناهزت الخمسين مقالة. وقد أدرجناها في جداول مفصلة في الفصل الخامس، خدمة للباحثين الذيزلم يتسن لهم الاطلاع على آثار الميلي. وقد نشرت في الصحف التالية: المنتقد، جريدة ومجلة الشهاب، البرق، الإصلاح (السلسلة الأولى) وصحيفة وادي ميزاب، وجريدة البصائر السلسلة الأولى.

وقد كان له في هذه الصحف كلها مقالات ضافية، تتنوع بين :مقـــالات دينيـــة، اجتماعية، تاريخية..وكذلك البحوث العميقة التي كانت تـــزدان بهـــا أعمـــدة الصحـــف الإصلاحية.

وإن كنتُ لم أتمكن من الإطلاع على كل مقالاته في هذه الصحف، بسبب فقدانهـــا في المكتبتين الوطنية والتونسية، أو نتيجة لوجودها في الميكروفيلم المعطـــل. فـــإن مقـــالات الشيخ مبارك هي مقالات مبدأ ورأي وعلم، تعبر عن قـــدرات صاحبـــها في الإصـــلاح والإبداع في تربية المجتمع والنهوض به في كل المجالات العلمية والأدبية والفكرية والسياسية.

وقد استفدت من كل تلك المقالات التي استطعت الحصول عليها نصـــا وتلخيصـــا وفكرة؛ فهي مصادر أساسية من الطبقة الأولى، ويمتد تاريخ هذه الصحافة التي كان الميلـــي ينشر فيها ما بين سنوات(1925_1939)وهي حسب ترتيبها على النحو التالي :

المنتقد، الشهاب، البرق، الإصلاح (السلسلة الأولى)، وادي ميزاب، البصائر (الأولى).

ثانيا: آثاره المطبوعة وهي :كتاب "الشرك ومظاهره" وكتاب"تـــاريخ الجزائـــر في القـــديم والحديث " ...وقد استفدت منهما في الدراسة المتعمقة في فكر مبـــارك الميلـــي ومنهجـــه السلفي، وفكره الإصلاحي، وفكره في التاريخ وتوظيفه في بناء فكر النهضة الوطنية.

ثالثا: المصادر الشفوية : بالإضافة إلى ما سبق ذكره من المصادر المكتوبة يمكن أن نشـــير إلى بعض المصادر الشفوية التي استفدت منها في هذا البحث، وهي كما يلي:

- أحمد الغوالمي: مقابلة ببيته يوم 17 مارس 1995؛
- أحمد حماني: مقابلة في مكتب رئيس جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإســـلامية، يـــوم 16 أفريل 1995.
- زهير الزاهري :ببسكرة في مقابلة مطولة بمناسبة ملتقى محمد العيد بتاريخ ديسمبر1995.
- أحمد بن ذياب : مكالمتان هاتفيتان الأولى يوم 28 جـــانفي 1996؛ والثانيـــة في شـــهر ديسمبر 1998. ونذكر شهادته في الميلي رحمه الله؛ حيث قال عن الشيخ مبارك: " الشـــيخ مبارك يعد من أكبر أتقياء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ويأتي في المرتبة الثالثة، بعد بـــن باديس والإبراهيمي رحمهم الله جميعا".

ويمكن اعتبار أن كل هؤلاء الذين ذكرنا من معاصريه الذين يعرفون عنه ما لم يدون في الوثائق، وهو بعض أهدافي من هذا البحث.

مقابلات بتونس :

- ابنه محمد الميلي بمكتبه بالمنظمة العربية للتعليم والثقافة بتونس يوم 31 أفريل 1995.
- الدكتور محمد الصالح الجابري بمكتبه بالمنظمة العربية للتعليم والثقافة بتونس في جانفي 1998.

الكتابات السابقة عن الشيخ مبارك الميلي :

ذكرنا في أسباب اختيار الموضوع بأن الشيخ مبارك الميلي لم يفرد ببحث جامعي، أو دراسة أكاديمية شاملة ووافية لجهوده في الحركة الإصلاحية، ولذلك وحسب اطلاعنا عما كتب عنه هو أبحاث ومقالات مختصرة لجوانب معينة من حياته ودوره في الحركة الإصلاحية، نشرت في الصحف والمجلات في مناسبات ذكرى وفاته، وفي بعض الكتب.

كتابات من عاصروه:

أهمها ما كتبه عنه زملاؤه في الذكرى الثالثة لوفاته بجريدة البصائر في عدديها السادس والعشرين الصادر بتاريخ 8 مارس 1948، والعدد السابع والعشرين الصادر بتاريخ 15 مارس 1948، وهي عبارة عن شهادات متنوعة من زملائه (محمد البشير الإبراهيمي، توفيق المدني) وتلامذته بالأغواط ومعاصريه بقسنطينة.

أما الكتابات المعاصرة له بالفرنسية فنذكر منها:

- ما كتبه J. Desparmet بمجلة إفريقيا الفرنسية تحت عنوان :

Naissance d'une histoire « nationale » d'Algérie سنة 1933

Histoire des arabes et les Oulama d'Algérie سنة1934

- ما كتبه جان نوال سنة 1938 في مجلة إفريقيا الفرنسية (l'Afrique Française) تحت عنوان: التطور الديني في ميلة.

الكتـــــب :

علي مراد : Le réformisme musulman en Algérie de 1925 à 1940 وهـــي مـــن أولى الدراسات بعد الاستقلال التي سلط فيها الضوء على هذه الشخصية البارزة في إطار ترجمتـه لمسيرة رجال الإصلاح بشكل عام، وجعل مدينة الأغواط نموذجا لبعض المراكز الإصلاحية، وهي دراسة استفدنا منها من حيث المنهج وتقييمه لخصوصية الشيخ مبارك بـــين علمـــاء الإصلاح.

محمد علي دبوز: " نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة"، الجـــزء الثـــالث، ط1، المطبعـــة العربية، الجزائر. 1969. وكذلك "أعلام الإصلاح في الجزائر"، الجزء الثالث، ط1، 1978.

وقد تعقب مراحل حياة مبارك الميلي في نشأته بمسقط رأسه ثم دراسته بميلة، وعملـه الإصلاحي بالأغواط. كما لا ننسى أن نشير إلى أن بعض معلوماته لا تخلو من أخطاء منـها ما يتعلق بتاريخ انتقاله إلى مدينة الأغواط والرجوع منها إلى مدينة ميلة.

أحمد حماني : "صراع بين السنة والبدعة ..أو القصة الكاملة للسطو بالإمام الرئيـــس عبـــد الحميد بن باديس"، في جزئين، طبع دار البعث.وهو من المعاصرين، وقد اســـتفدت مـــن جزئه الثاني خاصة تعليقاته على ظروف تأليف كتابي الميلـــي، وتعليقاتـــه علـــى معـــارك وخصومات الشيخ مبارك ضد شيوخ الطريقة العليوية، وقد أورد عددا من المقالات الأصلية للميلي من الشهاب في كتابه المذكور.

الشيخ خير الدين: "مذكرات الشيخ خير الدين" طبعة دار دحلـــب 1985، الجـــزء الأول، وهو من معاصري الشيخ مبارك الميلي في الدراسة وفي النشاط الإصلاحي، ومما انفـــرد بـــه بعض الخصوصيات لمواقف الشيخ مبارك، في مكانته وموقعه داخل جمعية العلماء المســـلمين الجزائريين.

الشيخ محمد الصالح بن عتيق: "مواقف في الدعوة والإصلاح" من إصدارات دار البعث، وهو من تلاميذ الشيخ مبارك، وقد تحدث في كتابه عن جهوده الدعوية فيما يتعلق بنشاطاته في مدينة ميلة، وذكر أنه شديد التأثر به.

أحمد توفيق المدني: في كتابه "حياة كفاح الجزء الثاني (1925 ـ1945)وهو من المعاصرين للشيخ الميلي، وقد استفدنا منه خاصة فيما يتعلق بظروف تأليف كتاب"تاريخ الجزائر في القديم والحديث ".

عبد المالك مرتاض : "نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر 1925-1954"، الطبعة الثانية، 1983. حيث خص الميلي بدراسة نقدية جادة فيما يتصل بكتابه "تاريخ الجزائر في القديم والحديث"، في نحو خمس وعشرين صفحة. كان فيها موضوعيا في نقد الكتاب مع تقديره له.

وكذلك كتابه "فنون النثر الأدبي في الجزائري 1931 -1954-"؛ طبعة 1983، وقد خص مبارك الميلي بترجمة مختصرة له.

محمد ناصر : "المقالة الصحفية الجزائرية: نشأتها وتطورها وأعلامها 1903 إلى 1931" طبعة 1978. والذي يمكن أن نعده كدليل هام سمح لنا بتتبع مقالات الشيخ الميلي في مختلف الصحف الإصلاحية، بالإضافة إلى تحديده لخصائص الأسلوب الصحفي عند الميلي؛ حيث عده من المساهمين في تطوير المقالة الصحفية العربية في الجزائر.

أبو القاسم سعد الله: في كتابه"الحركة الوطنية الجزائرية (1900ـ1930)، الذي ذكر أن مبارك الميلي يعد أول مؤرخ جزائري حديث، حاول أن يعيد كتابة تاريخ الجزائر على أساس وطني.

عبد الكريم بوصفصاف: في رسالته العلمية"جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وعلاقتها بالحركات الجزائرية الأخرى: دراسة تاريخية وأيديولوجية مقارنة؛ حيث خص الشيخ مبارك بترجمة وافية في مختلف مراحل حياته وتعلمه، ثم تعليمه وعمله الإصلاحي؛ وحلل نتائج

جهوده في سياقها التاريخي، ضمن مجموع أعمال جمعية العلماء، مع إبـــراز مكانتـــه بـــين صفوف العلماء والمصلحين. مع تذكيره بأهمية مؤلفاته في النهضة الإسلامية الإصلاحية.

الوثائـــــق:

* سجل مؤتمر جمعية العلماء (تقرير عن المؤتمر السنوي الرابع لجمعيـــة العلمـــاء المســـلمين الجزائريين) صدر عن دار الكتب الجزائر، سنة 1982. بقلم الشيخ البشير الإبراهيمي تضمـــن محاضرة عن السرف المالي في حوالي الأربعين صفحة ألقاها مبارك الميلي على المشـــاركين في المؤتمر بتكليف من الجمعية.

* تقارير بأرشيف ولاية قسنطينة منها :

– لائحة استجواب الشيخ مبارك الميلي الصادرة عن مركز المعلومات والدراسات، ديـــوان ولاية قسنطينة، رقم 276 بتاريخ 04 جوان 1940.

– تقرير عن تشييع جنازة الشيخ مبارك الميلي بحضور 4000 شخص على رأســـهم العـــربي التبسي.

– تقرير ماي 1945 تحت عنوان: صدى وفاة الشيخ مبارك الميلي في الأوساط الأهلية، تحـــت رقم 1إلى 14

أبحاث أخرى : الدوريات:

عبد اللطيف عبادة : ويعد أهم من كتب في الجوانب الفكرية والفلسفية والعقديـــة عنـــد مبارك الميلي بعمق وأكاديمية؛ خاصة ما يتعلق بالدراسة الشاملة لكتاب"الشرك ومظـــاهره" والبحثان المواليان يعتبران من الأبحاث الوافية التي استفدنا منها ("مبارك الميلـــي :المصلـــح السلفي التقدمي "، مرقون. و"الفكر السياسي عند مبارك الميلي" منشور في مجلـــة الثقافـــة الجزائرية).

أحمد صاري : بحث له تحت عنوان"مبارك الميلي ودوره في الحركة الإصلاحية"، قدم فيه ترجمة دقيقة ومحكمة بأسلوب رصين ذكر فيه أبرز المحطات في حياة الشيخ الميلي، الذي نشر في مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية في عددها السابع (مارس 2001) ويعد من آخر الأبحاث التي تسنى لي الاطلاع عليها وهو جامع لأهم المراجع التي رجعت إليها.

محمد الصالح الجابري: بحث بعنوان : " المؤرخ الجزائري : مبارك الميلي في الصحافة التونسية" في مجلة الثقافة ع 119. وهي دراسة تميزت بالتركيز على فترة التحصيل العلمي للميلي بتونس ومكانته الخاصة في الوسط العلمي الزيتوني التي امتدت مدة طويلة.

أحمد بن دياب : "مبارك الميلي في ذكراه الثانية والثلاثين "، مجلة الثقافة عدد مارس 1977، مقال عبارة عن ترجمة للشيخ الميلي.

ـ" الأستاذ مبارك الميلي والصحافة" المنشور في نفس المجلة عدد 68، لسنة 1979، دراسة عن جهود مبارك الميلي في الصحافة.

لمنور مروش: "الجديد والقديم في كتاب تاريخ الجزائر في القديم والحديث" منشور بمجلة "نقد" عدد 11، لسنة 1998، ويعتبر من الدراسات النقدية المهمة للكتاب.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

خطة البحث:

لقد قسمت موضوع البحث إلى قسمين: تناولت في القسم الأول: مبارك الميلي وعصره، بينت في فصوله الثلاثة السياسة الاستعمارية ونتائجها في الجزائر، وكيف أدت إلى تحطيم البنى الاقتصادية الاجتماعية للشعب الجزائري، والخراب الكبير في كيانه الحضاري بمقوماته العربية الإسلامية، وعرضت رد الفعل الذاتي للجزائريين عن طريق الوعي بأوضاعهم، وكيف بدأ ذلك يتشكل في أفكار ومطالب وتيارات إصلاحية تدعو للتغيير برؤى وطروحات متناقضة حينا، ومتخاصمة فيما بينها، ومتقاربة أحيانا أخرى، منذ نهاية الحرب العالمية الأولى إلى اندلاع الحرب العالمية الثانية أواخر الثلاثينيات من القرن العشرين. وعرّفت بجهود الميلي وإرادته في تحقيق تحصيل علمي متميز، في صفوف رواد الحركة الإصلاحية الجزائرية، بآرائه ومواقفه من قضايا عصره.

وبينت في القسم الثاني في فصلين اثنين وسائل الإصلاح عند الميلي؛ من خلال آثاره الفكرية؛ سواء فيما تعلق بكتابيه المطبوعين، أو بما نشره في صحف الحركة الإصلاحية.

أما بالنسبة لكتبه المطبوعة، فقد خصصتها بدراسة مفصلة تتبعت فيها ظروف التأليف وبينت أهمية الأفكار التي تضمنتها بالنسبة لتلك الفترة، دون أن أهمل ذكر علاقة التأليفين بمنهجه في العمل الإصلاحي. كما خصصت للمقالات المنشورة في الصحف جداول كاملة، حاولت أن أجمع فيها مجموع ما حصلت عليه من المقالات التي فاقت الخمسين مقالة، مع تفصيل في ذكر عناوينها وتواريخ نشرها والصحف التي نشرت بها، فضلا عن ملخص موجز يبرز الأفكار الأساسية لكل مقال من تلك المقالات. وقد شكلت تلك المادة المدونة الأساسية لبحثي؛ بحيث كانت المصدر الرئيس للمادة العلمية في دراستي هذه. كما كان لي قصد آخر من ذلك، وهو توفير الجهد على الباحثين في تراث الرجل في المستقبل، حتى يتسنى لهم الاطلاع السريع على جهود الرجل.

ولا يفوتني في نهاية هذه المقدمة أن أتقدم بجزيل شكري إلى كل من قدم لي يد المساعدة لإنجاز هذا البحث، وأخص بالذكر الأستاذ المشرف الذي كان لحسن توجيهه أثره في استواء هذا البحث على النحو الذي هو عليه، كما أشكر مركز الأرشيف

بقسنطينة، ومكتبة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية وعمالها، ومجموع الأساتذة الذين أفادوني بتوجيهاتهم القيمة؛ والشكر أيضا للأساتذة الأفاضل أعضاء لجنة المناقشة الذين تجشموا عناء قراءة هذا البحث بغرض تقويمه وتصويبه، خدمة للعلم والبحث..

فشكري للجميع والله لا يضيع أجر من أحسن عملا.

وأخيرا...فالله أسأل التوفيق والسداد وتقبل هذا الجهد العلمي المتواضع وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم، وأن ينفع به إنه على ما يشاء قدير.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

* القسم الأول *

مبارك الميلي، حياتـــه ومواقفه من قضايا عصره

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

* الفصل الأول *

أوضاع الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي

* المبحث الأول : الحيـــاة السياســـية
* المبحث الثاني : الحالـــة الاقتصاديـــة
* المبحث الثالث : الأوضاع الاجتماعية
* المبحث الرابع : الأوضـــاع الثقافية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ابتليت الجزائر على مدى 132 سنة بالمستعمر الفرنسي، الذي شرد أهلها واغتصب أرضها، واستباح ثروتها وخيراتها، وقوض بنياتها الاجتماعية والثقافية والاقتصادية ونقل إليها قوانينه وأنماط حياته وعاداته وفنونه، وجلب إليها معمرين فرنسيين وأوروبيين.

لقد صبغ الفرنسيون منذ إقامتهم في الجزائر، الطبيعة الجزائرية بديكور استعماري ذي غايات معقدة، وديكور اقتصادي من أجل تثمين الاحتلال وتطوير هذا السوق الجديد وديكور قانوني وتشريعي بغرض ضمان أمن المعمرين، ومنح الإدارات أدوات الهيمنة دون أن ننسى الديكور الذي تجلى في الطبيعة من خلال بروز نسيج عمراني متميز، تمثل في تلك العشرات من القرى ذات القرميد الأحمر المجموعة عادة خلف حواجز من الأشجار، حول الكنيسة والبلدية والمدرسة، إنه إطار رمزي لعملية الاستحواذ والحيازة التي تتحدى الزمن[1].

إن الاستعمار في مرحلة الاستيطان قد وضع متنافسين وجها لوجه، ثم أجبر بعد ذلك مجتمعين للعيش جنبا إلى جنب، ضمن نسيج من العلاقات، والمعارضات، والردود أنشأت الوضع الاستعماري الذي سيؤدي إلى مواجهات اضطرابات، وثورات.

إن الاستيطان الأوروبي في الجزائر قد أحدث تناقضا كبيرا بين الجزائريين والمعمرين الأوروبيين، حاول أن يخفف منه "نابوليون الثالث" بما أسماه " المملكة العربية" لأنه يريد أن يجعل نفسه حكما بين المعمرين المستعمِرين والجزائريين المستعمَرين. فقد جاء في رسالته الشهيرة (06 فيفري 1863) إلى الحاكم العام " B ILIS " : " يجب إقناع العرب بأننا لم نأت إلى الجزائر لاضطهادهم ونهبهم، لكن لجلب منافع الحضارة لهم... فالجزائر ليست مستعمرة بمعنى الكلمة، لكنها مملكة عربية... ويجب خلق المساواة بين الأوروبيين والأهالي"[2].

وعلى الرغم من أن نابوليون الثالث قد حاول في سياسته تجاه الجزائر أن يتقرب

---

(1) A. Rey. Goldziguer « Le Royaume Arabe (La politique Algérienne de Napoléon III, 1861-1870, SNED, Alger, 1977, p23

(2) صالح عباد: "المعمرون والسياسة الفرنسية في الجزائر 1870-1900"، ديوان المطبوعات الجامعية، 1984، ص16.

من "الأهالي"، فإن البلاد لم تشهد طوال الأربعين سنة بعد الاحتلال أي نوع من الاستقرار في السياسة أو في الثقافة.

ويذكر سعد الله أنه بمطلع القرن العشرين تحقق للمعمرين حلمهم في إنشاء حكم ذاتي كامل في الشؤون المالية والمدنية للجزائر، كما يذكر أنه بناء على قانون "السناتوس كونسولت" لسنة 1865 فإن الجزائريين لم يكونوا تحت النظام الجديد "لا مواطنين فرنسيين ولا جزائريين وطنيين، فقد كانوا في نظر الكولون عبيدا (سلالة مقهورة) ولكنهم في نظر أنفسهم لا شيء". فما هي أشكال ردود الفعل لدى الجزائريين على هذا الوضع مع بداية القرن العشرين؟[1].

لقد أخذت مقاومة الاستعمار خلال الفترة الممتدة من بداية الاحتلال إلى الحرب العالمية الثانية، شكلين أساسيين: "إن المقاومة الأولى للشعب الجزائري للسيطرة الاستعمارية الفرنسية، كانت مقاومة بالسلاح ولقد استمرت هذه المقاومة المسلحة إلى غاية نهاية القرن التاسع عشر... ثم خلفت المقاومة السياسية المقاومة المسلحة خلال النصف الأول من القرن العشرين الشكل الرئيسي لمقاومة الاستعمار الفرنسي"[2].

وأخذت المقاومة السياسية الإصلاحية في الجزائر تزداد تبلورا فكرا وممارسة منذ بداية العقد الثاني من القرن العشرين، وكان قانون التجنيد الإجباري[3] دافعا لذلك، إذ تصدى رواد التيارات الإصلاحية المختلفة كل حسب رؤيته وتوجهه وأسلوبه الخاص في شكل المقاومة للاستعمار الاستيطاني وتخفيف وطأته على الجزائريين.

فقد كان ما يسميه سعد الله "كتلة المحافظين" التي تحرص على " بقاء الحالة الراهنة لمغارضة الأفكار الغربية والتجنيس والتجنيد الإجباري في الجيش الفرنسي وكل الخطط التي قد

---

[1] أبو القاسم سعد الله : الحركة الوطنية الجزائرية (1900-1930) ج2، ط3، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر 1983، ص27.

[2] الجيلالي صاري، محفوظ قداش: "المقاومة السياسية 1900-1954" الطريق الإصلاحي والطريق الثوري (ترجمة عبد القادر حراث)، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1987، ص ص7،8.

[3] وافق عليه المجلس الوطني الفرنسي في فيفري 1912، والذي نص على أن يجند الشاب الجزائري في سن الثامنة عشرة (18) ويتقاضى أجرا شهريا على خدمته بينما الشاب الأوروبي يجند في سن الواحدة والعشرين ولا يتقاضى أجرا على خدمته لأنه وطني صميم والجزائري المسلم مرتزق. والذي كان أهم مظهر للتحدي السياسي ضد السلطات الفرنسية ومدخلا لبداية النضال السياسي من مختلف القوى الإصلاحية وقد تفاعلت ردود الفعل إلى اضطرابات كثيرة خاصة بمنطقة الأوراس.

تدخل تغييرات متطرفة إلى المجتمع الجزائري" وكانت هذه الكتلة تتكون من مثقفين تقليديين وقدامى المحاربين والموظفين الدينيين الرسميين وبعض الإقطاعيين والمرابطين، وكان بعض أفراد هذه الكتلة يشتغلون بالتعليم وبعضهم ممثلين في المجالس النيابية، وبعض رواد الصحافة الجزائرية مع بداية القرن، فهؤلاء كانوا ينادون بالتقدم والتسامح وتوفير فرص التعلم للجزائريين[1]. ومجموعة العلماء الذي عرفوا بالمحافظين في بداية القرن هم في الحقيقة النواة الأولى لبذور الحركة الإصلاحية في الجزائر، التي تعرف تطورا سريعا في تركيبتها البشرية بعد الحرب العالمية الأولى.

حيث تسعى بقيادة الشيخ بد الحميد بن باديس التأسيس للنهضة الوطنية الحديثة، ومن خلال أفكارها المتميزة عن بقية التيارات السياسية الأخرى، ستكون مدار مساجلات سياسية ومواجهات مع مختلف أطراف الصراع حول قضايا الإصلاح في الجزائر في الثلاثينات.

وكان هناك أعضاء النخبة الجزائريين المثقفين ثقافة غربية ومعظمهم عارفين بالسياسة ومطلعين على ألاعيبها. وقد عملت هذه النخبة على حماية الجزائريين من جور القوانين الفرنسية، وذلك بمطالبتها بالمساواة مع الفرنسيين ومنح النواب الجزائريين الحرية للدفاع عن مصالح الشعب الجزائري، و لم يطالب رواد هذه النخبة بالاستقلال الكامل وذلك لأنهم كانوا يعارضون مطالب الكولون باستقلال الجزائر الفرنسية عن فرنسا الأم.

ومن هنا يمكن القول أن النخبة كانت تثق في وعود الحكومة الفرنسية بباريس، ولكنها ترى أن عدو الجزائريين يتمثل في المعمرين الاستيطانيين الاستغلاليين[2].

أما بعد الحرب العالمية الأولى فقد ظهر فصيل انشق عن تيار دعاة الإدماج والمساواة وتميز برؤية جزائرية وطنية تحمل بذور وإرهاصات الفكرة الوطنية الاستقلالية، وذلك بعد مخاض عسير في منتصف العشرينيات وهذا الفصيل هو حركة الأمير خالد، ثم تلاقحت رؤاه وأفكاره مع أفكار الحركة النضالية في فرنسا، وتبلور بشكل أوضح على أيدي رواد العمل

---

[1] أبو القاسم سعد الله، المرجع نسفه، ص152.

[2] يوسف مناصرية: الاتجاه الثوري في الحركة الوطنية الجزائرية بين الحربين العالميتين، المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر، 1988، ص12.

النضالي في أوساط العمال المهاجرين الجزائريين والمغاربة والتونسيين -بعد انسحاب الأمير خالد عن الساحة السياسية- وهذا التيار شكل النواة الأولى لحركة نجم شمال إفريقيا.

وسيأتي في المباحث التالية عرض لمختلف الرؤى وأساليب أهم التنظيمات السياسية ونشاطاتها

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول : الحياة السياسية

أخذت المعارضة السياسية للنظام الاستعماري تزداد قوة وتنظيما ابتداء من الحرب العالمية الأولى، وقد شهدت الفترة الممتدة ما بين الحربين العالميتين بروز تنظيمات سياسية وطنية عديدة.

* **حركة الأمير خالد:** بعد انتهاء الحرب العالية الأولى سنة 1918 وانعقاد مؤتمر الصلح بفرساي عام 1919، ذهب وفد من الجزائريين الذين شاركوا في الحرب إلى جانب الحلفاء، وقدموا مطالب للمؤتمرين سلمها الأمير خالد حفيد الأمير عبد القادر[1].

وكان القصد من هذه المبادرة لفت انتباه ساسة مؤتمر الصلح إلى الأوضاع السيئة التي تعيشها الجزائر وتذكيرهم بالتضحيات التي قدمها الشعب الجزائري خلال الحرب ومساهمته بذلك في انتصار الحرية والعدالة إلى جانب الحلفاء.

ومما شجع الأمير خالد ورفاقه على المبادرة هو مبادئ "ويلسن" الأربعة عشر والتي من أهمها حق تقرير مصير الشعوب، فقدم الأمير عريضة تضمنت مجموعة من المطالب تدعو إلى منح الجزائريين حق تقرير مصيرهم بأنفسهم.

وفي عام 1922 زار الرئيس الفرنسي " الكسندر ميليران " الجزائر للإطلاع بنفسه على الأوضاع عن كثب، فاستغل الأمير" خالد" هذه الفرصة ليعرض عليه وجهة نظر الجزائرين في إصلاحات 1919م، فكان رد رئيس الجمهورية الفرنسية: "إن أية إصلاحات أكثر من هذه سوف تؤدي إلى نتائج عكسية". بل واستكثر ما عليه الجزائريون ، فأردف يقول: "بأنه سيأتي اليوم الذي تزداد فيه حقوق المسلمين التي هي الآن كثيرة"[2]. وهذا يعني أن لوبي المعمرين الكولون قد أصبح يتحكم بشكل قوي في إدارة السياسة الاستعمارية وفق مصالحه بالجزائر.

---

[1] هو خالد بن الهاشمي بن الأمير عبد القادر، ولد بدمشق سنة 1875، زاول تعليمه الابتدائي بدمشق والثانوي بالجزائر والعالي بكلية سان سير العسكرية التي تخرج منها ضابطا. وعمل بالجندية الفرنسية برتبة نقيب مدة 23 سنة، وكان لا يريد أن يدرس بهذه الكلية رغم إصرار أبيه على ذلك وضغط المراقبة الفرنسية عليه، فكان يقول : "أنني عربي وأريد أن أبقى عربيا وأن لا أتخلى عما أؤمن به واعتقده من الآراء.." وافته المنية بدمشق يوم الاثنين 11 شوال 1354 هـ (1936).، أنظر يوسف مناصرية، الاتجاه الثوري في الحركة الوطنية الجزائرية بين الحربين العالميتين 1919-1939، ص65.

[2] أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص317.

ووجد المعمرون الفرصة مناسبة لهم فبالغوا في دعاياتهم ضد الأمير خالد حتى أقنعوا الحكومة الفرنسية في الجزائر عام 1923، وذلك بضغط من اتحادية رؤساء البلديات والنواب الماليين الذين ألصقوا به العداء لفرنسا[1]. وعملوا على نفيه من الجزائر.

ويرجع سعد الله جذور حركة الأمير خالد مع نهاية الحرب العالمية الأولى إلى جوانب رمزية تتعلق بكونه من نسل الأمير عبد القادر، وكذلك سعة اطلاعه على الحضارة الإسلامية والحضارة الأوروبية إضافة إلى خبرته في الحرب على الجبهة الأوروبية.

ويكون الأمير قد استثمر لصالح حركته ذكريات جهاد جده الأمير عبد القادر من الذاكرة الجماعية للجزائريين، وكذلك اخباره عمه الأمير عبد المالك المثيرة في المغرب وكذلك الحركات القومية في أوربا والشرق الأدنى، وكذلك الفراغ في عنصر القيادة السياسية بالجزائر، وهذا ما جعله يدخل الميدان السياسي كمتحدث باسم الجزائريين[2].

لقد أظهر الأمير" خالد "، في سن مبكر شعورا وطنيا قويا، ورفض التجنس بالجنسية الفرنسية،كما أدرك ضرورة تنظيم الشعب وتوحيده. يقول عنه المؤرخان" الجيلالي صاري ومحفوظ قداش ": "ويمكننا أن نتلمس في العمل السياسي للأمير جانبين اثنين: الأول في إطار القانون الاستعماري وبالتالي نزعة نحو الانتفاضة وهي سياسة الشبان الجزائريين، والآخر في إطار أكثر ثورية حيث تبرز نزعات الأمير الوطنية أكثر وضوحا...

وقد قام الأمير " خالد " – بعد رفض الإدارة الفرنسية أن تفتح الحوار مع الشبان الجزائريين – بتحديد إيديولوجية وطنية واضحة الملامح والقسمات، وقد تصور الكفاح الثوري بأنه الطريق الممكن الوحيد، وجعل مرجعيته الوطنية منطلقة من الإسلام، و أنه من هذا الأساس تنطلق النهضة ويصنع الشعب مستقبله. وتأسيسا على هذا التصور رفض الاندماج والتجنس. "فمن هذا الرفض المؤكد بأن لا يتخلى عن هذه الخاصية الجوهرية من الشخصية الجزائرية، يمكننا أن نجزم أنه ظهرت الملامح القانونية الأولى للوطنية الجزائرية، كان " خالد" يريد أن يرى انبعاث الأمة الجزائرية وتبوأها مكانتها في مصاف الأمم"[3].

---

[1] يحي بوعزيز: الاتجاه اليميني في الحركة الوطنية الجزائرية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1991، ص36.

[2] أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص381

[3] الجيلالي صاري، ومحفوظ قداش، المرجع السابق، ص53.

وقد مهد الوصول إلى هذا الهدف بالمطالبة بالمساواة كما أشرنا سابقا، ويتضح البعد العربي الإسلامي في حركة الأمير "خالد" في تصديه إلى انتشار الثقافة الفرنسية وتفوقها على الثقافة العربية الإسلامية. حيث طالب الأمير بالتعليم الإجباري للغة العربية والفرنسية جنبا إلى جنب، وهو يعلم أن اللغة العربية هي عماد الدين الإسلامي، وأن في تعلمها عاملا أساسيا يزيد الجزائريين تمسكا بمقومات الشخصية الوطنية العربية الإسلامية[1]. وبعد محاصرته من طرف المعمرين ودعاة الإندماج والمساواة ركز في انتقاداته للاستعمار الفرنسي عن طريق الكتابة في الصحافة. وقد نفي إلى سوريا التي واصل منها نضاله السياسي، ثم انتقل إلى باريس ليواصل نشاطه هناك في أوساط عمال شمال إفريقيا كما أشرنا سابقا.

*** حركة نجم شمال إفريقيا :**

ويذكر محمد قنانش أن الأمير خالد في هذه الفترة (1924)، قد اجتمع واستمع إلى أقواله مجموعة من عمال شمال إفريقيا، وفي غمرة الأحداث التي تعاقبت على الجزائر، فكر العمال الجزائريون كثيرا وأحسوا بأنهم القوة الوحيدة التي يمكنها أن تقوم بعمل جبار في التوعية السياسية... واهتدى البعض منهم في أوائل سنة 1925م إلى إنشاء حركة دينية اختاروا لها اسم "جمعية الأخوة الإسلامية"... وهكذا اجتمعت هذه الجمعية في شهر جوان 1926م بحضور بعض الشيوعيين إلى الإعلان عن تأسيس جمعية "نجم شمال إفريقيا"[2].والتي تأسست في باريس سنة 1926م على أنقاض الجمعية الدينية السابقة الذكر. وقد عاشت هذه الحركة من عام 1926 حتى بداية عام 1937، حيث قامت حكومة الاحتلال بحلها، فخلفها في الميدان حزب الشعب الجزائري الذي يعتنق نفس مبادئها.

ويذكر محمد قنانش الظروف التي أحاطت الإعلان عن تأسيس الحركة بقوله: "انعقد أول اجتماع عام أعلن فيه عن تأسيس الحركة وعن اسمها في الثاني من شهر جويلية بقاعة النقابة وفيه تم تأسيس اللجنة المركزية، حيث عين في البداية حاج علي عبد القادر (تاجر، وهو شيوعي) والكاتب العام مصالي الحاج (بائع متجول)، وحسب ما نص عليه قانونها

---

[1] يوسف مناصرية: المرجع السابق، ص53.

[2] محمد قنانش: الحركة الإستقلالية في الجزائر بين الحربين (1919 - 1939)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص ص: 28، 29.

الأساسي فإنها تهدف إلى مساعدة مسلمي شمال إفريقيا على الحياة في فرنسا ورفع جميع المظالم أمام الرأي العام ولهذا وضعت كراسا للمطالب المستعجلة المشتركة وتعتزم تتبع تحقيقها خصوصا عن طريق الصحافة والاجتماعات العامة والمناشير والنشاط البرلماني وتقديم العرائض"[1].

وقد اعتمد النجم ومن بعده حزب الشعب على وسائل متعددة، وأهمها الاحتجاج والتظاهر والصحافة والتجمع، فلا تكاد تمر مناسبة وطنية أو عربية تستدعي اتخاذ موقف إلا سارع النجم بإثبات وجوده، ورفع صوته احتجاجا على تصرفات الإدارة محليا وعربيا في تدخل الجيش الفرنسي في سوريا ولبنان والمغرب، واضطهاد الوطنية في تونس وعرقلة الحركات الاستقلالية في مصر...".

*** حزب الشعب الجزائري :**

تأسس في يوم 11 مارس سنة 1937، وهو الوارث الحقيقي لحركة نجم شمال إفريقيا، وقد كان ينادي باستقلال الجزائر التام، في نطاق حضارتها العربية الإسلامية، ولذلك لقي من الاحتلال اضطهادا عنيفا وعنتا شديدا بسبب مبادئه الثورية وتمسكه بمقومات الشخصية الوطنية للجزائر التي تتميز عن فرنسا وسواها من البلدان الأوروبية والغربية.

وكانت أهداف حزب الشعب الجزائري لا تختلف في جوهرها عن أهداف النجم وهي: إنشاء حكومة وطنية وبرلمان، واحترام الأمة الجزائرية، واحترام العربية والإسلام[2].

وباسم الحزب الجديد اشترك أعضاؤه لأول مرة في الانتخابات المحلية بالجزائر التي جرت في شهر جويلية 1937.

حقا أن الحزب قد فشل في الحصول على الأصوات اللازمة في الانتخابات البلدية لمدينة الجزائر، لكنه من جهة أخرى حصل على نجاح كبير، لأنه أصبح معروفا في الأوساط الجزائرية، وأصبح فوزه قضية وقت فقط. ويرجع بعض الكتّاب فشل الحزب في الانتخابات المذكورة إلى خصومة الحزب الشيوعي له. وعلى كل حال فإن "مصالي

---

(1) نفسه، ص36.

(2) أبو القاسم سعد الله: "الحركة الوطنية الجزائرية 1930 - 1945"، ج3، ط3، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1986، ص155.

الحاج" وأنصاره قاموا بحملة واسعة ضد الإدارة الفرنسية. وقد أنشأ الحزب أول جريدة له بالعربية في الجزائر بعنوان "الشعب"، بالإضافة إلى جريدة "الأمة" التي كانت تصدر بالفرنسية في باريس، وكانت صحيفة "الشعب" نصف شهرية مديرها "مصالي الحاج" نفسه، وترأس تحريرها أولا "مفدي زكريا" الشاعر الجزائري المعروف، وقام الحزب الجديد بمظاهرة كبيرة يوم 14 جويلية 1937، مع رفع العلم الجزائري مميزا نفسه عن مظاهرة الجبهة الشعبية التي جرت في نفس الوقت[1].

وبعد عمليات القمع والاعتقالات التي تعرض لها قادة حزب الشعب الجزائري في سنة 1937، واصل المناضلون نشاطهم بالإكثار من الاجتماعات والمناشير والتنديد باعتقال قادتهم "مصالي الحاج"، "مفدي زكريا"، "خليفة بن عمار"، "لحول" و"غرافة" الذين ألقي القبض عليهم يوم 27 أكتوبر1937.

واتخذ حزب الشعب الجزائري مظهر الحزب الضحية، وظهر " مصالي" كالرئيس الوطني. وفي سبتمبر 1939 حل حزب الشعب الجزائري ومنعت الجريدتان اللتان كان يصدرهما وهما: "الأمة" و"البرلمان الجزائري". وألقي القبض على بعض القادة منهم "مصالي " الذي أطلق سراحه في أوت 1939، ورفعت دعوى ضد واحد وأربعين مناضلا منهم بتهمة إعادة تشكيل رابطة محلولة، والتظاهر ضد السيادة الفرنسية والتعدي على حرمة التراب الوطني. وأرسل قادة ومناضلون آخرون إلى السجون والمعتقلات[2].

* **حركة اتحادية المنتخبين الجزائريين** : ظهر مع بداية القرن العشرين إلى الوجود تيار سياسي إصلاحي أطلقت على أصحابه تسميات عديدة "الشبان الجزائريون"، "المتطورون"، "جماعة النخبة".

وتمثل اتجاههم في "دمج المجتمع الجزائري في كيان الدولة المستعمرة بغية إخراج المسلمين الأهالي من حالة التخلف وأحكام القوانين الاستثنائية (الأنديجينا) وقد كان لهم

---

[1] نفس المرجع، ص156.

[2] الجيلالي صاري ومحفوظ قداش: المرجع السابق، ص69.

دور بارز في نشر الوعي السياسي والاجتماعي بين الفئات الجزائرية المثقفة"[1].

هذا وقد انتعشت هذه النخبة أثناء مناقشة قانون التجنيد الاجباري في البرلمان الفرنسي خلال سنوات 1906-1912، ولكنها اختفت من المسرح السياسي إبان الحرب العالمية الأولى. لتبرز من جديد مع صدور إصلاحات 04 فيفري 1919[*].

وفي سنة 1927 تم تجميع المنتخبين الجزائريين ضمن اتحادية واحدة على غرار فيدرالية رؤساء البلديات الأوربية في الجزائر (بلديات كامل الصلاحيات).

وكانت المبادرة في ذلك قد جاءت من طرف مجموعة من شبان الجزائر العاصمة فأسسوا يوم 11 سبتمبر سنة 1927 اتحادية المنتخبين المسلمين الجزائريين تحت رئاسة الدكتور بن تامي الذي كان مستشارا بلديا خلال شهر أفريل 1927[2].

ويرى يحي بوعزيز أن هذا الاتجاه مر بثلاث مراحل أساسية كان لكل منها مميزاتها وظروفها، وقد بدأت المرحلة الأولى في نظره من مطلع القرن العشرين وامتدت إلى مطلع عقد العشرينيات منه وتميزت هذه المرحلة بتعلق روادها بمبدأ المساواة بين الأغلبية المسلمة والأقلية الأوروبية.

أما المرحلة الثانية فتبدأ من منتصف عقد العشرينيات وتمتد إلى مطلع الحرب العالمية الثانية وتميزت بتحمس أصحابها لفكرة الإدماج والتجنيس، ويصفها نفس المؤرخ بكونها مرحلة تطرف ومبالغة في الارتماء في أحضان المستعمر.

---

[1] عبد الكريم بوالصفصاف: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وعلاقاتها بالحركات الجزائرية الأخرى، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، 1996، ص257.

[*] اعتبرت هذه الإصلاحات قاعدة جديدة في العلاقة بين فرنسا والجزائريين، فقد حمل هذا القانون قسمين تضمن الأول كيفية دخول أهالي الجزائر للجنسية الفرنسية بناء على شروط محددة لابد من توفرها للارتقاء إلى المواطنة الفرنسية، أما القسم الثاني فتضمن النظام السياسي للأهالي الجزائريين المسلمين الذين ليسوا مواطنين فرنسيين، وقد نص هذا على أن الجزائريين الذين لا يريدون أن يصبحوا مواطنين فرنسيين سيمثلهم في كل المجالس الاستشارية في الجزائر أعضاء منتخبون، كما نص على أن المستشارين الجزائريين في البلديات ذات الصلاحيات الكاملة سيكون لهم حق المشاركة في انتخاب رؤساء المجالس البلدية المنتخبة ومساعديهم. وخلاصة الموقف من هذا القانون أن الجميع لم يكونوا يرغبون في إصلاحات سنة 1919، فالسلطات الفرنسية اعتبرته تنازلا وتهدئة لأوضاع والاضطرابات التي انجرت عن ردود فعل قانون التجنيد الإجباري وترضية للجزائريين الذين شاركوا في الحرب العالمية الأولى.أما الجزائريون فرأوا فيه مجرد ذر الرماد في العيون وأنه لم يكن في مستوى المطالب والطموحات، حتى جماعة النخبة دعاة التجنيس والإندماج لم يريدوا هذه الإصلاحات لأنها لم تكن في مستوى التضحيات التي وضعوها ولا حتى في مستوى الأمل الذي وضعوه في فرنسا. ومن جهة أخرى فإن الكولون لم يريدوا هذه الإصلاحات لأنها كانت في نظرهم خطيرة ووخيمة العواقب (أنظر أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية 1900 – 1930، الجزء 2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1983، ص 287 وما بعدها.

[2] المرجع السابق، ص257.

أما المرحلة الثالثة والأخيرة فبدأت من منتصف الحرب العالمية الثانية وامتدت إلى ما بعد سنة 1954، وتبنى أصحابها فكرة الدعوة إلى إقامة جمهورية جزائرية مرتبطة بفرنسا في اتحاد فيدرالي[1].

وهكذا بعد فشل حركة الأمير "خالد"، تبنى المنتخبون سياسة الشبان الجزائريين. إن كتابات "فرحات عباس" بين 1926–1930 والتي أودعها في كتابه "الشاب الجزائري" تقترح إطارا للاندماج وفق برنامج منسجم، وقد طالب "عباس" بالمساواة بين المسلمين والفرنسيين في جميع الميادين، وطلب الجنسية الفرنسية دونما أي تجنس. وكان يعتقد أن أي جزائري مسلم يمكنه أن يكون فرنسيا على مستوى الوطن الفرنسي...، كان "عباس" يؤكد على سياسة المراحل: مرحلة المدارس، ومرحلة شق وتعبيد الطرق ومرحلة بناء المستشفيات لتحويل وتطوير حياة الفلاح[2].

وعلى العموم تتمثل مطالب هذه الحركة السياسية التي يمكن وصفها بالحركة المطلبية، بالنظر إلى شمولها واتساعها وصلتها بالجوانب الاجتماعية، في:

1 – تمثيل الأهالي الشامل في البرلمان .

2 – الزيادة في التمثيل الأهلي في المجالس المنتخبة في الجزائر بنسبة الخمسين مع مشاركة المنتخبين المسلمين في انتخاب رئيس المندوبيات المالية.

3 – تعيين نواب منتخبين في البلدية ذات الصلاحيات الكاملة.

4 – توسيع التعليم بالفرنسية و العربية وتوحيد التعليمين الابتدائيين الأوروبي والأهلي.

5 – المساواة في الخدمة العسكرية مع إلغاء المنحة.

6 – تولي كل المناصب المدنية والعسكرية مع المساواة في المراتب الوظيفية والرتب العسكرية، والمنح المخصصة لموظفي الجزائر.

7 – الحرية الكاملة والمطلقة للسفر إلى فرنسا والخارج مع مراعاة نفس الشروط المطلوبة من المواطنين.

---

[1] يحي بوعزيز، المرجع السابق ص ص، 21،22.

[2] نفسه، ص21.

8 – تطبيق القوانين الاجتماعية على جميع السكان الجزائريين بدون تمييز.

9 – إصلاح التشريع الغابي.

10- إلغاء المحاكم الجنائية و الاعتقال الإداري وقانون الانديجينيا الذي مازال يطبقه قضاة الصلح.

11 – التحقيق في الملكية الأهلية.

وقد "اتبع النواب والنخبة خلال الثلاثينات سياسة المطالبة بالحقوق السياسية والمدنية من الحكومات مع الاحتفاظ بأحوالهم الشخصية كمسلمين. ومعنى هذا أنهم كانوا يرحبون بفكرة الاندماج عن طريق الحقوق لا عن طريق التجنس؛ فالأول يجعل منهم فرنسيين مسلمين، أما الثاني فيجعل منهم فرنسيين مسيحيين أو لا دين لهم، وهذا المأزق الذي وضعهم فيه القانون الفرنسي هو الذي حاولوا أن يخرجوا منه عن طريق مشروع "فيوليت" تارة والمؤتمر الإسلامي تارة أخرى، والتقرب من فرنسا تارة ثالثة، غير أن جميع المحاولات باءت بالفشل الذريع في هذا المجال"[1].

لقد فقد المنتخبون اعتبارهم لأنهم رغم مهامهم السياسية واعتدالهم ووطنيتهم الفرنسية، لم يحصلوا على شيء من الحكومة الفرنسية. والخطر كبير على المنتخبين أن يتجاوزهم غيرهم ممن يذهبوا إلى أبعد منهم، أو يعبرون بلهجة أخرى أكثر احتجاجا وأقل تأدبا. وشعر الملاحظون بتباين بين الجماهير ونخبتها، وكان ينبغي لهؤلاء أن يختاروا وأن يتوجهوا إما نحو الشعب وإما نحو فرنسا. وحتى قضية التجنس كان يجب أن تدرس من جديد لأن المتجنسين كانوا يتساءلون : هل اختاروا الطريق الأصلح؟ وصاروا يسألون المتفقهين في الدين؛ هل التجنس جائز؟.

وكان من أبرز عناصرها في البداية الدكتور بن جلول، الذي انضم إلى اتحادية قسنطينة سنة 1930، كما انضمت إليها شخصيات مثقفة من أطباء ومحامين وأساتذة وصحافيين وقضاة وصيادلة جزائريين و لم يكونوا كلهم من النخبة، فقد كانت هناك مجموعة من النواب "التقليديين" من أصحاب العائلات الكبيرة والتجارة والأرض وقدماء

---

[1] أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص ص: 65، 66.

المحاربين في الجيش الفرنسي، وكثيرا ما كانت تقع خصومات بين هاته النوعية من النـــواب والنخبة خاصة في مواسم الانتخابات، بل اشتدت خلال سنة 1930 المواجهة بينهم، حـــتى أطلق جماعة النخبة على النواب التقليديين وبعض القياد والباشاغات اسم **"كلاب فرنســا"** ورموهم بألقاب وضيعة[1].

وهذا التصنيف يؤكد عدم الانسجام الذي اســـتنتجه الأســتاذ بوالصفصـــاف في قوله:"ويتضح أن أفراد هذه الاتحادية لم يكونوا منســـجمين لا في العقيـــدة الدينيـــة ولا في الإيديولوجية السياسية ولا في النظرة المستقبلية للبلاد"[2].

وقد لعب بن جلول دورا أساسيا في التعبير عن سياسة النخبة التي تعلقت بفرنســـا، والتي كانت انطلاقة لحركته سنة 1930 وما بعدها، حيث ساعدته ظروف تكويـــن جمعيـــة العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1931، وتكوين اتحاد شيوخ بلديات الفرنسيين في الجزائـــر، وتتويج نشاطه بالبروز أكثر لما انتخب كرئيس لكتلة النواب في عمالة قسنطينة ســـنة 1933. حيث زاد في صعود نجمه فوز كتلة النواب في انتخابات المستشارين العامين التي جـــرت في نفس السنة، وقد لعب دورا هاما في أحداث أوت 1934 بقسنطينة، إذ كان من الموقعـــين على الوثيقة التي تقدم بها أعيان ونواب قسنطينة إلى الحاكم العام وممثله والي قسنطينة علـــى احترامهم لفرنسا (بلادنا) واحترام النظام وأبدوا استعدادهم في إعادة النظام والأمن[3].

وإلى جانب شخصية بن جلول برزت شخصية السياسي الصيدلي فرحات عبـــاس، الذي لعب هو الآخر دورا هاما في حركة اتحادية المنتخبين خلال الثلاثينيات، حيـــث عـــبر عن رأيه بوضوح أكثر وصراحة حول فكرة الاندماج في مقاله "فرنسا هي أنا" الذي أنكـــر وجود وطن جزائري قائلا: "إن هذا الوطن لا وجود له، لقد بحثت عنه في التـــاريخ فلـــم أجده، فالذي يهم بالدرجة الأولى هو التحرر الاقتصادي والسياسي لجماهير الجزائر" ويعتـــبر سعد الله أن فرحات عباس الشخصية الثانية لجماعة النخبة والنواب خـــلال الثلاثينيـــات، وإعلانه السابق يمثل تمزق النخبة بين الانتماء للحضارة العربية الإسلامية التي تمثـــل الجزائـــر

---

(1) نفسه، ص37.

(2) عبد الكريم بوالصفصاف، المرجع السابق، ص260.

(3) أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 69.

وجهها الحقيقي والانتماء للحضارة الفرنسية التي ملأت عليهم وجودهم، ومن جهة أخرى يمثل رأي النخبة في الوطنية الجزائرية[1].

وفي سنة 1931 لم يكن المنتخبون مستعدين للإجابة على كل الأسئلة. كانوا يناقشون مسألة الاندماج ولكنهم لم يحسموا الأمر بشكل واضح، مما دل على أنهم سيقومون بتجربة أخرى، وتلك هي تجربة المؤتمر الإسلامي.

*** الحركة الإصلاحية الإسلامية وتأسيس جمعية العلماء :**

ذكرنا في مقدمة هذا الفصل البوادر الأولى لظهور الحركة الإصلاحية بصفة عامة، وبينا أنه كانت هناك جهود فردية من طرف علماء ساهموا في تقديم أفكار أولية تتعلق بالحفاظ على الشخصية العربية الإسلامية للجزائريين كانوا يشتغلون بالتعليم ويقومون ببعض النشاطات المحدودة بموازاة ما كان يطرحه دعاة المساواة والإندماج، ومن تلك الشخصيات نذكر الشيخ عبد الحليم بن سمايا وبن الموهوب بالخصوص.

ويبين الشيخ البشير الإبراهيمي أن نشوء الحركة الإصلاحية في الجزائر يعود إلى عوامل منها تأثير الشيخ محمد عبده في الأوساط العلمية، وما كانت تنقله جريدة المنار في ذلك العهد من أفكار إصلاحية، أما العامل الثاني فيعود إلى الثورة التعليمية التي قام بها الشيخ عبد الحميد بن باديس والتربية الصحيحة التي كان يأخذ بها تلامذته بقسنطينة، والإعداد البعيد المدى الذي كان يغذي به أرواحهم، فتلك الكتائب الأولى لابن باديس هي الطلائع الأولى للعهد الجديد الزاهر الذي زحفت منه تلاميذ إلى جامع الزيتونة لتكمل معلوماتها ولتبني على تلك الفكرة الحية بناء علميا محكما.

ويضيف الشيخ البشير الإبراهيمي أن التطور الفكري الفجائي الذي خرج به الجمهور من ثمرات الحرب العظمى كانت له آثاره على إبطال أوهام كثيرة كانت في وسط العامة بثها زعماء التخريف وأساطين التدجيل وحملة النياشين الذين فضحتهم الحرب

---

[1] نفسه، ص 70.

بآثارها وأطوارها إضافة إلى عودة أبناء الجزائر البررة المخلصين من الحجاز مهد الإسلام الأول ومنبت الدعوة إلى الحق ومبعث الإصلاح الإنساني العام[1].

وكانت الوطنية والنهضة متلازمتين وبرزت غداة الحرب العالمية الأولى بعض الأسماء لرواد النهضة في التعليم والصحافة، فأنشأ بن باديس سنة 1925 جريدة "المنتقد" التي عطلت بعد عددها الثامن عشر فعوضها بجريدة (الشهاب). ونادى "الطيب العقبي" من منطقة سيدي عقبة بالإصلاح في جرائد "الحق" سنة 1925، و"صوت الصحراء" سنة 1926، و"الإصلاح" (1926-1929)، ولقد التفت حول "الشهاب" الفرقة الإصلاحية الأكثر نشاطا، فكان "البشير الإبراهيمي ومبارك الميلي ومحمد العيد والأمين العمودي والزاهري والعربي التبسي وتوفيق المدني" من أعضائها الرئيسيين.

ولقد أعطى هؤلاء الرجال بين 1925 و 1930 دفعا كبيرا للنهضة، ووضعوا بصملهم كل واحد في المدينة التي استقر بها على هذه الدفعات الثقافية والدينية، فنادى "ابن باديس" إلى التجديد الاجتماعي والثقافي المشبع بالمبادئ الإسلامية. وكان "الإبراهيمي" بسطيف يلح على الإكثار من بناء وإعمار المساجد الحرة، وببسكرة ثم بعد ذلك بالجزائر العاصمة صار" العقبي " يدافع عن مبادئ السلف الصالح والإقتداء بالأجيال المؤمنة الأولى.. وأكد رجال أمثال "مبارك الميلي وتوفيق المدني"، بدور التاريخ في الصحوة الوطنية"[2]. فأثمرت تلك الجهود والنشاطات عن توحيد جهود العلماء في أهم حدث عرفته الحركة الإصلاحية في حياتها، والحركة الوطنية في بداية الثلاثينيات.

ويؤكد المؤرخ الجزائري " أبو القاسم سعد الله " أن حركة الإصلاح لم تبدأ بجمعية العلماء، وإنما تعود بذور الإصلاح وإرهاصاته الأولى إلى العقد الأول من هذا القرن، ثم تبلورت ونضجت على يد "ابن باديس" وتلامذته وأنصاره خلال العشرينات. فخلال ذلك العقد نشأت الصحافة الإصلاحية وتأسست النوادي ونبتت المدارس الحرة وبرزت مساجد الوعظ والإرشاد في كثير من المدن الجزائرية وقراها المتناثرة. وكان "ابن باديس"

---

[1] سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين المنعقد بمركزها العام، دار الكتب، الجزائر، ص ص 48،49.

[2] أبو القاسم سعد الله، نفس المرجع، ص25.

هو العصب المحرك لهذه الحركة بشخصه المتميز والاستثنائي المتمحص لهذه المهمة الجسيمة وبقلمه ولسانه، كاتبا وخطيبا ومدرسا وداعية وإماما وصحفيا كاتبا، ثم بتلاميذه وأتباعه وأنصاره الكثر"[1].

*** تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين:**

تأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في 5 ماي 1931، وضمت اثنين وسبعين عالما جزائريا. وقد تألف المجلس الإداري من ثلاثة عشر عضوا على رأسهم "الشيخ عبد الحميد بن باديس"، وقد انتخب غيابيا، واعترفت الإدارة الفرنسية بالجمعية بعد خمسة عشر يوما من تقديم قانونها الأساسي. واعتمدتها على أساس أنها جمعية دينية وتربوية.

وما ميز تشكيلة الجمعية في بداية تأسيسها هو انخراط فئات ذات اتجاهات دينية أخرى من غير المصلحين من رجال الدين الجزائريين من رسميين وطرقيين. وكما يقول سعد الله: "وكما يبدو دخول رجال الدين من القطاعات الأخرى كان مجرد تكتيك، ويظهر ذلك من أن المناصب الهامة قد تولاها المصلحون.

وإذا كانت هذه المرونة في جمع الصفوف قد جعلت الإدارة الفرنسية تسارع في الاعتراف بالجمعية وتوافق على قانونيا الأساسي بعد خمسة عشر يوم فقط من تقديمه فإن ذاك اعتبر في نظر الأستاذ سعد الله مجرد شهر عسل بالنسبة لرجال الدين عامة وهو الشهر الذي استمر عاما فقط لأن الأهداف لم تكن واحدة[2].

ورغم تدعيم هذه الفكرة من طرف الأستاذ بوالصفصاف فإنه يرى أيضا أن الهدف من دخول رجال الدين من القطاعات الأخرى غير الإسلامية هو التخفيف من تشاؤم شيوخ الطرق وأرباب الزوايا وتسخير هذه المؤسسة لخدمة أهدافهم الخاصة وفي الحقيقة كانوا عاجزين عن مواصلة السير لأنهم ما زالوا يتتلمذون على رجال الإصلاح، ولما تأكدوا أن هذه الجمعية لا تخدم أغراضهم ولا الأهداف الاستعمارية كان انسحابهم في يوم 24 ماي 1932[3].

---

[1] نفسه، ص82.

[2] نفسه، ص81.

[3] عبد الكريم بوالصفصاف، المرجع السابق، ص 99.

لكنه، إثر قيام العلماء بنشاطهم الديني والتعليمي، انزعجت الإدارة الفرنسية لما يجده هذا النشاط من صدى بين الناس، فعزمت على وقفه في الحين. وقد أوصت الموالين لها من الجزائريين سواء كانوا من الطرقية أو من رجال المجالس المحلية، بأن يطالبوا بوضع حد لنشاط العلماء... وحاولت الإدارة الاستيلاء على جمعية العلماء بواسطة أتباعها من الجزائريين في الاجتماع الثاني للجمعية. وعندما فشلوا في ذلك أسسوا جمعية معارضة لها سموها "جمعية علماء السنة" سنة 1932، و لم تكد تدخل سنة 1933 حتى بادرت الإدارة الأهلية بإصدار منشورين ضد نشاط جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ففي السادس عشر والثامن عشر فبراير من السنة المذكورة وقع السيد"ميشال" المنشورين المذكورين، والسيد "ميشال" كان يشغل منصب مدير الشؤون الأهلية والكاتب العام لولاية الجزائر العاصمة، والمنشوران عبارة عن تعليمات إدارية موجهة إلى رجال الأمن والإدارة الفرنسية في شتى النواحي لمراقبة العلماء والتضييق عليهم ومنعهم من أداء مهمتهم الدينية وتعليم اللغة العربية، بدعوى أنهم يبثون المبادئ الوهابية والمذهب الشيوعي، وأنهم يقومون بأعمال مضادة للوجود الفرنسي في قفاز الدول الأجنبية[1].

وفي الحقيقة أن هذه التهم باطلة من الأساس، فجمعية العلماء حصيلة جهود علماء جزائريين تأثروا بحركة الإصلاح في الوطن العربي الإسلامي في بعض الجوانب أما برنامجهم وأعمالهم فكانت من الواقع الجزائري. وإلصاق تهمة الوهابية مجرد تهمة مجانية والغرابة أكثر في إلصاقهم نشر المبادئ الشيوعية.

ومما ورد في كلام المكلف بالشؤون الأهلية "ميشال" : "أن هذا الوضع يقتضي منا اليقظة التامة، لأنه لا يمكننا التسامح مع هذا النشاط المعادي الذي يحمل في ظاهره الطابع الثقافي بينما يخفي وجهه السياسي". لذلك دعا كل من يعنيهم الأمر إلى ملازمة اليقظة والانتباه ومراقبة جميع الاجتماعات والمحاضرات التي تنظمها جمعية العلماء تحت زعامة "ابن باديس والعقبي" والعمل على إبعاد المدارس القرآنية عن نشاط هذه الجمعية[2].

---

[1] أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص ص20،21.

[2] نفسه، ص21.

ورغم سياسة القمع والترهيب والتضييق عليهم فقد استطاع العلمـــاء بـــين 1930-1945 فتح ما يقرب من سبعين مدرسة بمعـــدل قسمين في كل مدرسة منها، وتتســـع في مجموعها لثلاثين ألف تلميذ. مما جعل الإدارة تتخوف أمام منافسة هذه المدارس للمـــدارس الفرنسية، لأن الثقافة العربية كانت تعتبر معادية للثقافة الفرنسية، وكان يخشى تأثير اللغـــة العربية، في كتاباتها وفي أشعارها، خاصة على الشبيبة المسلمة. كما كان يخشى من الصحوة الوطنية، لذلك وضعت الإدارة العراقيل لمختلف المدارس التابعة للعلماء وكان لزامـــا علـــى هؤلاء أن يدافعوا على أنفسهم وأن يدخلوا في نزاع مع ممثلـــي الإدارة، كمـــا أن الوضـــع الاجتماعي قد حملهم على مكافحة ممارسات خرافية كثيرة، وأن يحاربوا المرابطـــين الذيـــن أصبح بعضهم من عملاء الإدارة الفرنسية، كما أنهم تنافسوا مع عدد كبير مـــن ممثلـــي الديانة الإسلامية الرسميين من مفتين وأئمة موظفين لدى الإدارة، الأمر الذي أفقدهم كثـــيرا من مكانتهم. فاتحد "المرابطون" والأئمة والمشرفون الرسميون على الشؤون الدينية في الجزائـــر ضد العلماء المسلمين واستنجدوا في ذلك بـــالإدارة الاســـتعمارية الـــتي اســـتخدمتهم في مكافحتها للعلماء[1].

لكن إدانتهم القاطعة للتجنس هي التي جرت بصفة خاصة عداء الإدارة للعلماء مـــن ذلك ما ذكره المؤرخ "توفيق المدني"، بأن التجنس يعني التخلي عن الجنسية واللغـــة ونبـــذ التاريخ والتقاليد وتبني جنسية العنصر المهين. لقد أدان "ابن باديس" من كـــانوا يـــتركون شريعة الإسلام ونعتهم بالمرتدين، وكان ذلك حدثا سياسيا هاما، كان العلمـــاء يتصفـــون بعدم التخلي خاصة عن الخاصيات الجوهرية للشخصية الجزائرية[2].

ومما لا شك فيه أن هذه المواجهة العنيفة يمكن اعتبارها من المحـــن الكـــبرى الـــتي أصابت الجمعية في طورها الأول في هذه الهجمة الشرسة من الإدارة الإستعمارية وأعوانهـــا، والتي طالت بالخصوص منابرها الإعلامية الناشئة مثل جريدة "السنة" و"الصراط".

---

[1] الجيلالي صاري، محفوظ قداش: المرجع السابق، ص26.

[2] نفسه، ص ص29،27.

وتأتي حوادث قسنطينة سنة 1934 لتزيد في محنة جمعية العلماء في مواجهتها للسلطات الإدارية الفرنسية، إذ وضعتها تفاعلات الحوادث الدامية بين المسلمين واليهود في وضعية الضرورة لاتخاذ الموقف المطلوب. وهكذا قام بن باديس ومبارك الميلي بمقابلة السلطات المحلية، والمشاركة إلى جانب بعض أعيان المدينة الدعوة إلى الهدوء واستتباب الأمن[1].

وستواصل الجمعية نشاطها متكيفة مع الأوضاع الجديدة وذلك بإحساسها إلى الحصول على إجماع بشأن مطالبها في المحافظة على الشخصية العربية الإسلامية في الجزائر، ولذلك دعت إلى المؤتمر الإسلامي الجزائري.

*** المؤتمر الإسلامي (سنة 1936) :**

كان أول من فكر في عقده ودعا إليه في الجزائر هو الشيخ"عبد الحميد بن باديس"، رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

ويقول عنه " أبو القاسم سعد الله": "يعتبر المؤتمر الإسلامي الجزائري الذي انعقد بالعاصمة في السابع من يونيو سنة 1936 أول تجمع من نوعه في الجزائر، فلم تعرف الجزائر طيلة أكثر من قرن تجمعا تشترك فيه جميع الاتجاهات وتمثل فيه مختلف الطبقات وتبرز خلاله وحدة الصف والكلمة على مطالب معينة".

ويمضي في بيان الأسباب التي أدت إليه، فيقول: "وقد كانت العوامل التي أدت إلى انعقاده متعددة، فالجزائر منذ فترة النهضة وهي تشرئب إلى حركة جماهيرية، فكانت حركة رد الفعل على التجنيد الإجباري (1906-1914)، ولكنها لم تبلغ مرحلة النضج المتمثل في التنظيم وتحديد الرؤية وتنسيق الجهود، ثم كانت حركة الأمير"خالد"، التي تولدت عن وضع جديد سمح به قانون 1919، ولكن السلطات الاستعمارية سرعان ما قضت عليها، بالإضافة إلى أنها كانت حركة محدودة في الزمان والمكان ومرتبطة بشخص الأمير "خالد". وكانت ردود الفعل على الاحتفال المئوي على احتلال الجزائر سنة 1930، متنوعة ولكنها

---

[1] محمد خير الدين (مذكرات)، ج1، مطبعة دحلب، الجزائر، 1985، ص255.

لم تؤد إلى تجمع شعبي واسع النطاق، وظلت مقصورة على مقالات الصحف وأحاديث المجالس الخاصة، ولعل أول تجمع بالصفة التي نقصدها كان تأسيس جمعية العلماء سنة 1931، فقد كان ذلك مناسبة اجتمع فيها عدد كبير من الأشخاص من مختلف التيارات الدينية، ولكن تأسيس الجمعية كان حدثا دينيا، ثقافيا لا سياسيا، وكان بالإضافة إلى ذلك محدود الهدف كما كان لا يمثل جميع التيارات الاجتماعية والسياسية في البلاد. أما المؤتمر الإسلامي فقد كان يختلف عن جميع تلك المحاولات"[1].

لقد روجت الصحافة مقترح "ابن باديس" وأصبحت كلمتا الاتحاد والتنظيم من شعارات الدعاية الإسلامية ،وتأسست لجنة في شهر مايو 1936 بقسنطينة تكونت من الشيخ "عبد الحميد بن باديس" ومدير جريدة الدفاع "الأمين العمودي"، وكلف الدكتور" ابن جلول" من فدرالية المنتخبين بالدعاية والإعداد للمؤتمر. كان لهذه المبادرة آثار في الجزائر العاصمة ووهران وفي العديد من المدن الصغيرة. كان يجب جمع كل التيارات وضبط الميثاق السياسي لمسلمي الجزائر، فتكونت لجان محلية عديدة واجتمع المؤتمر يوم 7 جوان 1936 في قاعة سينما " الماجيستيك" (الأطلس اليوم) ، فوفد المنتخبون والأعيان، وضم المؤتمر السياسيين البارزين في ميدان السياسة الجزائرية وممثلي العلماء وفدرالية المنتخبين أمثال بن باديس والإبراهيمي، والعقبي، الأمين العمودي، وممثلي اتحادية المنتخبين أمثال الدكتور بن جلول، فرحات عباس، الدكتور سعدان، بوكردنة وممثلي الحزبين الاشتراكي والشيوعي أمثال بن الحاج وبوشامة وبوقرط وشخصيات عديدة من المستقلين"[2].

و لم يكن" نجم إفريقيا" ممثلا رسميا، لأن سياسته تعتبر متطرفة من شأنها أن تعرض حوار الجزائريين مع حكومة الجبهة الشعبية للخطر. وعرض كل خطيب برنامج حزبه أو منظمته وتم الاتفاق حول ضرورة ضم الجزائر لفرنسا، وجعل حد لأنواع التعسف وفتح باب الإصلاحات التي حارب من أجلها الشباب الجزائريون منذ بداية القرن العشرين[3].

وقد صاغ المؤتمر الإسلامي الجزائري عددا من المطالب رفعها وفد عن المؤتمر إلى

---

(1) أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص147.

(2) الجيلالي صاري، محفوظ قداش: المرجع السابق، ص: 30،31.

(3) نفسه، ص31.

حكومة الجبهة الشعبية بباريس، ومن بين ما جاء في هذه المطالب ما يلي : "إلغاء سائر القوانين الاستثنائية، التي لا تنطبق إلا على المسلمين. وإلحاق الجزائر بفرنسا رأسا، والمحافظة على الشخصية الجزائرية وإصلاح المحاكم الشرعية، وفصل الدين عن الدولة بصفة تامة والحرية التامة في تعلم اللغة العربية،كما طالب المؤتمرون بعدد من الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية، منها على الخصوص الإقلاع عن انتزاع ملكية الأرض وإلغاء قانون الغاب".

ولعل من أهم النتائج التي تمخض عنها انعقاد المؤتمر هو إحساس الشعب الجزائري بوحدته، وهو الأمر الذي كان يفتقده في معظم انتفاضاته ضد فرنسا، وبالإضافة إلى ذلك فإن هذا المؤتمر هيأ لجمعية العلماء أن يكون لها دور بارز في المجال السياسي[1].

حيث مهد بشكل مناسب للحركة الإصلاحية التي قادها بن باديس ورفاقه فيما بعد، تأسيسا على بعض المطالب التي انطوى عليها مشروع المؤتمر الإسلامي والتي مثلت ما يشبه الإجماع لدى الجزائريين بمختلف فئاتهم واتجاهاتهم. وكان من ذلك أن عمّق الإصلاحيون الاهتمام بالجوانب الثقافية والتربوية في عملهم.

وقد أرسل المؤتمر وفدا عنه إلى باريس تحت رئاسة الدكتور محمد الصالح بن جلول وبمعية الشيخ بن باديس وبعض قادة الجمعية وزعماء النخبة، وقد استقبل الوفد من طرف المجموعات البرلمانية المختلفة، ومن طرف رئيس الحكومة، و لم يحصل مندوبو المؤتمر إلا على وعود لم تلتزم الحكومة الفرنسية بشيء منها.

عقد رجال السياسة بالجزائر مؤتمرا ثانيا في شهر جويلية 1937، حضره المنتخبون الشيوعيون والعلماء، و لم يكن لهذا المؤتمر صدى المؤتمر الأول الواسع، فترددوا فيما يجب القيام به، إما أن يجعلوا منه تجمعا كبيرا للجماهير الجزائرية ومنتخبيها ونخبتها، أو تحويله إلى حزب سياسي، وقاموا بحوصلة سلبية للسياسة الاستعمارية التي تقوم بها الجبهة الشعبية، وقرروا أن يبقى المؤتمر تجمعا وفيا للجبهة الشعبية عن الأحزاب السياسية، وأن تقوم دعاية

---

[1] مازن صلاح حامد مطبقاني: "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية، دار القلم"، سوريا، 1985، ص176

كبرى لصالح مشروع "بلوم فيولت"[*]. فأسس "الأمين العمودي" تحت إشراف الشيخ "ابن باديس" "شبيبة المؤتمر الإسلامي الجزائري"، التي سنت برنامج المؤتمر الإسلامي[1].

ومن أهم ما أثير بشأن المؤتمر الإسلامي هو مشاركة العلماء الذي أثار تعاليق كثيرة، حيث رأى فيه البعض أن العلماء قد تحالفوا مع النخبة والمرابطين على الرغم مما بينهم من خلاف حول برنامج فيوليت، ويرى آخرون أن العلماء تورطوا في مؤتمر سياسي نظرا لحرصهم على قضية التعريب والدين الإسلامي، أما أنصار العلماء فقد برروا ذلك بأن المشاركة كانت فردية وليست باسم جمعية العلماء. ويمكن القول أن مشاركة العلماء قد عبرت عن نضج سياسي لدى قادتها وبالخصوص بن باديس والطيب العقبي، حيث وجدوا أن الظروف مناسبة لتحقيق الإجماع حول مطالبهم في فصل الدين عن الدولة، والحفاظ على اللغة العربية من طرف خصومهم الرئيسيين دعاة الإدماج.

ومن هنا فقد كانت مساهمتهم في أشغال المؤتمر ثم في الوفد مشاركة فعالة وحاسمة في جميع مراحلها، وكما يرى الأستاذ عبد الكريم بوالصفصاف فإن دور العلماء وموقفهم من المؤتمر الإسلامي كان من تدبيرهم وتخطيطهم ومطالبه كانت من اقتراحاتهم وتوجيهاتهم ورئيسه كان من تعيينهم وتأييدهم. أما مشروع فيوليت... فقد كان بمثابة ارضية يتحركون من خلالها للمطالبة بحقوق الشعب المهدورة لأن مبدأه كان يمثل فاتحة عهد جديد في إطار المطالبة بالإصلاحات السياسية والاقتصادية مع إبقاء الجزائريين محافظين على حالتهم الشخصية كمسلمين... ويخلص للقول في أن الذين يتهمون جمعية العلماء بفكرة الإدماج وعدم الثورية وبالنعومة اتجاه الفرنسيين فإما كانوا يتكلمون بروح التعصب إلى جهة معينة أو أنهم غير قادرين على إدراك التحليل التاريخي للحركة الوطنية الجزائرية في وقت بلغ فيها الاستعمار ذروته في البلاد...[2]

ويمكن تدعيم تحليل الأستاذ عبد الكريم بأن تجربة مشاركة العلماء في المؤتمر الإسلامي كانت قد فتحت باب الحوار بين التشكيلات السياسية حول المسألة الجزائرية

---

[*] ظهر هذا المشروع بالجريدة الرسمية يوم 30 ديسمبر 1936، ونص على إمكانية أن يصبح الجزائري منتخبا فرنسيا بدون أن يفقد طبيعته الإسلامية.

[1] الجيلالي صاري ومحفوظ قداش: المرجع السابق، ص311.

[2] عبد الكريم بوالصفصاف، المرجع السابق، ص 357 وما بعدها.

بعمق ودون إقصاء مبيت (حالة نجم شمال إفريقيا) الذي رغم عدم مشاركته فإنه استفاد من انعقاد المؤتمر واقتحامه الساحة السياسية الجزائرية بعد أن كان ينشط من فرنسا. ومن جهة أخرى فإن مشاركة الجمعية في المؤتمر الإسلامي قد أرست تقليدا جديدا في الحوار كما أثبتته وقائع ما بعد الحرب العالمية الثانية.

* المشاريع الإصلاحية الفرنسية :

و لم تكد تدخل سنة 1931، حتى بدأ ميزان القوى يتغير لصالح الحركة الوطنية رغم الضغوط العديدة، فمن جهة واجهت فرنسا أزمة اقتصادية حادة (كبقية أوربا الغربية وأمريكا)، كشفت كثيرا عن نواحي ضعفها في المستعمرات ودخلت في متاهات المشاكل الداخلية والخارجية. ومن جهة أخرى استمر نجم شمال إفريقيا في نشاطه، رغم حله وأخذ أسماء شرعية وغير شرعية حتى أصبح منذ 1937 حزب الشعب الجزائري، وأصبح صوته قويا في الجزائر وفي فرنسا ولاسيما منذ 1936. كذلك ولدت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1931، وقد أحدثت تحولات عميقة في الذهنية الوطنية وهزة كبيرة في المجتمع الجزائري. بالإضافة إلى جماعة النخبة من النواب ونحوهم الذين أخذوا يستقلون تدريجيا بآرائهم ويلحون بشدة أحيانا في مطالبهم القائمة على المساواة في الحقوق والواجبات مع الفرنسيين، وقد كونوا لهم هيئات وجماعات وصحافة ونوادي للضغط على السلطات الفرنسية. وهكذا تغير وجه الجزائر السياسي في (الثلاثينات) رغم أن النموذج الاستعماري القديم ظل في ظاهره على ما كان عليه[1]. حيث بدأت الأحداث تتفاعل بظهور تنظيمات وهيئات جديدة وأشخاص فاعلين في الحياة السياسية الوطنية. كانت أول بواردها ردود فعل الجزائريين عن احتفال الفرنسيين بالذكرى المئوية لاحتلال الجزائر، وذلك بتأسيسهم لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي أدت إلى تفعيل الحياة السياسية من خلال الديناميكية التي أفضتها في المجتمع الجزائري وفي ردود أفعال السياسة القمعية الفرنسية وأعوانها من طرقيين ودعاة الإدماج. هؤلاء الذين غيروا جزئيا نظرتهم لموضوع التجنيس

---

[1] أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص15.

بالخصوص، كما رأينا في نزوهم عند رغبة العلماء في المؤتمر الإسلامي. أو بما أحدثته من مشاريع إصلاحية من طرف السلطات الفرنسية.

ففي سنة 1931 عقب الاحتفالات الفرنسية بمرور مائة عام على احتلال الجزائر ترأس "موريس فيوليت"[*] لجنة من مجلس الشيوخ الفرنسي عهد إليها بدراسة الأوضاع الجزائرية، وتقديم توصيات عن الإصلاحات التي يجب إدخالها. وفعلا قدمت اللجنة مشروع إصلاحات أصبح منذ ئذ يعرف "بمشروع فيوليت" وتقوم حجة "فيوليت" في هذه الوثيقة على أن فرنسا سترتكب خطأ كبيرا إذا لم تتحرك لإجراء تغييرات على الوضع في الجزائر، وقد انتقد السياسة الفرنسية في الجزائر، و اتهمها بالظلم وقال بأنها إذا استمرت على هذه الحال بدون تغيير فستشكل "خطرا قاضيا على مستقبل إمبراطوريتنا الإفريقية، ورغم ما استعمله " فيوليت " من لهجة للإقناع وما يحمله من تجارب حول الموضوع، فإن البرلمان رفض مشروعه... وبالإضافة إلى المشروع نشر " فيوليت " كتابا بعنوان مثيرهو" (هل ستعيش الجزائر ؟). وقد ضمنه أهم نقط المشروع وقد أثار الكتاب أيضا تعاليق ضافية، وأصبح مصدر اهتمام لعدد من النخبة الجزائرية. ولكنه هيج المعمرين ضد صاحبه حتى وصفه أحدهم بأن عنوانه "مثير ومؤسف"[1].

غير أن مشروع " فيوليت "، لم يكن المشروع الفرنسي الوحيد الذي طرح كل مشاكل الجزائريين خلال الثلاثينات. بل هناك على الأقل ثلاثة مشاريع أخرى، منها مشروع "قيرنوت" الذي نوقش أيضا في مجلس الشيوخ، ومع ذلك فإن مشروع " فيوليت" اكتسب شهرة أكثر من غيره. وهناك برنامج أو مشروع " كيطولي" نائب ولاية قسنطينة في برلمان فرنسا، غير أنه "لم يلق في الأوساط الجزائرية أدنى اعتبار". بالإضافة إلى مشروع "دوروكس" نائب ولاية العاصمة (الجزائر)، لكن كان حظه قريبا من حظ صاحبه، ولكن كل هذه المشاريع لم ينل أي منها شهرة ما قدمه مشروع " موريس فيوليت " على الأقل بين الجزائريين لاقتراحه دمج النخبة الجزائرية في المجتمع الفرنسي[2]، مع بقاء

---

[*] كان حاكما عاما للجزائر (1925-1927).

[1] أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص19.

[2] نفسه، ص20.

أصحابها على الشريعة الإسلامية و من ناحية أخرى نلاحظ أن كل هذه المشاريع قد فشلت في النهاية لأنها لم تجد حكومة قوية تستطيع أن تفرض واحدا منها على المعمرين في الجزائر.

ولعل معارضة التيارات الوطنية الأخر ى كنجم شمال إفريقيا، وحزب الشعب الجزائري وتحفظات جمعية العلماء، قد أدت إلى سحب كل المشاريع من الميدان عشية الحرب الثانية[1].

وبالتوازي مع مشاريع الإصلاح التي بقيت بدون تنفيذ، فإن الفرنسيين قد تبنوا واعتمدوا قوانين لتعزيز القمع وترسيخ الاضطهاد المسلط على الجزائريين كما رأينا آنفا.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[1] نفسه، ص19،20.

المبحث الثاني : الحالة الاقتصادية

أحدث الاستعمار الفرنسي بالاقتصاد الجزائري هزة عنيفة قوضت أركانه العميقة، وجردت الفلاحين من أرضهم ووسائل عيشهم، كما جاء بنمط استغلالي رأسمالي مفرط في الأنانية وغير آبه بالحقائق والطموحات الذاتية للواقع الجزائري.

الفلاحة :

إن تهدم البنيات الاجتماعية، الاقتصادية الذي تسبب فيه دخول الجيش الاستعماري وتوغله داخل البلاد أثناء عقود طويلة والذي انجر عنه ردود فعل عديدة، أعطى للأقلية الأوروبية وللسوق الفرنسية موارد مختلفة ويدا عاملة كثيرة رخيصة الثمن، وإن مثل هذا المسار كان قبل كل شيء نتيجة لانتزاع أراضي الجماهير الريفية بصفة جماعية.

وقد اكتسى ذلك الظلم المسلط على الشعب أشكالا مختلفة وأخذ أبعادا خطيرة لم يكن دوما سهلا ولا تأتي عن استسلام، وإنما كان بموجب إجراءات تعسفية وبإصدار مجموعات من القوانين[1] وقتئذ لانتزاع مصادر الثروة، والضغط على أبناء الشعب.

لقد فرض قانون نابليون مبدأين غريبين تماما عن الجزائريين وهما: حرية امتلاك الأرض، وحرية المعاملات التجارية، بحيث نظم مبدأ القانون الأمر بكيفية فعالة، لكنها كانت معقدة بشكل غريب. فحرية احتلال الأرض (للمعمرين طبعا) وضعت في الممارسة بصفة فوضوية منذ السيطرة على العاصمة، وقد سويت بواسطة سلسلة من القوانين العقارية التي كانت في كل مرة تخفض أكثر هامش من أملاك الجزائريين[2]. ومن هذه القوانين:

– أمر يوم الفاتح من أكتوبر 1844: الذي سوى كل عمليات البيع السابقة، ووضع مبدأ إعادة شراء المبيعات، ونظم أشكال الأملاك من أجل "المصلحة العامة"، وسن ضريبة خاصة

---

[1] الجيلالي صاري، محفوظ قداش: المرجع السابق، ص124.

[2] A. Rey-Goldzeiguer : op. cit. pp23/24.

للأرض البور التي يمكن استغلالها. في حين أن محاولة "بيجو" الرامية إلى وضع حد للشك وعدم استقرار الملكية قد أعطى نتائج مخيبة وفتح الباب لمحاولة أخرى.

- أمر يوم السادس والعشرين جويلية 1846: الذي عدل وكمل القوانين السابقة الخاصة بمساحات المستعمرين، حيث شرعت الإدارة الاستعمارية في تحديد الأراضي وفرضت عقوبة سحب وثائق التمليك. لقد كانت هذه العملية بمثابة توسع حقيقي سمح لمصلحة الأملاك العقارية للدولة الاستعمارية بزيادة حجم أراضيها التي ارتفع بمائتي ألف هكتار، منها مائة وثمانية وستون ألفا بضواحي الجزائر العاصمة فقط.

- قانون يوم السادس عشر جوان 1851: الذي جاء كرد فعل على تلك المراسيم، و قد نص على أن " الملكية غير قابلة للانتهاك ولا للتمييز بين الملاك الأهالي والملاك الفرنسيين"، المادة العاشرة أنه إذا كان القانون في الأراضي المدنية يمنح الحق المطلق للتمتع والتصرف، فإنه في الأراضي العسكرية " فإن أي حق للتمليك والتمتع الخاص بأراضي قبيلة، لا يمكن أن يكون محل تصرف لصالح الأشخاص الأجانب عن القبيلة"[1].

لقد واكبت تلك المصادرات الأولى عمليات عسكرية انطلقت منذ بداية الاحتلال وتواصلت،دون هوادة،مع توغل قوات الاحتلال في البلاد،و لم يكن الأمر يتعلق بالأراضي التابعة للدولة المغلوبة، أي بالبايلك فحسب، بل بأراض عمومية خاصة (الأوقاف)، وفي كثير من الأحيان بأملاك خاصة. ويبدو أن هذه المشكلة ما تزال قائمة إلى اليوم.

أ - مصادرة الأوقاف.

ب- مصادرة أملاك البايلك.

ج- إبعاد الفلاحين عن أراضي " العزل".

د- انتزاع الأراضي المملوكة للقبائل.

هـ- الحجز.

و- حجز الأراضي سنة 1871، والذي أصاب المجموعات الثائرة بوسط وشرق البلاد [2].

---

(1) A. Rey-Goldzeiguer : op. cit. p 24

(2) الجيلاني صاري، محفوظ قداش: المرجع السابق، ص126.

من المعروف أن تدهور أحوال الشعب الجزائري الاقتصادي جاء نتيجة الاستعمار وبما أن الاحتلال الفرنسي في الجزائر كان استيطانيا؛ فقد حرص على ضرورة الاستيلاء على الأراضي، ففي أعقاب الانتفاضات المسلحة مثل انتفاضة المقراني والحداد (1871) وغيرهما، كان الجيش الفرنسي يستولي على الأموال والأراضي الحكومية بموجب قانون 1851، كما استولت قبل ذلك على الأوقاف الإسلامية وذلك بعدة قوانين كان أهمها قرار وزير الحربية في الثالث والعشرين من شهر مارس 1843، الذي نص على " أن مصاريف ومداخيل المؤسسات الدينية تضم إلى ميزانية الاستعمار"، وزيادة على هذا فقد فرضت قوانين جائرة منعت بموجبها الملكية الجماعية التي كانت سائدة حينذاك، وذلك بقانون تحديد الأراضي المشاعة في يوم السادس والعشرين من شهر جويلية 1873، كما أن من الأسباب التي أدت إلى انخفاض الملكية الزراعية فرض الضرائب الفاحشة التي أجبرت الفلاحين الجزائريين إلى بيع أراضيهم لمواجهة متطلبات الحياة الضرورية؛ فقد كان الجزائريون ملزمين بأنواع مختلفة من الضرائب؛ إذ بالإضافة للضريبة المحددة حسب النظام الفرنسي، كان عليهم أن يدفعوا زكاة العشر التي كانت مفروضة أثناء الحكم العثماني. و لم يقتصر الأمر على هذين النوعين، فهناك الحراسة الليلية ودفع ضريبة نقدية عليها، وكذلك السخرة لحراسة الغابات من الحرائق، ثم الضرائب التي يدفعها الرعاة إذا مروا عبر الغابات، كما فرضت على الجزائريين أيضا مبالغ من المال وبعض المواد الغذائية للقياد وأعوانهم[1].

و مما أدى إلى نقص الأراضي لدى الجزائريين وتسهيل استيلاء الفرنسيين عليها، الهجرات الجماعية للجزائريين، وما بقى من أراض في أيدي المسلمين، كانت أقل خصبا من أراضي المستوطنين وقد حرم الفقر والجهل أي استفادة منها. فضلا عن ذلك كله فإن المستوطنين تمتعوا بالقروض الفلاحية التي حرم منها أبناء البلاد، واستمر هذا الوضع بعد الحرب العالمية الأولى، حتى أن إنتاج المسلمين من الحبوب انخفض من إثنين وسبعين بالمائة عام 1900، إلى أربع وأربعين بالمائة عام 1938 من إجمالي الإنتاج الجزائري[2].

---

[1] مازن صلاح حامد مطبقاني: المرجع السابق، ص41،42.

[2] نفسه، ص42.

ويتمثل الهدف الذي حدده الاستعمار من خلال ترسانة القوانين والنصوص والقرارات والمراسيم وغيرها، في تحديد وضعية الأهالي في الاقتصاد الجديد. وليس الغرض منه المحافظة على خلايا الاستهلاك الذاتي، فالاستعمار كان يهدف إلى الاستفادة من عملهم وإمكانياتهم وبدون شك فإن وجود الأهالي كان يعرقل مشاريع إقامة المعمرين والأجانب ولم يكن الطرد مبرمجا؛ ولكن الأمر كان يتعلق بتحويل الجماهير الجزائرية على ضوء الآفاق الاقتصادية الاستعمارية[1].

وهكذا اتخذ الاغتصاب في جميع أرجاء الوطن أبعادا خطيرة؛ فقد أسفر في كل مكان على فقدان أخصب الأراضي لصالح الأقلية الأجنبية،بل لصالح الأقليات الأهلية أيضا أي تلك التي كانت على اتصال وثيق بالإدارة أو لصالح المتغيبين، متسببا بذلك في إبعاد أبناء الشعب من سكان الأرياف، وحصرهم في قطع صغيرة متباعدة، حتى في مثل هذه الظروف فقد اعترضت الذين اغتصبت وسلبت أراضيهم مشاكل أخرى لا تقل حدة، وقد أكد ذلك بالخصوص تطور العلاقات التي فرضتها الإدارة الغابية على السكان الجبليين وكان الأمر كذلك مماثلا في النواحي الأخرى مثل منطقة السهوب خاصة[2].

بعد الإعلان عنها (شراء غابات الفلين) بأنها ملكية الدولة – شأن جميع الموارد الطبيعية الأخرى- بموجب قانون السادس عشر من شهر جوان 1851، فإن الغابات قد جلبت بسرعة عددا كبيرا من المضاربين ولا سيما وأن التطبيقات المتوالية للقانون المشيخي لسنة 1863 وقانون 1887 خاصة ضاعفا الثروات الغابية، وعند كل حريق تتحالف الإدارة وأصحاب الامتيازات الإقطاعية ضد الفلاحين وخاصة عندما تشبه حرائق الأشواك بالعمليات الهدامة؛ وتتبع بالتالي بقمع شديد؛ فتلجأ الإدارة العليا إلى تعميم الغرامات الجماعية وفرضها بصرامة عند كل حادث[3].

و بما أن القانون الغابي الصادر سنة 1851، قد بدا لهم ناقصا جدا بينما كان مطبقا باسم الجمهورية الفرنسية الثالثة وممثلهما بالجزائر، فقد صوتوا بالتوالي على قوانين 1874

---

(1) A. Rey-Goldzeiguer : Ibid , pp25/26

(2) الجيلالي صاري، محفوظ قداش: مرجع سابق، ص143.

(3) نفسه، ص 144.

و1885، وأخيرا على القانون النهائي لسنة 1903، كل ذلك يكمل الترسانة القانونية لسلب الفلاحين أراضيهم ومن ثمة العمل على إفقارهم وإذلالهم أكثر فأكثر، حتى يستحكم المستعمر تماما[1].

والأمر الذي لا يقل خطورة يتعلق بمنع المرعى مدة ست سنوات متوالية في المناطق المحروقة. وهكذا فإن هذا القانون يمس مباشرة الاقتصاد المعاشي الضعيف لسكان الجبال وتطبيقه يتعارض وبقاء السكان داخل وقرب المساحات الغابية[2].

وقد قال "بيرجو" في كتاب وضعه سنة 1846: "يجب على الإنسان أن يكون قويا ليرفض الظلم الذي ليس له مفر من فرضه على العرب، وليخفف من آثار هذا الظلم بسياسة إدارية رشيدة فيها شيء من عاطفة الأبوة".

الصناعة :

كانت الجزائر تتمتع بإمكانيات اقتصادية ضخمة قبل الاحتلال. فقد كانت أرضها خصبة، ولاسيما في الشمال، تدر أنواعا مختلفة من الحبوب والخضر والفواكه، ويوجد فيها كما لاحظ الرحالة والزائرون، مناجم الحديد والرصاص والملح، وغابات كثيرة كانت تفيض عن الحاجات المحلية لبناء السفن والتسخين وبناء المنازل، بالإضافة إلى الموانئ الكثيرة الواسعة التي كانت تستقبل وترسل السلع والبضائع من وإلى أوربا والشرق إلى جانب ذلك كانت هناك طرق القوافل التي تربط الجزائر بالسودان القديم عبر الصحراء، فكانت البضائع الجزائرية تصل باستمرار إلى إفريقية وتعود القوافل محملة بالإنتاج السوداني الذي يستهلك أغلبه محليا ويصدر فائضه إلى الخارج[3].

وقد وضعت فرنسا موارد الجزائر واقتصادياتها تحت سيطرتها ونظمتها تنظيما يكفل لها الاستفادة منها ومن مجهود الجزائريين استفادة تامة. وهذا هو الهدف الأساسي الذي سعت إليه فرنسا والذي جعل من المواطنين أداة استغلال" للمعمرين" الفرنسيين.

---

(1) المرجع السابق، ص146.

(2) نفسه، ص147.

(3) أبو القاسم سعد الله: "محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث"، ص149،150.

وقد وصل استغلال فرنسا للجزائر إلى مداه نتيجة لما بذلته من جهود ووفرته من إمكانات منذ وطئت أقدامها البلاد. وأدى ذلك في النهاية إلى النتائج الآتية:

1- تكوين أقلية من الملاك الفرنسيين " المعمرين".

2- في المقابل تكوين الأغلبية الساحقة من الجزائريين المعدمين.

3- تخفيض الأراضي الزراعية الصالحة للاستثمار في مجال الحبوب.

4- الاستيلاء على جزء كبير من الأراضي الزراعية بطريق المصادرة.

5- استغلال المناجم و الغابات إلى أبعد الحدود.

6- خلق تجارة خارجية بين الجزائر المستعمر وفرنسا الوطن الأم هدفها الأول تصدير المنتجات المحلية التي تحتاج إليها الصناعة في الخارج واستيراد المواد المصنوعة التي تستهلك محليا، بحيث وضعت الحكومة الفرنسية الاقتصاد تحت تصرفها.

وفي الميدان الصناعي رفض الاستعمار الفرنسي "تصنيع" الجزائر بكل قوة حتى تبقى سوقا مفتوحة للصناعات الفرنسية الحديثة دون قيود ولا حدود، و قد أوضح مدير الشؤون الاقتصادية في إدارة الاحتلال بالجزائر سنة 1944، سياسة الاحتلال من وراء محاربة تصنيع الجزائر فقال: "ليس علينا الشروع في تصنيع الجزائر، فإن ذلك من شأنه أن يضعفنا – بصفتها مستعمرة – ويضعنا في موقف عدائي بالنسبة للصناعة الفرنسية"[1].

إن تردي الظروف العامة للمعيشة ناتج عن عدم احترام بعض القواعد التي سمحت بالإبقاء على العديد من التوازنات، سواء على الصعيد المادي، أو الصعيد الاقتصادي، أو الاجتماعي ففي الحالة الأولى وقبل عهد الاستعمار كان توفر الأراضي الصالحة للزراعة يسمح بالتقسيم المتساوي بين الأراضي المزروعة قمحا، و الأراضي البور، وكانت النسبة مرتبطة بحاجات الأسر، بينما كانت تربية المواشي تشكل دائما موردا هاما، كل ذلك كان يساهم حينئذ على الصعيد المادي في تنمية تكون التربة، و بالتالي في إخصاب التربة والإبقاء على مردودها المعتبر عند تساقط الأمطار تساقطا مواتيا مع الظرف الزمني[2].

---

[1] الجيلالي صاري ، محفوظ قداش: المرجع السابق، ص ص: 203،204.

[2] نفسه، ص204.

وبالفعل فإن إقامة وتوسع كل تعمير استيطاني لم يستمر دون التحطيم المعمم للبنيات الموجودة سابقا، أي دون إلغاء الأسر الاقتصادية بصفة عامة ومعمقة أي الأساس الذي يمثل جوهر الاقتصاد المعيشي للسكان الأصليين.

و لم تتطور الصناعة والتجارة كثيرا منذ بداية لاحتلال، إذ اقتصرت الصناعة على الصناعات الخفيفة للاستهلاك المحلي: مثل تصنيع الأغذية وبعض الصناعات الآلية، والكهربائية والمنسوجات والجلود. وقد تركزت الصناعات في المناطق التي كان عدد الأوروبيين فيها يفوق عدد المسلمين، وكانت لهم السيطرة على هذه الصناعات امتلاكا وتشغيلا، وكذلك الأمر بالنسبة للتجارة فقد احتكرها المستوطنون واليهود، فكانت الجزائر تصدر الخمور لتستورد مقابلها من فرنسا ما يحتاجه وما لا يحتاجه القطر الجزائري مما تنتجه معامل فرنسا: وجاءت الحرب العالمية الأولى واستمرت حالة الصناعة الجزائرية التقليدية عاجزة" عن التطور أمام الصناعة الأوروبية الحديثة لسياسة فتح الجزائر أبوابها أمام المنتجات الصناعية الأوروبية المتطورة بدون قيود ولا حدود"[1].

وهكذا ارتبطت عمليات نزع الأراضي الصالحة للزراعة من الجزائريين والاستيلاء على أملاك الأوقاف،فإن المستعمرين قد مضوا في تحطيم البنيات الأساسية للزراعة والاقتصاد الجزائري من خلال السيطرة شبه الكلية على عمليات استغلال الثروات الباطنية لصالح المعمرين ولتعزيز الاقتصاد الفرنسي وتغطية عجزه من الكثير من المواد التجارية، وكذلك تم فتح السوق الجزائرية لتسويق السلع الفرنسية،وبذلك أحيل الجزائريون على الفاقة والفقر، وتم حرمانهم من خيرات الوطن التي نهبها المعمرون بشكل فضيع ووحشي،ودون أي اهتمام حقيقي إلا بما يعود بالفائدة على المستعمر وأعوانه.

---

[1] نفسه، ص205.

المبحث الثالث: الأوضاع الاجتماعية :

شهد المجتمع الجزائري خلال المائة سنة الأولى من الاحتلال الفرنسي انتكاسات لا حصر لها على الصعيد الاجتماعي؛ وذلك بسبب سياسات القتل والإفقار والإخضاع والاستئصال والتشتيت التي مارسها الاستعمار بقوة وجفاء ضد الجزائريين.

وتعترف في هذا المقام "آني غي قولد زيغر" بالقمع الاستعماري، صاحبة مؤلف "المملكة العربية –السياسة الجزائرية لنابليون الثالث قائلة : "إن عالم الأهالي الذي فككه القمع العسكري، والذي انتزعت منه أحسن الأراضي، وكبلته إدارة منتشرة في كل مكان، لم يكن يطمح لأيام سعيدة، أو لاستئناف المقاومة. وعلاوة على ذلك وجد نفسه أيضا في مواجهة ابتلاءات أخرى التي تعرض وجوده ذاته إلى خطر حقيقي و إلى انقراض لاحق للجماهير الأهلية وإزالة المنافسة الجزائرية؛ بسبب الانتصارات التقنية الواضحة على مستوى الحياة والثقافة وحضارة الأوروبيين"[1]. ومثل هذه الخرافات إدانة صارخة لدعاوى نشر الحضارة الأوروبية.

وتقول أيضا: "لقد حدثت مصادفة انتقائية ضربت هذا الشعب المستعمر المثقل بـ (الكوارث الطبيعية). وأيضا بالتطور المتسارع لوضعية استعمارية وصلت إلى حد إحداث قطيعة مع التوازن البيئي لشعب مستعبد، ومع اقتصاد تقليدي ومجتمع معتدى عليه، فإن المجاعة قد أنشأت وحدة عميقة بين الجماهير الجزائرية، وحدت الأغنياء والفقراء والشباب والشيوخ والبربر والعرب، تحت وطأة كارثة الجماعة والأمراض والموت التي أحدثت هجرات عميقة من الشرق إلى الغرب ومن الجنوب إلى الشمال"[2].

إن الخسائر المرتفعة في الأرواح التي لوحظت أثناء العقود الأولى من العهد الاستعماري لم تكن ناتجة عن آثار المقاومة الشديدة التي قامت بها المجموعات المختلفة فقط، بل كان سببها تكرار الأوبئة التي نشرتها الجيوش الفرنسية عبر المناطق العديدة. إن الكارثة الديموغرافية لسنتي (1867–1868)، (بسبب وباء الكوليرا) بأبعادها ومظاهرها المختلفة،

---

(1) A. Rey Goldzeiguer, op. Cit. p

(2) Ibid. p

قد طرحت مشاكل عديدة وخطيرة، تلك المشاكل التي أدت بالملاحظين المعلصرين إلى أن يتساءلوا عن مصير مستقبل شعب برمته،وتفضح المصادر التاريخية الفرنسية الاستعمار الفرنسي من خلال الإحصاءات والتحاليل لتلك الكوارث من تحديدها لعدد الضحايا ووصف حالات معتبرة.

إذ تصبح الإحصاءات أمام تعميم الزيادة في الوفيات مجرد أوصاف عند كتاب كثيرين، لا تكاد تفي حتى بغرض إعطاء لمحة حقيقية عما حدث بالتقريب. وحتى بعد النظر الدقيق في المصادر. لا نستطيع الإحاطة بالوقائع. وهذه شهادة مثيرة موجهة لجمهور بعيد عن الأحداث: "كل ما يكتب عن أنواع الفقر والفاقة اللذين لا يوصفان لدى العرب الفقراء لا يقترب من الحقيقة ... وهل يمكننا أن ننظر بعين الملاحظ المتأثر إلى هؤلاء المعدمين الذين يموتون جوعا بأبوابنا وينازعون الكلاب أقذار الشوارع"[1].

وتقول شهادة أخرى: "...ولقد شهدنا بعض هؤلاء البؤساء وهم هياكل بشرية حقيقية متنقلة، ينتظرون أربعة عشر يوما قبل أن يلفظوا آخر أنفاسهم"[2]. ما أفظعها مشاهد وما أشنعها، وعمموا هذه الصورة على قبائل برمتها وأكثروا من هذه المشاهد حتى تبرز لكم وتحت أعينكم مائة ألف جائع وبهذا ستدركون ما لهذه السنة – 1868– من طابع مأتمي وما ستخلفه في تاريخ تعميرنا.

إن الهجرات الكبيرة للجائعين والمشرفين على الموت، على طول المحاور الكبرى المؤدية إلى المدن الرئيسة الثلاث للبلاد، والساكنين عبر المناطق الواسعة والمناطق السهبية وحتى المناطق الصحراوية، لتعبر وتنبؤ بصفة مؤثرة عن احتضار المجتمع التقليدي ونهايته القريبة، ذلك المجتمع الذي قاسى حتى في أعنف حالاته الفيزيولوجية – الوظائفية مأساة الاستعمار.

فالتحول والأوباء والأمراض قد أصابت وزعزعت قبائل برمتها، فكانت هذه المواكب الطويلة المتكونة من "هياكل بشرية متنقلة" صامتة؛ والتي طردها الجوع من أرضها

---

[1] الجيلالي صاري ومحفوظ قداش: "المقاومة السياسية 1900-1954"، ص 193. نقلا عن L'Illustration، باريس 1868، السداسي الأول، ص 148.

[2] نفسه، ص 164.

وأخرجتها من المدن قوات المجتمع المسيطر"[1].

مما يعني أن المناطق التي تعرضت للمجاعة توسعت بشكل أدى إلى شبه انقراض لسكان تلك المناطق، وإلى حدوث هجرة كبيرة وأمراض الفاقة؛ ثم الأوبئة التي جنت على التطور الديمغرافي، وعلى المجتمع، والاقتصاد الجزائري.

وقد نقلت العمليات الأولى لهجرات الجوع القبائل الأكثر تضررا إلى المراكز الإدارية التي كانت بمثابة مدارات لرمي القاذورات؛ والسجون، حيث أصبح المهاجرون يعيشون في ظروف تأباها الحيوانات، وذلك بسبب الأمراض والأوساخ والجوع الدائم.

وهكذا دفع السكان ضريبة ثقيلة في نهاية الإمبراطورية الثانية؛ وكاد ارتفاع الوفيات يفتك نهائيا بمستقبل السكان في كثير من المناطق،كل ذلك يسمح بذكر الحدود الجوهرية لثورة 1871، التي أسفرت في نفسها عن خسائر كبيرة، وختمت نهائيا عهد الانتفاضات الشعبية، ولكنه ينبغي أن نتساءل أيضا عن نتيجة أخرى، والتي كان لعواقبها أثر دائم على الناجين من الموت والأخطار، ويتعلق الأمر بنهاية المجتمع التقليدي[2].

ويصور مترجم الإدارة العسكرية الفرنسية "غورجو" هذه المأساة بالقول : "إننا لا يمكننا أن نتصور حالة الفقر والحرمان الشنيعين التي يتخبط فيها الجزء الكبير من الأسر في القبائل من أقصى الجزائر إلى أقصاها الآخر"[3].

كذلك تعرضت البلاد إلى مجاعة خطيرة عقب الحرب العالمية الأولى عامي : (1920–1921) وذلك بسبب الجفاف. وقد حاولت الإدارة الفرنسية في الجزائر إخفاء الأمر عن الحكومة في باريس، لولا تسرب المعلومات عن طريق الصحف الفرنسية، وكان ضحية هذه المجاعة بلا شك هو الشعب الجزائري، إذ وصل عدد الضحايا إلى نصف مليون شخص[4].

---

[1] نفسه، س ص198، 199.

[2] الجيلالي صاري، محفوظ قداش: المرجع السابق، ص198، 199.

[3] نفسه، ص نفسها

[4] مازن صلاح حامد مطبقاني: المرجع السابق، ص42.

إن الحرمان والفقر اللذين كان يعانيهما الجزائريون قد أدى بالمنظمات الدولية المختصة إلى التأكيد " بأن مستوى المعيشة في الجزائر بالنسبة للجزائريين يعتبر أحط مستوى في العالم كله"[1].

ومهما قيل عن أسباب التوتر الذي ساد الجزائر خلال الثلاثينيات من القرن العشرين، فإن الجزائر قد عانت كثيرا من سوء الأوضاع الاقتصادية، حتى أن بعض الكتاب كان عندئذ يتحدث عن "شبح المجاعة"، الذي أصبح يهدد السكان. ولقد لخصت الصحيفة البريطانية (التايمز) أساس عدم الاستقرار في المتاعب الاقتصادية، معتمدة على تقارير السلطات الفرنسية التي تشير إلى الانخفاض الحاد في أسعار المواد الفلاحية، وانهيار سوق الحبوب، وسقوط قيمة الأجور، وتعطل المشاريع العامة التي ابتدأت فيها منذ سنة 1921، بالإضافة إلى الزيادة الكبيرة في نسبة البطالة[2].

وتكاد الوثائق المعاصرة تجمع على أن حالة الخماس (العامل الفلاحي بخمس الإنتاج) كانت حالة تعسة، وفي مناطق تربية المواشي عانى الفلاحون من نقص المياه. ومن هنا كثرت الهجرات من الريف إلى المدن من جهة، ومن الجزائر إلى فرنسا من جهة أخرى طلبا للعيش وهروبا من وضع اقتصادي يسود فيه الفقر والاستغلال. ففي سنة 1932، وجه السيد "موريس فيوليت" عضو مجلس الشيوخ الفرنسي، وحاكم الجزائر سابقا، رسالة إلى وزير الداخلية يسأله فيها عما سمعه من أن مستخدمي الضرائب الفرنسيين بالجزائر بلغت بهم القسوة إلى أنهم "يأخذون قهرا من الرجل البرنس الذي يكتسي به"[3].

وتحدثت مجلة الشهاب في عددها بتاريخ السادس ديسمبر 1931، عن هذه الحالة العامة للمواطنين الجزائريين في هذه الأزمة العصيبة أصبحت " أقرب إلى اليأس منها إلى الرجاء"، وأن الكثير من أهل البادية والقرى الصغيرة لم يعودوا يتحصلون على ما يسد الرمق، وصار شبح المجاعة الرهيب يهددهم كل صباح ومساء". وقد طالبت المجلة باستخدام

---

(1) أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ج3، ص40، نقلا عن التايمز (لندن فبراير 1935).

(2) نفسه، ص39.

(3) نفسه، ص نفسها.

العمال الجزائريين في المشاريع المحلية بدل استخدام اليد العاملة الأجنبية من إسبان وطليـــان وغيرهم.

إن الانحطاط المريع المسجل على الصعيد الاجتماعي قد أدى إلى تفجـــير الأســس التقليدية للمجتمع الجزائري، ومنها بالخصوص؛ أسس مصادر الرزق المتمثلـــة أساســا في الفلاحة والصناعات التقليدية، وكذلك هجر الأرض؛ بسبب الطرد العمدي من المعمريـــن أو الجفاف والفقر والأوبئة التي تكرر مسها للمجتمع الجزائري عدة مرات، منذ الاحتـلال إلى غاية الثلاثينات من القرن العشرين.

وهكذا ففي الوقت الذي كان يطمح فيه المعمرون إلى تحويل " الجزائر إلى أســتراليا" في ميدان تربية المواشي، فإن الجزائريين على النقيض في ذلك كان يراودهم حلم آخر وهـــو تجاوز الأزمات والمحن وقهر الاستعمار بأقل الأضرار.

إن هذه الأوضاع الاجتماعية قد استغلتها أطراف أخرى في تنفيذ سياســـة مبرمجـة ومحددة ضمن الأهداف الاستعمارية الجوهرية، وهي تنصير الجزائريين عن طريـــق حمـــلات التبشير التي وجدت الفرصة مناسبة في تقديم مساعدتها مقابل التخلي عن الإسلام، تحقيقـــا لهدف إعادة الجزائر إلى الديانة المسيحية.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الرابع : الأوضاع الثقافية :

لقد سلطت فرنسا آلتها الاستعمارية للقضاء على مقومات الشعب الجزائري واستهدفت في الأول الدين الإسلامي لما رأت فيه من عائق كبير يحول بينها وبين تحويل الجزائر إلى أرض فرنسية مسيحية. فبدأت بالقضاء على المساجد، إذا كان عسكريوها يحتلون المدن ويهرعون إلى المساجد لتحويلها إلى كنائس ومستودعات عسكرية، كما عمدت السلطات الاستعمارية إلى سن ترسانة من التعليمات والمراسيم للاستيلاء على الأوقاف الإسلامية لحرمانها من التمويل المصدر الأساسي لنشاطاتها. "وقد أدركت حكومة الجمهورية الثالثة بعد سقوط الإمبراطورية الثانية لنابوليون الثالث خطورة ترك أملاك الوقف بيد الجمعيات الدينية التي يمكن أن توظفها لصالح التعصب الديني حسب سياستها[1].

وبمقابل ذلك نشطت حملات التبشير مستغلة الأوضاع الاجتماعية المزرية للمواطنين الذين أرهقتهم السياسة الاستعمارية لتحطيم البنية الاقتصادية للمجتمع في الاستيلاء على أراضيه الفلاحية وإعطائها للمعمرين.

هذه السياسة أدت إلى غلق المدارس القرآنية ووضع حد لتطورها، وهذا ما أدى إلى نقص في عدد الفقهاء وقراء القرآن الكريم. كما أدى إلى انحطاط كبير في اللغة العربية، بسبب إهمال تدريسها، بل أن العبادات نفسها صارت خاضعة للإدارة الاستعمارية.

وفسحت السياسة الاستعمارية الطريق أمام انتشار الطرق الصوفية المنحرفة والزوايا الجامدة وباتت هي سيدة الموقف بدعم من السلطات الاستعمارية. فانتشرت بين عامة الشعب أفكار الشرك بالله وأصبح الاعتقاد في الولي فلان شرط من شروط الإيمان إلى غيرها من مظاهر انحراف عقيدة المسلمين.

"إن التساؤل الذي ظل يراود منظري الاستعمار بشأن بقايا الطرق الصوفية إلى غاية 1897 كان يدور حول كيفية التعامل مع هذه الأخيرة؟.

---

[1] أحمد الخطيب: "جمعية العلماء المسلمين وأثرها الإصلاحي في الجزائر"، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985. ص 49.

" هل ينبغي محاربتها واضطهاد رجالها؟ أم ينبغي التلطف معها بطريقة مدروسة تحترم مشاعر الأهالي لأجل كسب ثقتهم واستمالتهم إلينا؟".

وقد أظهرت التجارب لبعض المنظرين فشل الطريقة الأولى، ولذلك فإنهم اقترحوا لأجل محاربة تأثير الطرق الصوفية، الإشراف على هذه الطرق وإقامة علاقات معها، وكذا نسج علاقات مع الأهالي، والتأثير على عقولهم عن طريق الزوايا، والسماح كما دعت الضرورة بإنشاء زوايا جديدة [1].

وبهذا التحطيم والتطويق للبنى الأساسية التعليمية والمتمثلة في المساجد والزوايا والكتاتيب ضاع التعلم القرآني لجيل كامل، فبقسنطينة تناقص عدد التلاميذ من 600 إلى 60 تلميذا، وعدد المدارس من 66 إلى 30 مدرسة[2].

يصف محمد فريد وجدي الذي زار الجزائر في سنة 1901 حالة التعليم بقوله: "إن حالة التعلم في الجزائر سيئة جدا، ولو استمر الحال على هذا المنوال لحلت اللغة الفرنسية محل اللغة العربية في جميع المعاملات، بل ربما تندثر بالمرة بمضي الزمان، فلا الحكومة تسعى في حفظها ولا تدع الأهالي يؤلفون الجمعيات لفتح المدارس"[3].

ويتحدث بن باديس عن هذه الفترة من الحياة الثقافية إذ يقول: "شاهد هذا القطر قريبا من الفناء ليست له مدارس تعلمه وليس له رجال يدافعون عنه ويموتون عليه، بل كان في اضطراب مستمر... كان أبناؤنا يومئذ لا يذهبون إلا إلى المدارس الأجنبية التي تعطيهم غالبا إلا ذلك الفتات الذي يملأ أدمغتهم بالسفاف حتى إذا خرجوا منها خرجوا جاهلين لدينهم ولغتهم وقوميتهم، وقد ينكرونها"[4].

كان الجهل يسود جميع أرجاء البلاد وفي كل مكان، فالعنصران الأساسيان للشخصية الجزائرية اللغة العربية والإسلام في انحصار وتقهقر بفعل القوانين التي تمنع فتح

---

[1] الطاهر عمري: دور بنى المجتمع الجزائري في مقاومة الاستعمار 1830-1900، بحث مقدم لنيل درجة الماجستير، ص227.

[2] الجيلالي صاري، محفوظ قداش، مرجع سابق، ص

[3] أنور الجندي: الفكر والثقافة المعاصرة في شمال إفريقيا، دار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1965، ص133.

[4] تركي رابح: التعليم القومي والشخصية الوطنية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1950، ص157.

المدارس العربية كما جاء في مرسوم 18 أكتوبر 1892 الذي يمنع فتح المدارس إلا برخصة حكومية والتي كان الحصول عليها يخضع لتحريات بوليسية [1].

ووضعية التعليم في القرن العشرين يؤكدها الإهمال المتعمد لتعليم الجزائريين، وتعد تلك الحقيقة من بين الملامح الصارخة للاحتلال الفرنسي الذي إدعى وأنه جاء لنشر الحضارة عن طريق تعليم الفرنسية للجزائريين، ويسوق أبو القاسم سعد الله اعتراف أحد الفرنسيين قوله: "بأننا قد حضرنا الجزائر جزئيا من الوجهة المادية ولكننا لم نفعل شيئا تقريبا بخصوص الناحية العقلية التي هي أكثر أهمية[2].

وهذا الاعتراف يؤكد ما وصفه الشيخ عبد الحميد بن باديس سابقا لحالة التعليم في صفوف الجزائريين في تلك الفترة، ويمكن إدراك خطورة تلك الحالة من خلال المواقف المتطرفة للكولون في وجه أية محاولة لإعطاء الفرصة لتعليم الأهالي، كما جاء في لائحتهم في هذا الشأن"... نظرا لأن تعليم الأهالي في الجزائر سيعرض الجزائر إلى خطر حقيقي ، ولذلك يجب توقيف التعليم الابتدائي للأهالي، وهذا الموقف الذي يتضح من خلال ما تم رصده لتعليم الأهالي مقارنة بالمعمرين، فقد تم تخصيص عشر المبلغ المقرر لهؤلاء بالنسبة للأهالي فقط، مع العلم بأن عدد سكان الأهالي بلغ خمسة مليون نسمة، وعدد المعمرين لم يتجاوز خمسمائة ألف نسمة[3].

وزاد من تردي الحالة التعليمية عزلة الجزائر عن محيطها العربي الإسلامي وانعدام أية مبادلات ثقافية، فقد كانت الجرائد والمجلات وبعض الكتب تدخل إلى الجزائر خفية عن الاستعمار.

هذه الأوضاع بقيت صورها راسخة في ذاكرة الشيخ عبد الحميد بن باديس، والذي استذكرها في مقال له سنة 1930 قائلا: "إن المجتمع الجزائري في خطر الموت من حيث عقيدته ولغته، وكان ذلك الكلام في الوقت الذي كان المعمرون يحتفلون فرحا وبهجة

---

[1] أحمد الخطيب، المرجع السابق، ص63.

[2] أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ج2، ص142.

[3] نفسه، ص ص 149، 150.

بالعيد المئوي لاحتلال الجزائر[1]. وهي تلك الأوضاع التي جعلت بن باديس ينطلق في نهضته الإصلاحية بدءا بحركة تعليمية بقسنطينة منذ 1913م.

ومن جهة أخرى، يمكن القول أن الحالة التعليمية قد كانت من دواعي بداية النشاط السياسي للجزائريين منذ نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، إذ كانت مسألة التعليم من القضايا التي تحملها لوائحهم وعرائضهم إلى السلطات الاستعمارية كما أشرنا في المبحث الأول من هذا الفصل.

أما التعليم الفرنسي فقد ظل يتأرجح بين تحقيق سياسة الإدماج والخوف من استفادة الجزائريين من هذا التعليم وتأثيره على الحركة الاستيطانية في الجزائر، ولقد تناول منظرو الاستعمار على مختلف مشاربهم وفي هذه المرحلة على الأقل، ملف التعليم من زاوية إيديولوجية وسياسية، ومعنى ذلك أنهم كانوا يهدفون إلى استعمال التعليم لمحاربة العائق المتمثل في بنى المجتمع الأصيلة، وبالتالي فرض السلطة على المجتمع الجزائري.

إذ في هذا الشأن "بوير": "إن مسألة التعليم بالجزائر ظلت تطرح من زاوية الإشكال المذهبي، وذلك نظرا للأسئلة المطروحة، والتي تجعل الأمر يغرق في الغموض، وذلك أن الأمر كان يتعلق بالتوجه الثقافي المستقبلي للجزائر، هل ستكون فرنسية تماما؟ أم منتوجا للانصهار العربي-الفرنسي؟ أم ستكون نصف عربية ونصف فرنسية؟ وبناء على هذا الخيار المذهبي يأتي التوجه من طرف الدولة وسياستها التعليمية بالجزائر"[2]. ومهما يكن من الأمر فإن التعليم الاستعماري في الجزائر كان قد أدى دورا هاما في سياسة الغزو الفكري وبدأ يساهم في منح الشرعية للغزو العسكري على الأقل في صفوف خريجي المدرسة الفرنسية.

وهذا التوجه المتميز البطء هو الذي أرادت السلطات الاستعمارية المراهنة عليه في اعتمادها التعليم الفرنسي كوسيلة لاستيعاب العنصر وصهره في البوتقة الفرنسية ليتشبع بالمثل والقيم الفرنسية. إلا أن حصيلة هذه السياسة تكشفها الإحصائيات العامة لمصالح

---

[1] تركي رابح، المرجع السابق، نقلا عن الشهاب، سنة 1930.

[2] الطاهر عمري: المرجع السابق، ص 178.

الحكومية حول الوضعية العامة في الجزائر بين عامي 1930-1938، في الجانب المتعلق بالتعليم ما يلي:

ففي عام 1930 كان عدد مدارس التعليم العام المخصصة للأهالي 570، منها 26 خاصة للبنات. عدد تلاميذ المسجلين 51542 مسجلاً منهم 3585 تلميذة.

وفي عام 1938 بلغ عدد التلاميذ الأهالي المسجلين في مدارس التعليم العام 76859 منهم 9063 تلميذة، إضافة إلى 28977 تلميذا كانوا يتعلمون في المدارس الفرنسية، بينما بلغ عدد المدارس في هذه السنة 689 مدرسة، منها 55 للبنات.

أما التعليم العالي، فيذكر المصدر أن 92 طالبا جامعيا أهليا فقط سجلوا خلال السنة الجامعية 1930-1931 من مجموع 2.013 فرنسيا وأوربيا[1].

ويستخلص من هذه الأرقام مدى الصعوبة التي كانت في وجه الأهالي في تحصيل التعليم الفرنسي، والذي لا يرجع هذا النقص إلى سياسة الحرمان الفرنسية فحسب، بل يعود أيضا إلى عدم إقبال أبناء الجزائريين في بعض المناطق التي ما زالت متمسكة بالتعليم الديني في المساجد والزوايا والكتاتيب وهي البقية المتبقية من تحطيم الفرنسيين للبنى الثقافية والتعليمية في الجزائر، والتي كانت تتواجد في بعض المناطق المعزولة.

ويجدر التذكير أنه قد تم اعتماد سياسة فرنسية منذ نهاية القرن العشرين في إنشاء ما عرف بالمدارس الفرنسية " Franco-musulmans " التي كان تخرج منها الوكلاء والمترجمين الشرعيين الذين كانوا يقومون بدور الوسيط بين الإدارة الفرنسية ومجموع المواطنين (وهي ثلاثة مدارس بقسنطينة، الجزائر وتلمسان).

وفي الحقيقة أن هذه السياسة الأخيرة بقدر ما تبين حرص المستعمر على تحقيقي مصالحه فإنها في الوقت ذاته تثبت عجز السياسة الفرنسية في تحقيق سياسة الإدماج وهي سياسة التفرقة عوض الإندماج الاجتماعي والسياسي الذي كان يدعيه الاستعمار، ووقف ضده المعمرون[2].

---

[1] الجيلالي صاري ومحفوظ قداش نقلا عن: Situation générale de l'Algérie 1930، ص 225.

[2] نور الدين ثنيو: قضايا الحركة الإصلاحية عند رابح الزناتي ومحمد الأمين العمودي خلال الثلاثينات، رسالة ماجستير، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، ص 27.

إن هذه الوضعية من التخلف في تحصيل التعليم العربي الإسلامي والأوروبي الفرنسي هي التي جعلت الشيخ البشير الإبراهيمي يقول : لقد كان المجتمع الجزائري قبل ظهور حركة الإصلاح تهيمن عليه قوتان أساسيتان: الاستعمار في شؤون دنياه، والطرق الصوفية في شؤون أخراه.

كما أن جل العلماء الجزائريين تعلموا في الزوايا، "فمن الزوايا المبدأ، وإليها المصير، وزوايا الطرق من باب العلم كمدارس الحكومات: هذه معامل لتخرج الموظفين، وتلك معامل لتخرج المسبحين"[1].

في هذه الظروف بدأت الحياة الثقافية تنتعش عن طريق نخبة من المثقفين الجزائريين الذين اجتهدوا في فهم نتائج حضارة الغرب الوافدة مع المستعمر مع الاحتفاظ بهويتهم الاستعمارية ومن بين الذين برزوا في هذه المرحلة الشيخ عبد القادر المجاوي (1848-1913)، الذي اشتهر برسالة إرشاد المتعلمين التي نشرت في القاهرة سنة 1877 وتخرج على يده الشيخ حمدان اللونيس الذي سيصبح فيما بعد أستاذ عبد الحميد بن باديس كما ظهر الشيخ أبو القاسم الحفناوي (1852-1942) المفتي المالكي وصاحب الكتاب تعريف الخلف برجال السلف" الصادر في الجزائر عام 1905، والجزء الثاني عام 1907 وقد كانت دروسه في الجامع الكبير بالعاصمة بمثابة نافذة فكرية على ماضي الجزائريين وخاصة تراثه الثقافي، كما يعد الشيخ مصطفى بن خوجة (1865-1915) من الذين ساهموا في إحياء ونشر أعمال المفكرين المسلمين وتحقيقها وهو صاحب كتاب "الإكتراث في حقوق الإناث"، وستبقى الحركة الإصلاحية مدينة للشيخ عبد الحليم بن سمايا (1886-1933) الذي صنف كرائد للاتجاه السلفي في الجزائر وقد كان مدرسا بالمدرسة الثعالبية الرسمية بالعاصمة، والذي أصدر فتوى تحرم محاربة العثمانيين أثناء الحرب العالمية الأولى[1]. كما تعد مساهمة الشيخ المولود بن الموهوب[*]، الذي كان يقول : لكي تتخلص الجزائر من حالتها

---

[1] البشير الإبراهيمي: سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ص5.

[1] عبد الحميد بن باديس: الحركة الإصلاحية في الفكر الإسلامي المعاصر، الكتاب الثالث، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، ص10.

[*] ولد سنة 1866م بقسنطينة، توفي الإفتاء فيها سنة 1908، كان له دور أساسي في بذور الحركة الإصلاحية، وكان يؤمن بأفكار الجامعة الإسلامية، وتزعم ما عرف بكتلة الإصلاحيين المحافظين، توفي سنة 1933.

يجب عليها أن تؤمن بالتقدم والتعليم بكل الوسائل...، ودعا إلى دراسة الآداب ودراسة الإسلام وتاريخه، وقد كان ينشط في نادي صالح باي بقسنطينة الذي خاطب مستمعيه في محاضرة له في قوله: استيقظوا وأيقظوا إخوانكم"، ومرة أخرى وفي صوت درامي صراخ فيهم قائلا: ليحيا العلم، ليسقط الجهل". وهذا الدور النهضوي التعليمي المبكر للشيخ بن الموهوب، جعل الأستاذ سعد الله يقول أن بن الموهوب كان الموضوع (أو المقدمة) لحركة بن باديس الإصلاحية[2].

وهذا الاستنتاج له ما يعززه إذا ما تم الربط ما بين الشيخ بن الموهوب وبن بلديس في كونهما من مدينة قسنطينة التي كانت من الحواضر العلمية في الفترات السابقة وفي نفس الوقت فإنه قد يكون بن باديس من المستمعين للشيخ بن الموهوب على الأقل في فترة طفولته أي في نهاية القرن التاسع عشر. وهو ما تؤكده استنتاجات الكثير من الباحثين في أن الحركة الإصلاحية لم تنشأ من فراغ.

وقد بدأ بن باديس يعد العدة في التحضير للنهضة الوطنية بعد عودته من تونس سنة 1913 بالجامع الأخضر وعلى مدى عشرية كاملة استطاع أن يكون تلاميذه وأنصاره الذين سوف يعضدون حركته خلال العشرينات، فخلال هذا العقد نشأت الصحافة الإصلاحية وتأسست النوادي ونبتت المدارس الحرة ومساجد الوعظ والإرشاد في كثير من القرى الجزائرية ومدنها. وكما يقول الأستاذ أبو القاسم سعد الله فإذا كان المذهب الديني للعلماء يبدو محل جدل فإن عملهم التعليمي والاجتماعي يبدو محل جاذبية ونجاح، فعلى المستوى التعليمي كان المبدأ الرئيسي الذي علمه العلماء لطلابهم وأتباعهم هو الجزائر وطني والإسلام ديني والعربية لغتي، وتحت هذه الراية بدأ بن باديس يدعونا إلى أفكار وطنية، وقد لاحظ أحد المعاصرين الفرنسيين أن العلماء قد أدخلوا (بيداغوجية وطنية) في حملتهم التعليمية... فقد طبق العلماء طريقة سهلة وحديثة في تعليم العربية وحاولوا أن يطهروها من الدخيل والاستعمالات الهجينة، كما كانوا يعلمون القرآن في هذه المدارس، ولكن بتفسير حديث... ومن المساهمات التي قام بها العلماء خلال العشرينات خلق وبعث التاريخ

---

[2] أبو القاسم سعد الله: مرجع سابق، ص160.

الوطني. فبفضلهم نشر الماضي الجزائري وعرفه الطلاب. وكانت الصحافة أيضا من مظاهر الحياة الثقافية البارزة منذ بداية العقد الأول من القرن العشرين وتمت ترقيتها على يد بن باديس في منتصف العشرينات بتأسيسه أول جريدة عربية تحت اسم "المنتقد" والتي كانت الإطار الأول الذي اجتمع حوله رواد الحركة الإصلاحية بمقالاتهم التي هزت في بدايتها الرأي العام لما كانت تتضمنه من مواضيع جديدة في نقد حالة التخلف والدعوة إلى التقدم والرقي. وتتكاثف جهود هؤلاء العلماء في نشر مبادئ الإصلاح في كثير من مناطق الجزائر، عن طريق التربية والتعليم بتأسيس المدارس وإصدار الصحف والنوادي والمساجد التي ستكون من المؤسسات التي ستزداد عددا وتنظيما في عقد الثلاثينات وتحت راية الجمعية من خلال هياكلها وبرامجها التعليمية. كما يوضحها هذا الجدول:

النواحي	عدد المدارس (قسم)	عدد المعلمين	عدد التلاميذ
الجزائر	352	357	7.524
وهران	496	496	6.836
قسنطينة	1573	1597	24.063
إقليم الجنوب	727	739	11.870
المجموع	3148	3189	50.293

(1)

وهذا التطور الملحوظ اعتبرته الجمعية في مؤتمرها العام نتيجة لجهودها الميدانية، فقد جاء في التقرير :"فقد جاءت نتائج هذا التعلم جلية في كل تلميذ قرأ في المكاتب (مكاتب الجمعية) فاستقامت الألسن وصحّت اللهجات وبدأت الخطابة تزدهر...[2].

وهذا الارتياح المسجل في انتشار التعليم العربي وتطويره تعود أسبابه في نظر الأستاذ عبد الكريم بوالصفصاف إلى الجهود التي بذلها العلماء، وليس إلى تساهل السلطات الاستعمارية كما يرى "روبير أجيرون" وغيره[3].

(1) الجيلالي صاري ومحفوظ قداش نقلا عن: Situation générale de l'Algérie 1930، ص 225. وهو [illegible]

[illegible]

[illegible]

خلاصة الفصل :

تكشف لنا الحقائق السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية السابقة الذكر أن المجتمع الجزائري قد عرف أوضاعا صعبة ومأساوية، لم يكد يعرفها أي مجتمع آخر على الأقل فيما يتصل بالمجتمعات العربية والإسلامية.

وقد اعتبر الفرنسيون سنة 1930، بداية عهد جديد من الانتفاضات في الجزائر. ودخلوا القرن الثاني من احتلالها وهم في غمرة من النشوة والزهو، معتقدين أنهم سيظلون فيها إلى الأبد. ورفع غلاة المستعمرين شعارات متحدية ومعادية للعرب والإسلام معلنين أنهم قد فتحوا يعني احتلوا، الجزائر عنوة، وأنهم افتكوها من الحضارة الإسلامية وأعادوها إلى الحضارة الرومانية التي ينتسبون إليها، وكانوا في خلال ذلك يضربون بيد من حديد أي محاولة من محاولات التنظيم السياسي والاجتماعي والثقافي بين الجزائريين معتبرين أي سعي في هذا الاتجاه من أي نوع كان كفرانا بنعمة فرنسا على الجزائر، واصفين من يقوم بها بالخيانة أو التبعية لدول أجنبية أو بالإجرام. وهكذا خنقوا حركة الأمير"خالد"، في مهدها، وحلوا منظمة نجم شمال إفريقية وأجبروا النواب المستقلين على طأطأة الرؤوس وكونوا من حولهم صنائع اشتهرت في تاريخ الجزائر السياسي بجماعة "بني وي-وي"[1].

إلا أن تفاعلات الأوضاع عن طريق ردود فعل الحركة الإصلاحية في تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وتطور حركة نجم شمال إفريقيا إلى حزب الشعب ووعي فئة من دعاة الاندماج باستحالة تحقيق إصلاحاتهم عن طريق التجنيس الجماعي ستعطي لحقبة الثلاثينات خصوصيات تكشف عن حقائق جديدة تهيء الحركة الوطنية لشوط جديد في التعامل مع الإصلاحات الفرنسية التي جاء بها مشروع فيوليت والمؤتمر الإسلامي عام 1936. وموقف مختلف الأطراف من الحرب العالمية الثانية التي امتنع العلماء من تأييد فرنسا وألزموا الصمت وعطلوا منابرهم الإعلامية، وكان لدعاة النخبة موقف المشاركة إلى جانب فرنسا بمعية الطرقيين والموظفين الموالين لها، ولحزب الشعب مصير الزج بمناضليه في السجون والمعتقلات بتهمة استغلال ظروف الحرب لنشر أفكارهم الثورية الاستقلالية، أما الشيوعيون فقد تم حل حزبهم على غرار حزب الشعب.

---

[1] أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص14،15.

* الفصل الثاني *

نشأتـــــــه وتعلمـــــــه

* المبحث الأول : ميلاده ونشأتـــه

* المبحث الثاني : تعلمـــــــــه

* المبحث الثالث : علاقته برواد الحركة الإصلاحية في الجزائر

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بعد استعراض الأوضاع العامة للمجتمع الجزائري في عصر مبارك الميلي خلال القرن التاسع عشر وما نشأ خلالها من نتائج سياسية واجتماعية وثقافية إلى غاية الأربعينات نأتي الآن إلى دراسة حياة مترجمنا والأطوار التي مر بها في حياته العامة والخاصة لا سيما حياته العلمية والعوامل التي كان لها الأثر المباشر في تكوين شخصيته الفكرية والإصلاحية. فقد ترعرع ووعى وتفتحت مداركه في أحلك حقب تاريخ الاستعمار الفرنسي للجزائر، أي خلال سنوات قصمت ظهر المجتمع الجزائري، وحطمت أحلامه، وألغت إنسانيته بالكامل.

فقد نشأ الميلي وكبر في خضم أحداث مأساوية صنعتها الأنانية الاستعمارية التي لم يكفها انتزاع الأراضي من أهلها واستعبادهم وإخضاعهم لقوانينها الجائرة، بل امتدت جذورها نحو مقومات الشخصية الوطنية بهدف طمس معالمها وقطع أي اتصال بالماضي الحضاري للشعب الجزائري.

وإن صور المجاعة والفقر والجهل والقمع والتضليل، كانت بمثابة الشحنة التي جعلته يتحدى كل الصعاب والمخاطر من أجل بذل الجهود في إنقاذ أمة على وشك الاندثار، وقد جسد تحدياته في تذكير الشعب بتاريخه، من خلال مبادرته الرائدة في تأليف "تاريخ الجزائري القديم والحديث" المعروف، هذا المؤلف الذي انتبه إلى أهميته وخطورته الأعداء قبل الأصدقاء، إذ كان المؤرخون والباحثون الفرنسيون يعملون على إثارة الانتباه إلى هذا العمل الذي وضع تاريخ الشعب الجزائري في سياقه الصحيح، وأقام حدودا صريحة واضحة، للتمييز بين شعبين وثقافتين وحضارتين.

كما كان لتفشي الجهل والأمية وسط الجماهير، وانحسار اللغة العربية، وانتشار البدع والضلالات وكل مظاهر الشرك وقع بالغ الأثر في فكر الميلي، الذي خصص جل وقته لتعليم الناس السعي لتصحيح مفاهيمهم، ومن ثم انتشالهم من بين براثين الجهل كما واجه بكل جرأة ممارسات المحتلين بالقلم عبر الصحافة وبالكلمة المباشرة في المساجد والنوادي، كما خاض الشيخ، من جهة أخرى، حربا ضروسا رفقة علماء آخرين ضد الطرقية التي كانت تعمل على نشر البدع والخرافات وتضليل الشعب الجزائري.

ونظرا للتحديات التي كان يواجهها المجتمع الجزائري في مختلف المستويات والأصعدة ، ولاسيما على الصعيدين الاجتماعي والأخلاقي، فإن الميلي كرس فكره وقلمه لمحاربة الشرك ومظاهره، وكتب في هذا الشأن سلسلة مقالات تحت عنوان: "رسالة الشرك ومظاهره" بجريدة البصائر، في سبيل تحذير الناس من التردي العقائدي الذي يذهب بالبقية الباقية منهم.

والميلي القادم من أعماق الريف الجزائري، والذي دفعه همه للعلم وخدمة الدين الإسلامي والمجتمع الجزائري إلى إتباع مسلك العلم والمعرفة دون زاد مالي ومادي يعتبر نموذجا فذا للإرادة وقوة العزيمة والصبر للذود والمنافحة عن دين أراد له العدو الفرنسي المحو والإبادة التامة.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول : ميلاده ونشأته :

الشيخ مبارك الميلي مؤرخ ومثقف مصلح جزائري تميز بنضاله الوطني في الدفاع عن الهوية الجزائرية ومقاومة الطرق الصوفية المنحرفة بما ألفه من دراسات تاريخية علمية وإيديولوجية، جعل منها الأساس المنطقي الذي تنطلق منه كل حركة جادة في الدفاع عن الأمة ومقاومة المستعمر الأجنبي.

ولد هذا المصلح المفكر في بلدة الميلية سنة 1897م(*) من أب يدعى محمد بن رابح بن علي إبراهيمي، ومن أم هي تركية، بنت أحمد بن فرحات حمروش.

أما شهرته بالميلي فذلك نسبة إلى مدينة "الميلية"[1] التي ولد بإحدى قراها وهي قرية "أرمامن" ناحية "موزال" دوار أولاد امبارك(**) قرب مدينة الميلية.

أما أسرته فكانت ذات وجاهة معتبرة بدوار أولاد مبارك، وكان عمه صالح بن علي "قايد" الدوار، وجده رابح من الأعيان وهو متمسك بالدين الإسلامي والذود عنه، فقد حج ثلاث مرات وفي المرة الرابعة التحق بالرفيق الأعلى بالبقاع المقدسة.

أما والد الشيخ مبارك،محمد بن رابح، فقد كان هو الآخر رجل خير وصلاح وقد توفي وعمر مترجمنا أربع سنوات[2]، ويبدو من خلال الوضع الاقتصادي الفلاحي المتميز بامتلاك الأسرة لغابات وأراضي صغيرة، وهو عنوان الثراء في تلك العهود، وكذلك من حيث المكانة البارزة لجده وعمه؛ إذ أن أسرة إبراهيمي لم يكن ينقصها إلا رجل علم تزين بها نسبها ومكانتها، ولذلك كان الجد رابح يمني الطفل مبارك بإرساله إلى أحد المعاهد

(*) اختلف المؤرخون في تاريخ ميلاده. فالشيخ أحمد حماني يذكر سنة 1896 (أنظر كتاب : "صراع بين البدعة والسنة، ج2، دار البعث، قسنطينة، ص35)، وقد أكد ذلك في مقابلة مع الباحث وتمت المقابلة بمكتب رئيس جامعة الأمير عبد القادر يوم 16 أفريل 1995، ويذكر محفوظ قداش سنة 1897 (Mahfoud Kaddache : Histoire du Nationalisme Algérien, Tome II, 2ème Edition.) ENAL أما الأستاذ علي دبوز، فيذكر سنة 1998، بناء على رواية شفوية مصدرها الأستاذ محمد الميلي بن الشيخ مبارك، (أنظر محمد علي دبوز: أعلام الإصلاح في الجزائر/ ط1، مطبعة البعث، قسنطينة، ص31)، ويذكر عبد الكريم بوالصفصاف سنة 1897، في مصدر سابق، ص81، ونحن نرجح هذا التاريخ بسبب ذكره لنا أنه تأكد من التاريخ نفسه عن طريق سجل الحالة المدنية، الذي حاولنا الحصول عليه و لم نجده فاكتفينا بما ذكره الأستاذ المشرف.

(1) الميلية: قرية حدثت في العهد الفرنسي، تقع شمال مدينة قسنطينة بنحو 50 كلم، وهو منسوبة إلى ميلة لأن موضعها كان يقرله فرسان بوزيان بن عز الدين من ناحية ميلة فنسبت البقعة إليهم (أنظر مبارك الميلي: البصائر، ع:30 جويلية 1936، ص4).

(**) محمد علي دبوز: أعلام الإصلاح في الجزائر/ ط1، مطبعة البعث، قسنطينة، ص31.

(2) نفسه، ص17.

القرآنية التي أنشأها الزوايا المتواجدة بالمنطقة؛ وهو الأمل الذي بات ينمو مع الفتى مبارك ويتحول إلى حقيقة واقعة مع مرور الزمن.

كانت السنوات الأولى من عمر الطفل مبارك تتميز بالاستقرار، إذ رغم وفاة والديه وهو لم يتجاوز السادسة من عمره، فقد وجد في كفالة جده رابح وجدته حفصية الحنان الكافي والتربية الحسنة. فجده رابح من شدة حبه له أسهمه في ميراثه مع أعمامه في وصية له، وأدخله في سن مبكرة لكتّاب القرية ليفتخر ويعتز به لحفظه القرآن الكريم.

أما جدته فقد كانت تقيم له الولائم كلما ختم أجزاء من القرآن الكريم[1].

وكان النبوغ المبكر في حفظ القرآن للطفل مبارك يؤكده زميله في الطفولة الطيب بن محمد غيموز بقوله: "كان معلم القرآن بقرية اليسرين، الشيخ أحمد بن غيموز شديد الحب لمبارك يعتز به ويستعين به في كُتّابه"[2].

ويمكن القول أن طفولة الشيخ مبارك كانت خصبة تيسرت له فيها أسباب النبوغ المبكر في أحضان جديه، وتعد تلك الفترة من البذور الطيبة، والتي كما أجمعت الروايات على أنه حفظ القرآن الكريم وهو في حدود السنة الحادية عشرة من عمره، كما ستكشف عن ذلك المراحل اللاحقة من تحصيله العلمي؛ رغم الخلل الذي سيطرأ على حياته أثناء كفالة عمه الذي أراد له مصيرا آخر غير طلب العلم، لولا صلابة تلك البذور التي جعلته يتحدى الظروف و يتجاوز ذلك المصير.

وفي طور الصبا والشباب تتغير حياة الفتى مبارك بشكل مفاجئ ففي كفالة عمه واجه وضعا آخر إذ رفض عمه طلبه للتنقل إلى إحدى زوايا المنطقة –كما كان وعده جده رابح من قبل – بل ألزمه بالتوجه للفلاحة والرعي وأعمال أخرى كثيرا ما نفر وتبرم منها[3].

ورغم الوضع الذي وجد فيه بعد وفاة جده، فإن رغبته في طلب العلم لم تتلاشى بوفاة جده فقد استمرت تنمو وتتأصل في نفسه، إذ كان كثيرا ما ينزوي وهو في الحقول

---

(1) نفسه، ص25.

(2) نفسه، ص34.

(3) نفسه، ص نفسها.

لقراءة وتهجية بعض الكتب. [1]، وتتحول تلك الرغبة إلى تصميمه للالتحاق بميلة التي كانت في مطلع القرن العشرين تشع منها أنوار المعرفة على أهل القرى والجبال المحيطة بها، وذلك من خلال الجهود العلمية التي بدأ يقوم بها الشيخ محمد الميلي[2] في ميدان التعليم الديني في معهده الذي ذاع صيته، الأمر الذي جعل الفتى مبارك يقصده طالبا للعلم.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[1] نفسه، ص34.

[2] هو الشيخ محمد بن الظريف بن محمد لقبه ولقب أسرته "ابن معنصر" الميلي نسبة إلى ميلة التي ولد بها حوالي 1286 هـ، / 1870م ونشأ بها، وتعلم على يد الشيخ علي بن ابراهيم حفظ القرآن الكريم، ثم تعلم مبادئ النحو والفقه وأظهر نبوغه فأرسله والده إلى المدرسة الكتانية بقسنطينة التي أنشأها الحكومة الفرنسية في آخر القرن التاسع عشر. ولما عاد إلى ميلة، وبعد أن ضاق به الحال بالقضاء أنشأ معهدا دينيا عام 1901 وكان موقعه بالجامع الكبير في مركز مدينة ميلة القديمة، وبعد من رواد الإصلاح وكانت بينه وبين الشيخ عبد الحميد صلة قوية ولما توفي في جويلية 1928 ابنه ابن باديس (محمد علي دبوز، المرجع السابق، ص48 وما بعدها).

المبحث الثاني: تعلمـــــه :

لا تذكر المصادر عمر وسنة وصول الفتى مبارك إلى مدينة ميلة. ولذلك سنعتمد في تقديرنا على محاولته الهروب الأول نحو زاوية الشيخ الحسين[1]، وإرجاع عمه له بالقوة، إذ أن ذلك الموقف يعبر عن حد أدنى من الوعي والإدراك والمسؤولية، والتي لا تقل عن سن البلوغ. وهي غالبا ما تكون في حدود الثالثة عشر من عمر المرء بصفة عامة.

وإذا اعتبرنا أن فترة إجباره على العمل الفلاحي، قد تكون تراوحت بين موسم أو موسم ونصف على الأقل، بناء على أن بدء وإنهاء أشغال المواسم كانت من الالتزامات العائلية المقدسة، وبالتالي فلا يمكن للفتى مبارك أن يتمرد على إرادة عمه في عز الأعمال الفلاحية، ومن جهة أخرى فإن الصورة البطولية التي يذكرها الأستاذ علي دبوز في وصف هروب مبارك من منزله "وكان الزمن شتاء..وبأزقة ميلة القديمة رأى الشيخ الميلي مبارك يحمل عصاه وصرّة ثيابه ويتأبط لوحته"[2]. يكون مبارك قد ساهم مع عمه في بداية الموسم الفلاحي في فصل الخريف، ثم اتخذ قرار الهروب نحو ميلة. وبذلك تكون الفترة الإجبارية لا تقل عن السنتين.

وبالاعتماد أيضا على استنتاجات الباحث أحمد صاري في أن الشيخ مبارك يكون قد روى بنفسه ظروف هروبه نحو ميلة لبعض زملائه وطلبته. يمكننا موافقة استنتاج الأستاذ صاري بأن الفتى مبارك قد حل بمدينة ميلة في حدود سنة 1913م وعمره حوالي خمس عشرة سنة[3].

وقد تهيأت للطالب مبارك بميلة ظروف جديدة يسرت له بداية مشواره الحقيقي في تحصيل العلم، فقد احتضنه الشيخ محمد الميلي بقوة في المعهد الديني وتكفلت به عائلة بوالصوف[4]. ولقد استقر الطالب مبارك فترة زمنية لا تقل عن خمس سنوات.

---

(1) نفسه، ص42.

(2) نفسه، ص47.

(3) أحمد صاري: "مبارك الميلي ودوره في الحركة الإصلاحية" ، مجلة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، عدد 07 مارس 2001، ص105 ص106

(4) عائلة بوالصوف من أشهر وأبرز عائلات مدينة ميلة في الثراء والجاه قدمت للفتى مبارك كل ما يحتاجه لطلب العلم، بل صار أحد أفرادها، إذ بات تحقيق طموحاته العلمية من أمانيها وأهدافها وقد بلغ الأمر بالسيد مصطفى بوالصوف الذي كان مستشارا بالبلدية أن -

وتقديرنا لهذه الفترة بناء على اعتبارات أهمها خصوصية التعليم بالمعهد الديني السابق الذكر، إذ أن هناك حدا معينا من التدرج في تلقي العلوم الدينية في مثل هذا المعهد الذي لا شك و أن مؤسسه و المدرس به الشيخ محمد الميلي خريج المدرسة الكتانية، يكون قد استوحى بعض الجوانب التنظيمية من النظم الدراسية وطبقها بمعهده.

كما نستنتج من الفترة الوجيزة جدا التي قضاها الطالب مبارك بالجامع الأخضر بقسنطينة وكذلك الاعتراف المسجل له من طرف شيوخ جامع الزيتونة بتونس، أن مقدمات شخصيته العلمية قد بدأت تتكون في مدينة ميلة. كما يستنتج من الثقة البالغة التي كان يتمتع بها لدى شيخه محمد الميلي والتي تطورت فيما بعد إلى درجة المصاهرة، بتزويجه الأستاذ الطالب إحدى بناته؛ وهذه المصاهرة لم تكن تحصل لولا إعجاب الشيخ بالتلميذ لطول العشرة والتعرف عليه عن كثب. كما ارتبط مترجمنا كذلك بعائلة بوالصوف إلى عهد متأخر من حياته. وقد كان السيد مصطفى ينفق عليه وهو يتابع دراسته بالزيتونة؛ هذه العلاقة العميقة والدائمة، إذا ربطناها بسفره من قسنطينة إلى تونس سنة 1919، لا يمكن أن تقل عن خمس سنوات باعتبار أنه دخل ميلة في سنة 1913 كما سبق ذكره.

انتقل الطالب مبارك الميلي إلى مدينة قسنطينة لينهل من الينبوع العلمي الجديد المتدفق في رحاب الجامع الأخضر عرين مؤسس الحركة الإصلاحية الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله.

ويعد انتقاله أمرا طبيعيا؛ لأن مدينة قسنطينة كانت في نهاية العشرية الثانية من القرن العشرين مبتغى رحال طلبة العلم من مختلف أرجاء الوطن، ومحطة عبور ضرورية، لأن الشيخ بن باديس كان هو الذي يتولى إرسال الطلبة المتفوقين لمتابعة دراستهم العليا بجامع الزيتونة الأعظم بتونس.

- دفع مالا لأحد الشباب لتأدية الخدمة العسكرية الفرنسية مكان الشاب مبارك، الذي استدعته السلطات الاستعمارية عام 1916 (محمد علي دبوز، ..ومقابلة الباحث لأحد أفراد عائلة بوالصوف)

وقد يسرت أسرة بوالصوف لمبارك الظروف التعليمية المعتبرة بمدينة ميلة، الالتحاق بالجامع الأخضر وكذلك الصلة العلمية الوثيقة التي كانت بين الشيخ محمد بن عنصر الميلي شيخ مبارك والشيخ عبد الحميد بن باديس.

ولا تذكر المصادر أيضا تاريخ قدوم مبارك إلى مدينة قسنطينة، إنما أمكن تقدير ذلك بناء على استنتاجنا السابق، وأنه أقام بميلة فترة زمنية لا تقل عن خمس سنوات، بدءا من عام 1913. ولذلك على الأرجح تكون سنة 1919 هي سنة التحاقه بالجامع الأخضر.

أما مدة إقامته، فحسب إشارة أحد تلامذته أحمد بوزيد قصيبة، فهي سنة واحدة فقط نال فيها إعجاب أستاذه بن باديس الذي "أحبه كثيرا وقربه إليه وتنبأ أن الجزائر ستنال على يديه خيرا كثيرا، فآزره واعتنى به وشجعه ثم أرسله إلى تونس بعد مكوثه بقسنطينة سنة واحدة على أكثر تقدير".

وقد كان مبارك الميلي واحدا من أفراد البعثات الأولى التي أرسلها الشيخ بن باديس لتكوين جيل من العلماء المصلحين الذين سيخرجون الجزائر من العزلة العلمية والعزلة والثقافية التي فرضها عليها الاستعمار.

هناك اختلاف في تحديد تاريخ ذهابه إلى تونس وعودته منها، لكن هناك اتفاقا في المدة التي قضاها طالبا للعلم بجامع الزيتونة والتي بلغت خمس سنوات، توجت بإحرازه على شهادة التطويع وهي أعلى شهادة يوم ذاك بتونس.

أما بالنسبة لتاريخ ذهابه إلى تونس، هناك من يذكر سنة 1919، بينما يجعل آخرون سفره إلى جامع الزيتونة في سنة 1921 وتخرجه يكون سنة 1924[1].

ونحن نرجح سنة 1921 سنة ذهابه إلى تونس، باعتبار أن سنة التحاقه بالجامع الأخضر بقسنطينة كانت سنة 1919 والتي تقدر بعض الروايات أنه مكث بقسنطينة مدة سنتين على الأكثر، والعودة في نهاية سنة 1924. بناء على أن مدة الدراسة بالزيتونة لا تتجاوز أربع سنوات للحصول على شهادة التطويع. واستنادا إلى شهادة صديقه عبد الحفيظ الجنان الذي يقول : "وأذكر حينما زرته بتونس عام 1923 أيام دراسته نادرة طريفة

---

[1] أحمد صاري: المرجع السابق، ص4.

وهي أنه كان يمر بنظره على أوراق دروسه ثم يطويها في المحفظة ولا يحملها وقت الدرس وبعد الفراغ من الدروس يوجه أسئلة غريبة على أساتذته فيكبروها ويندهش لها الحاضرون"[1]. وهذه الشهادة توحي بأنه ما يزال طالبا بتونس الأمر الذي اقتضى زيارة صديقة الجنان.

المتفحص لمصادر ووثائق هذه الفترة يلاحظ أن مبارك الميلي انفرد عن بقية زملائه الأعضاء في البعثة الطلابية بكونه انصرف كلية إلى طلب العلم والدراسة مكرسا جهده وطاقته للاستفادة من النشاطات العلمية التي كانت تنظم بجامع الزيتونة، وكذلك بالمطالعة المكثفة والدرس[2]. في جامع الزيتونة نهل مبارك الميلي العلم عن أساتذة مبرزين كان لهم الأثر البالغ في تكوينه الفكري والعلمي، ومن أهمهم :

1- الشيخ محمد الطاهر بن عاشور[3]: درس عليه مدة ثلاث سنوات في مادة الأدب العربي عموما وديوان الحماسة لأبي تمام خصوصا.مما جعله يتبحر في كلام العرب ويسيطر بإتقان على المنظوم والمنثور[4].

2- الشيخ محمد النخلي القيرواني : أخذ عنه علم التفسير بأسلوب سهل تجاوز تعقيدات المفسرين الجدلية والاصطلاحية المذهبية وتحرر من قيود التقليد[5].

3- الشيخ البشير صفر: تعلم مبارك الميلي على يديه التاريخ العربي الإسلامي مستفيدا من ثقافته الواسعة وتمكنه من الثقافة العربية الإسلامية والغربية[6].

وقد جلب له السلوك العلمي الرزين الذي التزم به، احترام وتقدير شيوخه وزملائه، واستمر على هذا المنوال طيلة مدة دراسته حتى شارك في امتحان شهادة

---

(1) عبد الحفيظ الجنان:أطوارمن حياة مبارك الميلي،البصائر عدد 26مارس1948ص8

(2) محمد صالح الجابري: المؤرخ الجزائر مبارك الميلي في الصحافة التونسية، مجلة الثقافة، عدد 102 سنة 1989، ص ص19،20.

(3) من شيوخ جامع الزيتونة، كتب تفسير "التحرير والتنوير" وتولى القضاء سنة 1913، توفي سنة 1973.

(4) آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج3، ص271 - 272، ص 270، 302 من مطبوعات وزارة الشؤون الدينية.

(5) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ص 475، 476، الطبعة الأولى، عصار طالبي: ابن باديس حياته وآثاره، أربعة أجزاء، ج1، دار ومكتبة الشركة الجزائرية للطباعة، 1968.

(6) [illegible]

التطويع، وتحصل عليها بتفوق وتقدير من لجنة الامتحان. ومما قاله فيه أعضاء لجنة الامتحان: "أنت مبارك علينا، وعلى أمتك وعلى وطنك"[1].

ترك الشيخ مبارك الميلي بعد عودته إلى أرض الوطن أثرا طيبا بتونس، وهو ما أدى إلى نسج علاقات حميمة بينه وبين الوسط العلمي الزيتوني، امتدت وتواصلت حتى بعد انخراطه بالعمل الإصلاحي والتعليمي بالجزائر[2].

وقد جنى الشيخ مبارك الميلي مكاسب كبيرة من إقامته بالزيتونة عبر احتكاكه بشخصيات مميزة وأساتذة مقتدرين أخذ عنهم العلم والتقوى وحب العبادة كما غرسوا فيه حب العلم والعمل به والميل إلى البحث والكتابة والأدب. وقوى هذا الاتجاه لديه بالإكثار من القراءة منذ عهد الشباب حتى بلغ ما كان يهدف إليه من بيان وفصاحة وبحث وتدقيق في مختلف القضايا التي اشتغل بها في عمله الإصلاحي.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(1) محمد الصالح بن عتيق: "أحداث ومواقف من رجال الدعوة الاصلاحية والحركة الوطنية بالجزائر، منشورات دحلب، 1982، ص48.

(2) محمد الصالح الجابري: المرجع السابق، ص19-21.

المبحث الثالث: علاقته برواد الحركة الإصلاحية في الجزائر:

التقى مبارك الميلي في مشواره التعليمي وفي العمل الإصلاحي بشخصيات فذة متفوقة قطع معها مرحلة تحصيل العلم والعمل الإصلاحي، وكانت أحد المحفزات له في الاجتهاد وبذل أقصى ما في النفس من طاقة وبالأخص في فترة إنهاء دراسته في تونس بجامع الزيتونة، وهناك جاور أعلاما جزائرية لامعة سيكون لها شأن بعد عودتها إلى أرض الوطن ومن بينها العربي التبسي، محمد السعيد الزاهري، محمد العيد آل خليفة، تقدم عليهم في النتيجة النهائية وكان على رأس قائمة خريجي جامع الزيتونة في دفعة سنة 1924 بشهادة التطويع، ولا شك أن هذه النتيجة المتميزة كانت حصيلة لمجهوداته وانصرافه الكلي للدراسة والتحصيل[1].

وكذلك كان الحال في فترة الكفاح والعمل الإصلاحي مع أساتذته وزملائه وأبرزهم الشيخ عبد الحميد بن باديس، الشيخ البشير الإبراهيمي، الطيب العقبي، الشيخ خير الدين، أحمد توفيق المدني وغيرهم من أركان الحركة الإصلاحية الذين قاموا بإنجاز عمل جبار خلال ربع قرن من الزمن أحدثوا خلالها يقظة عامة لدى الشعب الجزائري الذي استعاد وعيه الوطني وأدرك شخصيته المتميزة عن الاستعمار في جزائريتها وعروبتها وإسلامها رغم عراقيل الاستعمار وقلة الوسائل أدى به في النهاية إلى الانتقال إلى مرحلة أخرى حاسمة في مواجهة الاستعمار والانتصار عليه بالثورة وافتكاك الحرية والسيادة في النهاية[2].

إذن كان رفاق مبارك الميلي متجانسين في غالبيتهم من الناحية الفكرية وينتمون إلى اتجاه واحد هو تيار الإصلاح العربي الإسلامي الذي استهدف منذ عشرينيات القرن الماضي –كما سبق القول– إحداث النهضة الجزائرية في أوساط الشعب بإحياء الإسلام الصحيح وإزالة الخرافات والبدع ونشر اللغة العربية وإبراز الشخصية الجزائرية المنفصلة عن

---

(1) محمد صالح الجابري: المرجع السابق، ص19. وأنظر أيضا محمد علي دبوز: نهضة الجزائر الحديثة، ج3،ص261.

(2) عبد الكريم بوالصفصاف: عبد الكريم بوالصفصاف: "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و دورها في تطوير الحركة الوطنية الجزائرية"، 1931–1945،قسنطينة، دار البعث، ط1، 1981، ص 362، 367.

الاستعمار مع العمل على مدى طويل كما ورد ذلك بوضوح في أدبيات قادة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

وكانوا كلهم من المتفوقين النبغاء الذين رغم الظروف القاسية التي عاشوا كل تراكماتها بوعي وصلابة في مرحلة التحصيل، فإنهم استطاعوا شق طريقهم في طلب العلم بامتياز في الجزائر؛ مما أهلهم لاستكماله في الخارج بتونس في جامع الزيتونة في غالبيتهم، باستثناء الشيخ محمد البشير الإبراهيمي والطيب العقبي اللذين درسا بالحجاز وكذلك العربي التبسي الذي جاور الجامع الأزهر الشريف إضافة إلى جامع الزيتونة.

كل هؤلاء العلماء التزموا نفس الالتزام عند رجوعهم إلى أرض الوطن لنشر المبادئ الإصلاحية بكل حزم وصرامة بدون أن يتأثر أغلبهم بسياسة الترغيب والترهيب التي انتهجتها الإدارة الاستعمارية قبل وبعد إنشاء جمعية العلماء في عهدي مدير الشؤون الأهلية بالحكومة العامة للجزائر السيد ميرانت ميو[1]، الذي تعد فترته من أحلك فترات العمل الإصلاحي للجمعية في تضييق الخناق على مختلف نشاطاتها في المدارس والمساجد والصحف، وتشجيع خصوم الحركة الإصلاحية من طرقيين وموظفين دينيين رسميين.

ورغم ذلك فقد وقف العلماء ضد الطرقية والطرقيين والمشاريع الاستعمارية وخاصة منها مشروع الإدماج والتجنس. كما قاوموا القرارات التعسفية التي استهدفت شل نشاط جمعية العلماء ومنعها من مواصلة دورها "عبر المدارس الحرة والمساجد والصحافة"[2].

ويأتي على رأس الشخصيات القيادية في الحركة الإصلاحية الإسلامية أب النهضة الجزائرية الحديثة الشيخ عبد الحميد بن باديس[*] الذي كان المبادر والرأس المدبر والمحرك لحركة الإصلاح، حيث أخذت فكرة الإصلاح تختمر في ذهنه وأخذ يسير بخطوات

---

[1] نفسه، ص177.

[2] نفسه: ص ص206، 218.

[*] ولد الشيخ عبد الحميد بن باديس سنة 1898 بقسنطينة من عائلة تنتمي إلى الطبقة الوسطى، وقد حصل تعليمه الابتدائي بمدرسة قرآنية على يد الشيخ محمد بن المداسي، كما درس العلوم الإسلامية على يد الشيخ حمدان بن الونيسي، دخل جامع الزيتونة بتونس حيث حصل على شهادة التحصيل سنة 1912، وعشية الحرب العالمية الأولى غادر قسنطينة مرة أخرى إلى تونس، حيث قضى جزء من الوقت كمدرس بجامع الزيتونة. ثم واصل طريقه إلى الحجاز، وهناك زار أستاذه بن الونيسي، وفي طريق عودته من الحجاز استقبل بحفاوة كبير من شيخ الأزهر محمد الخضر حسين الذي يقال أنه قد أجازه، وقد توفي سنة 1940.(أنظر أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، ج2، ص 414).

مدروسة إلى جانب إخوانه العلماء الذين انضموا إليه في المساجد وإنشاء صحافة خاصة تحمل رسالة هذه الدعوة إلى أبعد مدى، وبعد ذلك تأسيس النوادي التي يلتقي فيها الجميع من أفراد الشعب على اختلاف مستوياتهم وطبقاتهم؛ مما أحدث نهضة تعليمية وفكرية وعلمية وصحفية ساهمت في تشكيل وعي سياسي، اجتماعي جديد لدى الجزائريين، وتفعيل الحركة الوطنية عن طريق الانضمام إلى عدة مساع سياسية إلى جانب اتجاهات وطنية أخرى[1].

يليه الشيخ محمد البشير الإبراهيمي[*] الذي كان على درجة عالية من المهارة في العلوم الدينية واللسانية والعقلية. ويتميز عن زملائه العلماء بالدور الهام الذي لعبه في النهضة العربية خاصة في ميدان التعليم أثناء إقامته بسورية.ولما رجع إلى الجزائر أنشأ بمسقط رأسه "رأس الوادي" مسجدا جامعا، تولى الخطابة فيه؛ مما جعله يتعرض لمضايقة الاستعمار. وبعد نشاطاته بسطيف انتقل إلى تلمسان ويؤسس هناك في سنة 1937 مدرسة دار الحديث التي كانت مركزا علميا ذا إشعاع كبير على المنطقة برمتها. وأحدث في المدينة إلى جانب كامل المنطقة الغربية التي كان يتجول فيها بانتظام نهضة دينية ووطنية شاملة.

وقد كان من مؤسسي جمعية العلماء وأوائل الداعين لها وانتخب كنائب لرئيسها. وعند وفاة الشيخ بن باديس في 1940 انتخب رئيسا لها. ذاق مرارة النفي بمدينة " آفلو" من أوائل الحرب العالمية الثانية إلى سنة 1943 والاعتقال بالسجن العسكري بباب الوادي في أعقاب أحداث 8 ماي 1945. لكنه، رحمه الله، لم يهن أو يستسلم وبقي صامدا وعند إطلاق سراحه عاد إلى العمل الوطني، أنشط ما يكون في جمعية العلماء،في ميادين عدة، وخاصة في ميدان الصحافة بإشرافه على جريدة البصائر سنة 1947، كذلك شارك مع

---

[1] أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ج3، ص 87.

[*] ولد سنة 1889، بمنطقة أولاد براهم ولاية سطيف، حيث تلقى تعليمه الابتدائي، وفي 1912 هاجر إلى الحجاز حيث درس وقوى معارفه وأصبح من المدرسين، ثم عاد إلى سوريا حيث استقر ودرس على يديه تلاميذ، وبعد عودته إلى الجزائر بدأ ينشر مبادئ الحركة الإصلاحية بمنطقة سطيف. توفي سنة 1965 بالجزائر.

زملائه في تنظيم الوحدة الوطنية بالإضافة إلى الميادين الأخرى العلمية والاجتماعية والسياسية والثقافية.

وعند انفجار الثورة أيدها كل التأييد وهو مقيم بالقاهرة، حيث وجه نداء إلى الأمة الجزائرية دعاها إلى وجوب الجهاد المسلح في صفوف جيش التحرير الوطني، ولقي نداءه استجابة واسعة بانضمام العلماء إلي الثورة، أفرادا وجماعات، ومن ثم أدوا ما يفرضه عليهم الواجب الوطني.

أما الشيخ الطيب العقبي[*]، فإنه كان من الأركان الأساسية لجمعية العلماء قبل سنة 1938 بفضل قدراته المتميزة في الشعر والكتابة والصحافة والخطابة ونظريات الإصلاح.عند عودته من الحجاز في بداية العشرينيات من القرن العشرين، استقر ببسكرة مدعما بشائر النهضة الفكرية العربية الإسلامية التي برز فيها خاصة؛ من خلال الدروس والمحاضرات وكذلك بمقالات وقصائد ذات مستوى رفيع، نشرها في عدة جرائد كالمنتقد، الشهاب، صدى الصحراء، ثم جريدة الإصلاح التي أسسها عام 1927.

هاجم العقبي الطرقيين بشدة، كما هاجم أصحاب البدع منتهجا نهج السلفيين. على إثر ذلك انتقل إلى الجزائر العاصمة حيث أصبح محاضرا بنادي الترقي ومدرسا بالجامع الكبير محدثا آثارا مهمة في أوساط مستمعيه، الأمر الذي جعل إدارة الاستعمار تتدخل لتوقيفه عن النشاط إلى جانب زملائه العلماء. وعند تأسيس جمعية العلماء ظهر العقبي كأحد أبرز أعضائها، وممثليها في منطقة الوسط. تأثر العقبي باتهام السلطات الفرنسية له بتدبير مقتل المفتي الشيخ محمود بن كحول، وقضائه مدة في السجن، خرج منها بريئا ومع ذلك تأثرت أعصابه وجعلته يميل إلى المطالب والضغوطات الاستعمارية ويبتعد عن مواقف زملائه السابقين في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. فاستقال من الجمعية في صائفة 1938 وعاكس موقفها عندما أيد فرنسا خلال الحرب العالمية الثانية وكذلك دعم الطرقيين مصانعا وممالئا للإدارة الاستعمارية في الفترة الأخيرة من حياته[1].

---

[*] ولد الشيخ الطيب العقبي بحل أحمر خدو بولاية بسكرة سنة 1890، ثم سافر مع أسرته إلى الحجاز ودرس فيها. وبعد الحرب العالمية الأولى عاد إلى الجزائر ليساهم بقوة في تأسيس الحركة الإصلاحية وتطورها. توفي سنة 1961.

[1] أحمد حماني: المرجع السابق، ص173.

ومن معاصري مبارك الميلي أيضا شأن الشيخ العربي التبسي[*] الذي اشتغل بالتعليم مباشرة بعد انتهائه من تحيصيل العلم في مسقط رأسه بتبسة لعدة سنوات ثم انتقل إلى مدينة سيق غرب البلاد لممارسة نفس النشاط قبل أن يعود جامعا بين رسالتين: رسالة التعليم والوعظ. وبالإضافة إلى ما تخرج على يديه من عشرات الرجال المكونين تكوينا جيدا فقد كان عالما محققا حتى ولو لم يترك وراءه آثارا علمية لانشغاله بتربية النشأ ومع ذلك كان كاتبا كبيرا يمتاز أسلوبه العلمي بالعمق والمتانة ودقة المعلومات[1]. احتل مناصب قيادية في جمعية العلماء منها: رئاسته لمعهد عبد الحميد بن باديس بقسنطينة ثم إشرافه على تسيير جمعية العلماء بالنيابة عن رئيسها محمد البشير الإبراهيمي الذي سافر إلى المشرق في شهر مارس 1952. وقد تحمل تلك المسؤوليات كلها بكل اقتدار وكفاءة نادرة في ظل مضايقات الاستعمار[2]. وعند اندلاع ثورة أول نوفمبر المباركة في سنة 1954 كان له موقف مشرف جلب له غضب الاستعمار،واستثار حفيظته، وهو الذي سلط عليه صنوف الاعتقال والسجن والنفي وانتهى به الأمر إلى الاستشهاد رحمه الله، في معركة الجزائر عندما اختطف من داره يوم الرابع من شهر أفريل 1957 و لم يظهر أي أثر له بعد ذلك، وكان من جملة شهداء ثورة التحرير المجيدة، ضمن كوكبة متلألئة وفيرة العدد من أبناء جمعية العلماء ورجال الإصلاح الإسلامي في هذا القطر الإسلامي المكين.

ومن الإصلاحيين المعاصرين للشيخ مبارك الميلي أيضا محمد الأمين لعمودي[**] الذي يعتبر حصيلة التراكم الثقافتين العربية والفرنسية، وغلبت على شخصيته الجوانب العملية، وعبر بشكل أمين عن تيار الحركة الإصلاحية في جانبها السياسي والحركي، ويصنفه بعض

---

[*] هو الشهيد العربي التبسي أحد علماء وأقطاب جمعية العلماء. ولد بتبسة سنة 1892، واستشهد على يد الجلادين الفرنسيين في 4 أفريل 1957.

[1] أحمد حماني: المرجع السابق، ص55-57.

[2] نفسه، ص283

[**] ولد بمنطقة وادي سوف بالجنوب الجزائري عام 1890، تعلم في البداية بالكتاب القرآني ودخل مدرسة التعليم العام سنة 1902 (حسب السجل)، ثم التحق بالمدرسة الفرانكو -إسلامية بمدينة قسنطينة ذات التعليم المزدوج العربي الفرنسي، وبعد تخرجه التحق بمهنة وكيل شرعي بفج مزالة ثم عين المناء، وانتهى به المقام بمدينة بسكرة كوكيل شرعي، توفي سنة 1957. (أنظر نور الدين ثنيو، المرجع السابق).

الباحثين الناطق باسم المذهب السياسي الثقافي للحركة الإصلاحية[1]. ولقد مكنته مهنة القضاء الدنو أكثر من عالم الأهالي المسلمين والإطلاع على خصوماتهم وقضاياهم، وهذا ما ساعده على إدراك وصبر أغوار المجتمع الأهلي في ظروفه الصعبة، ويعتبر من الكتاب الذين عبروا عن حالة المجتمع الجزائري في شخصه إذ يقول في قصيدة "نار عصية التلهاب":

في قسنطينة قضيت شبابي في عناء ومحنة وعذاب
وخطوب تحل بعد خطوب ومصاب يجيء بعد مصاب

وبدأ الكتابة الصحفية في صحف عربية كانت تصدر في منطقة بسكرة في النصف الثاني من العشرينات، وفي الصحف الإصلاحية الأخرى، حيث هاجم الطرقية والطرقيين بشكل عنيف إلى جانب الميلي، وقد تميزت كتاباته بوضوح أفكاره التي استمدها من الواقع والتي نالت اهتمام الكتاب والشخصيات المعنية بقضايا الأهالي من الفرنسيين والمسلمين على حد السواء. وكان من الفاعلين في تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وخاصة التمهيد لها على صفحات الجرائد والتحضير لإطارها القانوني والإداري، وكاتبها العام إلى غاية سنة 1935. وقد خاض تجربة الصحافة الإصلاحية بإصداره جريدة "الدفاع" LA « DEFENSE باللغة الفرنسية، وهي صحيفة إصلاحية تعتبر من المنابر التي بلّغت فكرة ومبادئ الحركة الإصلاحية إلى الرأي العام بالفرنسية.

أما الشيخ محمد السعيد الزاهري[*] فقد كان أحد الأدباء اللامعين النابغين الذي ساهم بحيوية في حركة النهضة الجزائرية إلى جانب علماء الإصلاح, و هذا بالكتابة في جرائد هذه الحركة ومنها: المنتقد، الشهاب، البصائر....و بجرائد أخرى مثل: صدى الصحراء، الإصلاح، البرق، الجزائر...امتاز بلهجته العنيفة في مواجهة خصومه وقد أدى عدم تجديد انتخابه في الهياكل القيادية لجمعية العلماء سنة 1936 إلى التحول ضدهم، وأصبح يظهر لهم العداوة والبغضاء، و لم يكتف بذلك، بل أعلن الحرب والعدوان ضدهم

---

(1) نور الدين ثنيو: قضايا الحركة الإصلاحية عند رابح الزناتي ومحمد الأمين العمودي خلال الثلاثينات، رسالة ماجستير، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية سنة 1997/1996.ص 15

(*) ولد بليانة قرب بسكرة، تخرج من جامع الزيتونة وناضل في صفوف الحركة الإصلاحية، ثم غير موقفه حيث أصبح مسايرا للاستعمار مما أدى إلى الحكم عليه بالإعدام سنة 1956.

عبر صفحات الصحف الخاصة التي أنشأها مثل: الوفاق، النجاح، البلاغ الجزائري، المغرب العربي. وزاد في درجة خصومة الذين كان يناوؤهم بالأمس وكذلك وقف في جملة مواقف سياسية إلى جانب الاستعمار وضد ثورة نوفمبر التي حكمت عليه بالإعدام.

على العكس من الزاهري الذي عرف مساره النضالي انقلابا بخروجه من حركة الإصلاح وانضمامه إلى خصومها الذين ناصبوها العداء من الطرقيين وخصوم الإصلاحيين عموما، كان محمد العيد آل خليفة مثالا للالتزام بمبادئ العمل الإصلاحي الذي خدمه أساسا بممارسة التعليم بما استفاد منه من جامع الزيتونة في بداية عمله ببسكرة، ثم الجزائر العاصمة التي أسندت إليه فيها مدرسة الشبيبة الإسلامية. وقضى فترة الحرب العالمية الثانية منتقلا بين بسكرة وباتنة منشغلا بالتعليم والإدارة. وخلال الفترة السابقة لم يقتصر نشاطه على تكوين الرجال، بل تعداه إلى الكتابة في الصحف للمساهمة مع إخوانه العلماء في المعركة التي يخوضونها خاصة عن طريق قرض الشعر الذي كان له فيه قصائد عصماء نشرها في أبرز الصحف الصادرة آنذاك مثل: المنتقد الشهاب، صدى الصحراء، الإصلاح...

عند اندلاع ثورة التحرير، تضايق الاستعمار من عمل محمد العيد آل خليفة فاعتقله لعدة شهور سنة 1955 بسجن قسنطينة، ثم وضع تحت الإقامة الجبرية ببسكرة إلى غاية الاستقلال(*). وآثاره الأدبية موضوع بحوث ودراسات وملتقيات.

أما الشيخ محمد خير الدين(**) فقد اعتبر أحد أبرز علماء الإصلاح الذين لعبوا دورا أساسيا في ظهور جمعية العلماء وتحقيق العمل الجبار الذي قامت بإنجازه متجاوزة كل المصاعب والعراقيل التي وضعتها الإدارة الاستعمارية. وساهم الشيخ خير الدين في جانب من ذلك مساهمة لا يستهان بها بفضل ما تميز به من الذكاء والدهاء والحكمة. اشتغل بالتعليم والتدريس للعامة والخاصة، بفضل ما حصل عليه من علوم ومعارف من جامع الزيتونة، فأسس وأدار بمدينة بسكرة مدرسة الإخاء كما اشترك في تأسيس مدرسة التربية

(*) محمد العيد آل خليفة : ولد بعين البيضاء في 28 أوت 1904، وتوفي بباتنة في جويلية 1979. شاعر الحركة الإصلاحية الوطنية دون منازع.

(**) ولد ببلدة فرفار بضواحي ولاية بسكرة في شهر ديسمبر 1902، زاول دراسته بقسنطينة ثم بتونس. وتوفي في سنة

زيادة على مساهمته في بناء معهد عبد الحميد بن باديس ودار الطلبة بقسنطينة خلال الظروف الصعبة التي مرت بها الجمعية.

بعد وفاة بن باديس، شارك الشيخ خير الدين في الحفاظ على وجود الجمعية بل والتمكين لها وتوسيع دائرة نفوذها، بما تميز به من خصال الدهاء والمرونة والإخلاص.

إلى جانب العمل الكبير الذي قام به الشيخ خير الدين لتجسيد فكرة الجمعية في الواقع، فقد نال حظه من المحنة بتعرضه عدة مرات للاعتقال؛ خاصة في أواخر الحرب العالمية الثانية سنة 1944 ونفي على إثرها إلى بلدة مجانة ثم أثناء حوادث 8 ماي 1945 وضع تحت الإقامة الجبرية[1].

وخلال الثورة التحريرية كانت له اتصالات مع جبهة التحرير في سنتي 1955، 1956 ألمرت تعيينه مندوبا للجبهة ومتحدث باسمها في المغرب الأقصى. و لم يعد إلى الجزائر إلا بعد الاستقلال.

وهناك شخصية أخرى في هذا المجال قامت بدور بارز، ونعني بها شخصية أحمد توفيق المدني[*]، الذي لعب دورا مهما في حركة الإصلاح ضمن جمعية العلماء التي كان أحد المشاركين في تأسيسها وتنظيمها، واشتهر بالبحث في التاريخ الجزائري الذي يعتبر رائده الأول إلى جانب الشيخ مبارك الميلي بتأليف كتاب الجزائر سنة 1931، زيادة على ذلك فقد برز في الخطابة والصحافة والتنظيم. دعم ثورة أول نوفمبر، وعندما اشتد الحصار الاستعماري رحل إلى القاهرة؛ حيث تابع من هناك نضاله السياسي.

أما بالنسبة للمولود بن الصديق الحافظي[**] الكاتب الصحفي، والفقيه، فقد كان من أبرز كتاب الصحف الإصلاحية منذ منتصف العشرينات، وقد تميز بغزارة كتاباته في شتى

---

[1] أحمد حماني: المرجع السابق، ص278، 282.

[*] ولد أحمد توفيق المدني في نوفمبر 1899 بتونس، وكان من رواد الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر، من خلال كتاباته المختلفة في صحف جمعية العلماء وصحف أخرى، أدى دورا بارزا في مجال التثقيف والإعلام. تقلد وزارة التربية الوطنية بعد الإستقلال.

[**] ولد بقرية بوقاعة قرب مدينة سطيف، تعلم بها ثم بالأزهر بمصر، بدأ نشاطه الصحفي سنة 1925،كان من أنصار جمعية العلماء المسلمين الجزائريين حين تأسيسها، ثم أسس جمعية علماء السنة سنة 1932، وتولى رئاسة تحرير جريدة "الإخلاص" لسان حال هذه الجمعية، له مقالات كثيرة في العلم والاجتماع، توفي سنة 1948.

المواضيع الإصلاحية في بداية الأمر، إذ كتب في إصلاح التعليم عشرين مقالة نشرتها أسبوعية الشهاب.

تميز بانفتاحه على التيار الطرقي وعدم معاداته إلى أن التحق بركبهم بصفة رسمية في تأسيس جمعية السنة المناهضة لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وذلك بعد سنة من تأسيس هذه الأخيرة أي سنة 1932. بعد انسحابه منها واختلافه مع مجلسها الإداري، وكانت له مواجهات فكرية وفقهية حادة مع مبارك الميلي سيأتي ذكرها في موقف هذا الأخير من بعض علماء عصره.

ومن أشهر رواد الإصلاح أبو يعلى الزواوي(*) الذي عاد إلى الجزائر من الشام بعد الحرب العالمية الأولى بقلب يفيض حماسا وغيرة على الإسلام. حارب الخرافات والبدع في كتاباته، كما اشتغل بالتعليم والوعظ. وقد عين إماما رسميا في جامع سيدي رمضان بالجزائر العاصمة، حيث كان يأسر الناس ببلاغته وعلمه، ويعتبر من أبرز أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

اشتهر بحفظه القرآن حفظا جيدا، وغزارة علمه في الفقه، ومن آثاره المطبوعة "الإسلام الصحيح، جماعة المسلمين، ديوان الخطب"، ومن مخطوطاته تاريخ قبائل منطقة زواوة. كما له مقالات عديدة في الشهاب، البلاغ الجزائري، النهضة التونسية و البصائر.

وقد كانت له مواجهات علمية وفكرية مع مبارك الميلي حول إصلاح التعليم الديني بالزوايا، وقد كان في نظر الميلي من المتعاطفين مع الطرقيين العلويين، لكنه تصالح فيما بعد مع الميلي وأصبح من أبرز كتاب البصائر[1].

وإذا كان الأستاذ أبو القاسم سعد الله، يرى أن الحركة الإصلاحية في الجزائر لا يمكن أن تفهم أو تقدر دون الإشارة إلى شخصية أحمد بن عليوة(**) فإن التعريف به يعد من مقتضيات هذا البحث لكونه خصما أساسيا في مواجهات الشيخ مبارك الميلي للطرقية كما

(*) ولد بمدينة عزازقة (القبائل الكبرى) في سنة 1878، وقد نزحت عائلته إلى الشام، وهنالك نشأ وتعلم، عاد إلى الجزائر بعد الحرب العالمية الأولى، اشتغل بالتعليم والوعظ، توفي سنة 1952

(1) أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج2، ص417.

(**) ولد في مدينة مستغانم في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، وتوفي بها في جويلية 1934م.

سنرى في الفصل الموالي، وقد ولد أحمد مصطفى بن عليوة في مدينة مستغانم (موطن السونسيين) وتلقى تعليمه الديني على يد أستاذه الشيخ بوزيد الذي كان ينتمي إلى الطريقة الدرقاوية. هاجر بن عليوة إلى الشرق الأدنى وقام برحلات في عدد من البلدان دامت عشر سنوات، وعاد إلى الجزائر بعد الحرب العالمية الأولى، وقد انفصل عن الزاوية الدرقاوية وأنشأ زاوية خاصة به والتي عرفت بالزاوية العليوية التي كانت لها فروع خارج الجزائر. وقد كان يتعاطى الكتابة الصحفية ويلقي محاضرات توجيهية وينظم الشعر، ويكتب الفلسفة والدين. إلا أن العلماء كانوا يرون أنه أمي وأن كل ما كتبه من إنشاء أتباعه. ويقول الأستاذ أبو القاسم سعد الله أنه كان مؤمنا بفكرة الجامعة الإسلامية تحت غطاء جزائري، وبدلا من طرح مذهبه خلال منظمة اجتماعية كما فعل الإصلاحيون فإنه كان يمارس طقوسا غامضة ودرجات كهنوتية[1].

والحق أن بن عليوة له مذهبه الخاص في فهم الإسلام يصفه العلماء بأنه من أصحاب القول بالحلول ووحدة الوجود. وذلك من أشد ما أنكر على العليويين وشيخهم ووقع من أجله الصدام بينهم وبين خصومهم وسالت فيه أودية من الحبر في الصحف والكتب والمجلات. ويقول أحمد حماني أن بن عليوة لم يكتفي بالأساليب العادية لدى مشايخ الطرقيين بل كان يقيم حلقات الذكر تدعى (الحضرة) وكذلك اتخاذه الخلوة، كما أسس فرقة للدعاة المتجولين تعقد اجتماعات تتخذ القرارات[2].

والحضرة هي عبادة الله بالرقص، أما الخلوة فهي بيت يدخله من مريديه، ومكتوب عليه "الله، وهذه الاعتقادات والممارسات وغيرها هي التي كانت سببا في محاربة المصلحين لهذه الطريقة وتطورت المواجهة بينهما إلى ما عرف بحادثة محاولة اغتيال بن باديس والتي سنتعرض لها في مواقف شيخ مبارك الميلي من الطرقية.

لقد قصدنا من هذا التقديم الموجز لرواد وقادة الحركة الإصلاحية في الجزائر المعاصرين للشيخ مبارك الميلي لكي لا يفهم وأن هذا الأخير كان لوحده في الميدان

---

(1) نفسه، ص419.

(2) أحمد حماني: المرجع السابق، ج1، ص 163 وما بعدها.

الإصلاحي، ولكي نفهم بعض خصوصيات جهوده في العمل الإصلاحي مقارنة هؤلاء كما أشرنا إلى أبرز خصم للحركة الإصلاحية باسم الدين والذي كان يمثل رأيا قويا مدعوما بالاستعمار، والمتمثل في حركة بن عليوة التي كانت ترى أنه يمكن محاربة الاستعمار الفرنسية بالطرقية وهذا اعتقاد خاطئ أثبتته وقائع ومواقف مختلف الأطراف من الاستعمار الفرنسي في العشرينات والثلاثينات بالخصوص.

وفاتـــه وأصداؤها :

رحل المصلح مبارك الميلي في الأربعينيات من العمر، وفي قمة عطائه العلمي والفكري وذلك بعد أن أضناه الكلل من مرض السكر الذي أصابه مباشرة بعد خروجه من الأغواط واستفحل أمره حتى استحال إلى عدة أمراض أخرى أخبثها مرض السرطان الذي كان يؤلمه كثيرا وقد قاومهما وعالجهما حتى إعياء الأطباء[1]، ولشدة المرض وتأثيره على قواه الصحية فقد ألزمته الجمعية السفر إلى فرنسا للعلاج، وذلك عام 1938. إذ كتب الميلي يقول : "شاءت الأقدار أن نركب الأسفار ونجتاز من إفريقيا إلى أوربا لا لتجارة ومغنم ولكن لاسترجاع لقوة أذابها الداء واستجماع لنشاط عجز عن أداء الواجب نحو الدين الشعب فذهبنا أواخر ربيع الأول (شهر ماي) إلى "فيشي" وها نحن في الأسبوع الثاني من ربيع الثاني (جوان) وقد بدت علينا طلائع الراحة والعافية والحمد لله"[2]، وهنا يبين الميلي أحقية الدين والوطن عليه. ويسعى لتحسين حالته الصحية بالسفر خارج الوطن لاستجماع قواه لمواصلة مشواره الإصلاحي.

وفي شهادات أخرى منه نلمس عفة الميلي وأنفته في استغلال منصبه في وسط الجمعية التي ألزمته بالسفر في قوله : "فأما اشتداد المرض فهو في سنة 1936، بعد جولة كلفتني الجمعية بها ورأى من رأى من رجالها أن تعينني على العلاج فطلب ذلك وقرر و لم أعلم لا بالطلب ولا بالقرار إلا بعد حين، فلما علمت أنكرت"[3].

---

[1] عبد الحفيظ الجنان: البصائر : المرجع السابق.

[2] مبارك الميلي: الصراط : عدد 119، جوان 1938، ص2.

[3] مبارك الميلي، الصراط، عدد 144، ماي 1938، ص3.

وقد تطورت حالته الصحية في مطلع الأربعينات، ويذكر الشيخ أحمد حماني رحمه الله اليوم الأخير من حياة مبارك الميلي في هذه الدنيا قائلا : "وفي يوم 8 فبراير 1945 دخلت إلى مدرسة التربية والتعليم بقسنطينة فوجدت الدكتور بن الموفق رحمه الله نازلا في درجها ويكاد دمعه يسيل، فصعدت مسرعا ودخلت الإدارة حيث يوجد الشيخ مبارك فوجدته ملقى على جنبه يكاد لا يتحرك فاقتربت منه وسلمت عليه، فنظر إلى ومد يده نحوي بضعف وقال سامحني... فأخذ إلى ميلة في غيبوبة ومن الغد يوم 09 فبراير تلقيت مكالمة من إدارة البريد من قسنطينة أخبرت بخبر وفاة الشيخ مبارك... ثم بعد قليل رن جرس الهاتف فإذا بالذي يتكلم هو الكابتان "دو" الضابط المدير للشؤون الإسلامية بالولاية يتساءل أحقا أن الشيخ مبارك مات؟"[1].

يتضح من هذه الشهادات أن الرجل كان محل اهتمام الأصدقاء كما كان محل اهتمام الأعداء، فإذا كان الدكتور بن الموفق ذهب لمعاينة الشيخ وفحصه والشيخ أحمد حماني ليطمئن عليه ويتأكد من شفائه أو مرضه باعتباره ركنا ركينا في صرح الحركة الإصلاحية التي تقودها جمعية العلماء، فإن سؤال الكابتان الفرنسي مدير الشؤون الأهلية الإسلامية لم يكن سوى من أجل التأكد من صحة الخبر، لأن وفاة الشيخ بالنسبة للفرنسيين هو سقوط أحد أقطاب النهضة الوطنية التي كانت تؤرق المسؤولين الفرنسيين في الجزائر منذ بزوغ فجرها في مطالع القرن العشرين.

أما جريدة النجاح اليومية التي كانت تصدر بقسنطينة فتصف تشييع جنازة الشيخ مبارك في ما نشرته بقولها [2] :

قبيل زوال يوم الجمعة 09 فبراير سنة 1945 بمقبرة ميلة سار إلى رحمة الله العلامة المؤرخ الأستاذ مبارك بن محمد الميلي كاهية رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين إثر مرض لازمه شهورا وعن سن ناهزت 48 عاما وما كاد خبر نعيه ينشر في أكبر بلدان العمالة (الولاية) حتى هرعت لتشييع جنازته وفود مثيرة وصلى على جثمانه بالجامع الشيخ

---

[1] أحمد حماني : المرجع السابق، ص18

[2] جريدة النجاح، عدد 939، الثلاثاء 29 صفر 1364 هـ/ 13 فيفري 1945. تحت عنوان جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تفقد كاهية رئيسها العلامة المؤرخ الأستاذ مبارك بن محمد الميلي.

العربي التبسي الذي أبنه وعدد محاسنه. وحسب نفس المصدر فقد حضر الجنازة عدد هام من العلماء، ورثاه بالمقبرة السادة الشيخ عبد القادر بن ياجور والشيخ الجيلالي، ومسيو فلويس (نائب بلدي) والسيد فرحات عباس باسم الهيئات الوطنية، ويضيف المصدر أن سيارة الأستاذ الإبراهيمي والشيخ خير الدين وفرحات الدراجي وعبد العزيز الهاشمي وصلت ميلة في الساعة العاشرة ليلا وفي اليوم التالي توجه الوفد مع سائر سكان البلدة إلى ضريح الفقيد وهناك أبنه الأستاذ البشير الإبراهيمي بخطاب نفيس أثر في نفوس الحاضرين تأثيرا عميقا، ومما جاء في قوله: "وفقدته جمعية العلماء ففقدت ركنا بادخا من أركانها لا كلا ولا وكلا، بل راضيا بالعبء، مطلعا بما حمل من واجب لا تؤتى الجمعية من الثغر الذي تكل إليه سوء ولا تخشى الخصم الذي تسند إليه مرسه، وفقدت بفقده عالما كانت تستضيء برأيه في المشكلات فلا يرى الرأي في معضلة إلا جاء مثل فلق الصبح".

ويوجد قبره البسيط بجانب شيخه الميلي بعيدا عن كل أبهة كما هي السنة وكما هي إرادته ومذهبه.

وقد تأثر لوفاته شباب من طلاب الحركة الإصلاحية والدارسين بجامع الزيتونة بتونس، فألقى الشاعر الناشئ الأزهر بن بلقاسم الجزائري قصيدة مطولة في الحفل الذي أقامته جمعية الإخوان الزيتونيين، عنوانها : الله أكبر إن الخطب قد عظم، ومما جاء فيها :

(مبارك) باركت بحسن طلعته ... أرض الجزائر والشمل والتهم

غير البكاء أحق لو نبصره ... من قلبه نشأة الرمم

ففاض علينا من مباحثه ... من الجمان عقود الضر منتظم

إن شئت تقرأ من آثاره قصصا ... تاريخه الغر يشفيك من السقم

(أو الرسالة) حكم الشرك ضنتها ... لله ذره كم أسدى من النغم

طوبا لمن بهدى الإسلام بشرنـــا وأنذر القوم من بلى ومن نقم
جزاك ربك ما ترجوه من نعـــم يوم الجزاء ويوم الوعد والكرم
فنم هنيئا أخ العليـــاء في دعـــة ورحمة الله تغشاكم مدى الأمم

في ذمة الله والتاريخ أجمعـــه مخلد ذكـــركم في سائـــــر الأمم.

وهـــذه الأبيـــات المقتطفـــة مـــن القصيـــدة المطولـــة تبـــين تأثـــير شـــخصية مبارك الميلي في أوساط الشبيبة الإصلاحية الـــتي كـــانت تنـــهل مـــن كتبـــه ومتابعـــة مقالاته التي كانت تعبر عـــن طموحـــات وأمـــاني شـــباب تلـــك الفـــترة في النهضـــة والتقدم، وتعكس مدى وفاء وتقدير شباب تلك الأيـــام للعلمـــاء العـــاملين المخلصـــين ونفحات الإجلال والتكبير في أبيات القصيدة شاهدة علـــى الحـــب والوفـــاء لعـــالم أدى واجبه نحو وطنه أمته.

وشاطره زميله الطالب حسين مهدي في قصيدة عنوانها : "إيه يا راحلا تمهل"، ممـــا جاء فيها :

إيه يا راحلا تمهـــل فـــأني لم نبلل ضمى العقول بزي
لم نكد ننتشي بلحنك حتى عطل الشدو بين دمع سخي
وأريقت كأس السعادة تطفوا بشعـــــاع مرقـــق ذهبـــي
ومشى الحزن ضاربـــا بظلام فوق أفاقـــا بغيـــم دجي
جـــزع مخنق ورعـــب ممضي أي خطب أعظم به من رزي[1]

وهذه الأبيات تنبئ هي الأخرى عن الفاجعة التي أصـــابت هـــذا الطـــالب الـــذي يرى وأن رحيل مبارك الميلـــي كـــان مفاجئـــا وأن عقـــول طـــلاب العلـــم لا تـــزال في ظمأ لعلمه الذي كان بمثابة ألحان عذبة يتذوقونها وقد عطلت الدمـــوع الـــتي ذرفـــت حزنا على رحيله تلك الألحان وخيم الحـــزن كليـــل في آفـــاق طـــلاب العلـــم، الذيـــن

[1] المحلة الزيتونية، المرجع نفسه، عن ص278، 279.

جزعوا لذلك الخطب الـــذي أصـــابهم جـــبراء فقدانهـــم لعـــالم لـــه نكهتـــه الخاصـــة في نفوسهم.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

خلاصة الفصل:

رغم قساوة حياة مبارك الميلي في طفولته الأولى التي ذاق فيها مرارة اليتم، فإن ذلك لم يقتل فيه الطموح والرضوخ للقدر المحتوم، بل وجد مخرجا في طلب العلم الذي لم يتردد في شد الرحال إلى أي مظن من مظانه، وهو الذي لا مال له. إلى ميلة ثم قسنطينة، وأخيرا تونس حيث أكمل تعليمه النهائي، فعاد بشهادة التطويع.

خلال هذه المراحل أظهر نبوغا وقدرة فائقة على الاستيعاب والذكاء مع إرادة قوية في التحصيل العلمي، وبذلك حاز تقدير أساتذته واحترام زملائه، الأمر الذي أهله في النهاية ليكون من الأوائل ويثبت بجديته وصرامته، أنه مشروع عالم سيستحق على يديه خير كثير للوطن والعمل الإصلاحي لإرساء نهضة جزائرية تعطي دفعة قوية للأعمال المناهضة للوجود الاستعماري.

وقد تجلى ذلك العمل في انخراطه مباشرة في الحياة العملية بعد عودته من تونس عام 1924، فقد عقد العزم على أن يسخر نفسه لبذل جهود كبيرة في الإصلاح، ليساهم مع ثلة من إخوانه الشبان الناهضين لإنقاذ بلادهم من الجهل و التخلف والضلال، مما كانت تنشره الطرقية بمختلف أنواعها ومسمياتها.

جهود المصلح مبارك الميلي برزت بعمله الدؤوب في التربية والتعليم وفي الصحافة والتأليف، وفي تأسيس النوادي والجمعيات، وذلك منذ عام 1925، انطلاقا من قسنطينة ثم الأغواط، والعودة إلى ميلة موطن صباه وأحبائه ليواصل العمل الإصلاحي إلى أن فارق الحياة في صباح التاسع من فيفري 1945 تاركا بجهوده بصمات متميزة في تاريخ الحركة الإصلاحية الجزائرية، رحمه الله. وهذا ما سنكشف عنه في فصول هذا البحث.

* الفصل الثالث *

آراؤه ومواقفـــــه الإصلاحيـــــة

* المبحث الأول : مفهوم الإصلاح ومرجعيته
* المبحث الثاني : مواقفه من الطرقيين والإدارة الاستعمارية
* المبحث الثالث : مكانته ودوره في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين
* المبحث الرابع : آراءه وموقفه من الإندماج والتجنس

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إن مفهوم الإصلاح ليس غريبا عن المفاهيم الإسلامية الراسخة في القرآن والسنة وهذه المصادر هي التي أصلت هذا المفهوم لدى الأمة الإسلامية قديما وحديثا.

ومن النصوص القرآنية التي يكثر تداولها في الأوساط الإصلاحية بالجزائر ما جاء في الآية الكريمة: "إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله"[1].

كما يشيد القرآن كثيرا بذكر المصلحين، فالإصلاح كمفهوم عام مؤصل في القرآن ذاته[2]، ولكن هل كان لمبارك الميلي فهما خاصا ومتميزا للإصلاح من حيث المنهج والوسائل؟ وما هي الجذور الفلسفية والعقدية التي تؤسس لهذا الفهم، وكيف تجلت هذه المرجعية في أعماله الفكرية؟. وبماذا تميز مبارك الميلي في فكره السلفي عن علماء السلفيين القدامى والمحدثين رواد الإصلاح في العالم الإسلامي وما مدى تأثره بأستاذه وزميله الشيخ عبد الحميد بن باديس؟ وما هي آراؤه الفكرية في مسائل تتعلق بالعقيدة؟ وما موقع العقل والنص القرآني في هذه المسألة بالذات عند الميلي، فهل هو مقلد أم مجدد في استخدام النص والعقل في المسائل العقدية؟.

وكيف جابه مبارك الميلي واقع المجتمع الجزائري وما ترتب عنه من ممارسات سلبية كرّست واقعا اجتماعيا سلبيا مثلته الطرقية والزوايا المنحرفة؟.

بالإضافة إلى مواقفه النظرية، كيف كانت مواقفه العملية من قضايا الإصلاح بصفة عامة التي أخذت أبعادا جديدة في الثلاثينات بالخصوص مثل الإدماج والتجنس، المؤتمر الإسلامي[*] والموقف من تأييد فرنسا عشية الحرب العالمية الثانية؟ وكيف تعامل مع العروض الفرنسية بعد وفاة بن باديس؟.

---

[1] السورة: 11، الآية 90.

[2] Ali Merad, Le réformisme musulman en Algérie, Mouton, La Haye, 1967, p30.

[*] يجدر التذكير أن فترة انعقاد المؤتمر الإسلامي (جوان 1936) كان الشيخ مبارك في حالة مرض، وقد انتقل إلى الجزائر العاصمة للعلاج، فلم نعثر له على أي أثر يتعلق بالمؤتمر الإسلامي. وتأكيدا لذلك يقول الشيخ خير الدين في مذكراته: "وبشأن الاستجابة للدعوة التي وجهها الشيخ عبد الحميد بن باديس لأعضاء المكتب للاجتماع من أجل موافقته على اقتراح دعوته للمؤتمر، فقد تمت تلبيتها من طرف أعضاء المكتب الدائم للجمعية عدى الشيخ مبارك الميلي والعربي التبسي، الأول لسبب مرضه والثاني لقيامه بمهمة تخص الجمعية، وقال إننا موافقون على كل ما تقررون." (أنظر مذكرات الشيخ خير الدين، ص327).

وما هو دوره في الجمعية وطبيعة المسؤوليات التي تبوأهـــا؟ وكيـــف كـــانت النتيجة؟ وما موقف زملائه من حصيلة تسييره لمالية الجمعية وجريدتها البصائر؟. هـذا ما سنعرفه في هذا الفصل.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول : مفهوم الإصلاح ومرجعيته

عرف الشيخ مبارك الميلي الإصلاح قائلا: " نبذ الفاسد من العقائد والعوائد، وإرشاد إلى ما هو صالح منها ليؤخذ، وغايته ترقية المجتمع في سلم السعادتين الدنيوية والأخروية[1]". وبذلك فالإصلاح في تفكير مبارك الميلي هو الجهد المبذول في انتقاء ما هو صالح (هكذا بكل إطلاق) وهدفه هو السعادة في الدنيا والآخرة. أما موضوع الإصلاح فهو المجتمع بكل جوانبه وبكل "مناحي الحياة الاجتماعية من دينية، وعلمية واقتصادية وسياسية"؛ وذلك لأن "الحياة الاجتماعية شبيهة بالحياة الفردية؛ من حيث عرض العلل لها، وحاجتها إلى العلاج". غير أن المؤهل للقيام بالإصلاح الاجتماعي- في نظر الميلي- هو مجموعة العلماء والمرشدين الأكفاء. ويرى الميلي أنه يمكن للإصلاح أن يكون موضوع اختصاصات مثله — في ذلك مثل الطب- وذلك باختلاف الميادين التي يهدف إليها الجهد الإصلاحي من فكرية واقتصادية وسياسية، دون أن يؤدي ذلك إلى صراع بين الأطراف القائمة بالإصلاح فيقول في المقال نفسه: "وإذن لا تكون معارضة بين الجماعات القائمة بالإصلاح باختلاف المواضيع : فالمصلح الديني لا يعارض الاقتصادي وهذان لا يعارضان السياسي، كما لا تعارض بين الأطباء المختص بعضهم بالجراحات، وبعضهم بالعيون، وبعضهم بالأسنان..." وهذا ما دام الهدف واحدا وهو " ترقية المجتمع "[2].

ويربط الميلي بين فساد الفكر والعقيدة وبين فساد المجتمع وانحطاطه وتخلفه عن ركب الحضارة قائلا: "الأمة صحيحة العقائد والعبادات تصدر عنها أعمال اجتماعية صالحة "، ولذلك فالإصلاح الدين ضروري للمجتمع الجزائري -خصوصا — الذي " تقدم في دينه فأسرع إلى كل جديد مستحدث من البدع، وتأخر في دنياه، فأخذ بكل قديم بال..."[3] ولا يخفى على الباحث هنا النظرة التهكمية في كتابات الميلي الذي يرى أن كثيرا من فئات المجتمع الجزائري صارت تبتدع في الدين "وتتقدم" في جانب الخرافات والدجل؛ مع أن

---

(1) مبارك الميلي: "الإصلاح وحاجتنا إليه"، الإصلاح، عدد 5، أكتوبر 1929، ص1

(2) نفسه، ص نفسها.

(3) نفسه، ص نفسها.

المفروض هو التقدم في ميدان الثقافة والعلم "والابتداع" في الحضارة.

كما نجد أن هذا المصلح من خلال مقالته هذه يحمل العلماء والزعماء السياسيين معا مسؤولية التصدي للعمل الإصلاحي كل في المجال الذي يتقنه، ذلك أن الإصلاح الديني -حسبه دائما- هو "واجب على من له في المجتمع سيرة دينية من علماء و زعماء: فواجب العلماء الدعاء (الدعوة !) والإرشاد في نزاهة وإخلاص، وواجب الزعماء الانقياد والتأييد والتنفيذ في سلامة صدر وانشراح بال. والتقاعس عن هذا الإصلاح معرة في الدنيا وشقاوة في الأخرى..."[1]. وهنا نلاحظ موقفا جوهريا في فكر الميلي والمتعلق بالعلاقة بين رجل الفكر ورجل السياسة إذ يقرر الميلي أن لكل مهمته في إصلاح المجتمع ويحسم الموقف في ضرورة التزام رجال السياسة بفكر العلماء وتنفيذ أفكارهم وذلك بالطبع في جو من التعاون والتكامل خدمة للمجتمع.

أما فيما يخص الوسائل التي يجب رصدها لخدمة الرسالة الإصلاحية في ذلك العصر، فيرى الميلي أنها متعددة "منها القديم والحديث: فمن وسائله التدريس، فالمدرس يجب أن يكون مصلحا يتلقى المسائل ويطبق منها ما يحتاج إلى التطبيق... ومنها خطب الجمعة، فالخطيب يجب أن يكون مصلحا ينتقي مواضيع الخطابة ويقدم منها ما يراه أمس بإصلاح المصلين، متحريا في ذلك صحيح العلم متفطنا إلى ما يؤثر من لطيف المواعظ. ومن نوع الخطب الجمعية المحاضرات والمسامرات بالتجمعات والنوادي، ومنها النشر والكتابة بالصحف السيارة. فيجب على الكاتب أن يخصص قسطا من قلمه للكتابة الإصلاحية متى كان من أهل المعرفة بالدين "[2].

وللميلي في جانب استخدام وسائل الدعوة والإصلاح طريقة هادئة متزنة ومتدرجة في الإقناع، لا تصدم أولئك المتزمتين المنغلقين الذين يرفضون كل جديد ويتخوفون منه. لذا نجده يبذل جهدا لإقناعهم وخصوصا منهم أصحاب الأقلام السيالة ومن لهم معرفة أصيلة بالدين؛ فيذكرهم أن "الإصلاح الديني بواسطة الصحف السيارة هو من مستحدثات هذه

---

[1] نفسه، ص نفسها.

[2] نفسه، ص نفسها.

العصور، ولكن ليس بدعة في الدين. إذ الكتابة في الصحف أو غيرها من نوع العبادات المحدودة، بل هي من باب الدلالة على الخير..."، كما يرى أن " الصحف الإصلاحية هي أهم وسائل الإصلاح وأعمها فائدة، لأن الكاتب يفكر في كتابته وينقحها ثم يقدمها للجمهور، بخلاف المدرس – مثلا – فهو أقل عناية بدرسه من الكاتب ثم هو يقدمه لطائفة قليلة". كما أن من فضائل الصحافة أن " الكتابة تبقى محفوظة ". والملاحظ من خلال قراءتنا أن الميلي يتمتع بقدرة كبيرة على الجمع بين عقيدة التوحيد وبين فكرة الإصلاح، فيرى أن "هذا الدين جاء بالتوحيد والاتحاد؛ فالواجب على الكتاب أن يتحدوا، أو يتقاربوا في أسلوب الكتابة العربية من الإنتاج، لأن توحيد الجهود هو القوة التي تقضي على كل ما يعترض سبيل تقدمها"[1].

ويمكننا في نهاية هذا النص الذي اقتبسنا أجزاء منه من جريدة الإصلاح التي كان يديرها الشيخ العقبي عديدا من الملاحظات نوجزها على النحو الآتي :

أ- أن المفهوم الإصلاحي لدى الميلي لا ينحصر في مسائل العقيدة فقط : وإنما يتخطى ذلك إلى قضايا المجتمع الأخرى -وإن كان قد أعطى إصلاح العقيدة الأولوية في ذلك- بل يرى أن الإصلاح لابد أن يكون شاملا يتناول إصلاح عيوب المجتمع وانحرافاته ويتجاوز كل ذلك إلى إصلاح السياسة نفسها وسنرى ذلك عند الحديث عن مرجعيته السلفية.

ب- نلاحظ أن مبارك الميلي يختلف في مجال الإصلاح اختلافا فرعيا مع كل من جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده..."من الواضح أن جمال الدين الأفغاني كان رجل سياسة في المقام الأول وإن لبس ثوب المصلح الديني، ولهذا اتسمت دعوته منذ البداية بالطابع السياسي. أما محمد عبده فقد كان يستعيذ من السياسة ولفظ السياسة بعدما تعرض للسجن ولمضايقات الخديوي وأتباعه، فكان يميل إلى العلم والتربية والتعليم"[2]، وبذلك يكون مبارك الميلي قد حاول أن يوفق بين الاتجاهين السياسي والثقافي على الأقل على

---

[1] المصدر السابق، ن.ص

[2] محمد طهاري: الحركة الإصلاحية في الفكر الاسلامي المعاصر، الكتاب الثالث: الشيخ عبد الحميد ابن باديس، دار الأمة، الجزائر 1999، ص54. وانظر أيضا: عبد الكريم بوصفصاف: مرجع سابق، ص64.

مستوى التنظير فدعوته الإصلاحية, وإن كانت تركز على التربية كوسيلة في عملية التغـــير, فإنها لا تعني بالضرورة انقطاعا وانعزالا عن الواقع بشقيه السياسي والاجتماعي.

وانطلاقا من هذه المقارنة التي هي في الحقيقة مقارنة بـــين مدرســتين إصلاحيتــين مشرقية وجزائرية، هذه الأخيرة التي ينتسب إليها مبارك الميلي من الناحية الفكرية باعتبـــاره من حاملي لواء الفكرة الإصلاحية التي أسسها بن باديس. وليس القصد من هذه المقارنـــة هو اعتبار مبارك الميلي من مؤسسي المدارس الإصلاحية إنما هـــو مـــن تلامـــذة المدرســة الإصلاحية الباديسية وأحد المجددين في بعض وسائلها كما سنرى لاحقا.

غير أن الميلي هاهنا لا يخرج عن المنهج السلفي لمحمد عبده وجمال الديـــن الأفغـــاني ويؤكد ذلك بقوله"إننا ندعو إلى إتباع أسلاف أسلافنا حتى ينتهي إلى صاحب الشريعة عليـه الصلاة والسلام وأيضا لو اشتدت أمتنا في ذلك لكانت وارثه للشدة من إسلامها، ولكـــان أسلافها متوارثين ذلك عن أسلافهم، وهكذا تنتهي إلى السلف الصالح ولولا البدع لكنـــا مثل السلف الصالح في مظاهر حياتنا"[1] ..وحتى في أسلوب الكتابة الصحفية نجد أن الميلـــي يدعو"إلى توحيد الكتابة في العقائد والعبادات، ببيان صحيحها وسقيمها معتمدا في ذلـــك على القرآن كلام رب العالمين وصحيح السنة حديث خاتم المرسلين، وعمل السلف الصـــالح المشهود لهم بالخيرية، وهم الصحابة والتابعون وتابعي التابعين السلف الصالح نعتمد علـــى عمله وعلى فهمه وشرحه وتعديله للرجال وجرحه"[2].

ونلاحظ هنا أن المرجعية السلفية التي كان يدعو إليها الميلي كانت واضحة ســـواء في العقيدة والفكر أو في ممارسته للسياسة الشرعية ضد الاستعمار وأذياله.

يذكر عبد اللطيف عبادة أن زعماء الحركة السلفية في الجزائر عامة والشيخ مبـــارك الميلي خصوصا تأثروا بالحركة السلفية كما ظهرت عبر التاريخ الإسلامي الطويل، و لم يميـــز زعماء الإصلاح في الجزائر بين الحركة السلفية الأشعرية وبين الحركة السلفية الحنبلية، بـــل حاولوا التوفيق بين الطرفين ليكونوا جهة واحدة قوية ضد البدعة. ويرى نفس البـــاحث أن

---

[1] مبارك الميلي: المصدر السابق، ن.ص.

[2] نفسه، ن.ص.

زعماء الإصلاح في الجزائر تمسكوا بمذهب ابن تيمية وتمسكوا أيضا بالمذهب الأشعري، وخصوصا مذهب ابن العربي صاحب كتاب "العواصم من القواصم". (الذي حرص بن باديس على طبعه بالجزائر، وعلى الترجمة لصاحبه) فمذهب الأشاعرة ومذهب الحنابلة في نظر السلفية الجزائرية يناصران السنة وينتصران للسلف وإن اختلفت أساليبهما[1].

وكان تأثر الميلي بأستاذه بن باديس واضحا في توجهه السلفي فاعترف بدوره لأبي بكر بن العربي المالكي بمكانته العلمية واعتمد كثيرا على كتابه "أحكام القرآن" خصوصا في كتابه "الشرك ومظاهره"، وقد دافع عن أفكاره وبعض مواقفه في مناظرة حامية على صفحات الشهاب كما سيأتي لاحقا في موقفه من بعض علماء عصره، كما تأثر بعلماء الأشاعرة غير أنه ينتقد جمود المتأخرين من المتكلمين على استعمال المنطق اليوناني، مما جعلهم يبتعدون عن القرآن[2].

ولا يرى الميلي ضرورة للرجوع إلى علم الكلام إلا في حالة واحدة، وهي ضرورة الدفاع عن العقيدة الإسلامية؛ بل يرى ضرورة الاعتماد أساسا على القرآن الكريم في الاستدلال وذلك بتطهير القلوب والهداية إلى الخير[3].

كما أشاد الميلي بالخدمات الجليلة التي قدمها أئمة الأشاعرة إلى الفكر الإسلامي الأشعري أمثال: الباقلاني والاسفرائيني، والقشيري، والفخر الرازي، وبن العربي...

وتوقف في رسالته حول الشرك ومظاهره خصوصا عند مفهوم الكرامة لدى الأشاعرة [4] وهذا يدل —في نظرنا- على سعة إطلاع الميلي على فكر الحركة السلفية، كما يلاحظ لديه أنه كان يسعى إلى استثمار كل ما أنتجته هذه الحركة بشقيها الحنبلي والأشعري، وكان هدفه من كل ذلك هو استخراج أدلة فكرية لمواجهة دعاة الشرك الملحدين... فاستفاد الميلي من السلفية في دعوتها إلى التوحيد النقي من جميع الشوائب،

---

(1) عبد اللطيف عبادة: "فلسفة مبارك الميلي السلفية"، محاضرة قدمت إلى "الملتقى الدولي، تحت عنوان: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها في النهضة الثقافية والسياسية"، تضم أيام: 16، 17، 18 أفريل 1989، معهد العلوم الاجتماعية، جامعة منتوري قسنطينة.

(2) مبارك الميلي: رسالة الشرك ومظاهره، ط3، دار البعث، قسنطينة، 1982. ص ص: 120، 121.

(3) نفسه، ص22.

(4) نفسه، ص ص : 120، 121.

وحرص على توضيح كون الفكر السلفي قد أنكر البدع وانتصر للسنة منذ عصر النبوة إلى أيامه تلك (أيام الميلي) دون فتور ولا انقطاع[1].

ونلاحظ الاتجاه الفكري السلفي لدى الميلي أيضا في تقديمه النص على العقل وفي رفضه للتأويل المخالف للقرآن والسنة وتقديمه البراهين والدلائل القرآنية للبراهين المأخوذة من علم الكلام والمعتمدة على المنطق اليوناني، غير أن هذا النهج يجب أن لا يقودنا إلى تصور أن الميلي يرفض الفلسفة "التفلسف" رفضا مطلقا، بل إنه يرى التفلسف في جوهره تأمل في هذه الحياة، والقرآن الكريم نفسه يأمر بذلك كما يوضح الغزالي في الأحياء"[2]، وأهم موضوعات الميلي في هذا الإطار السلفي هو تصحيح العقيدة الإسلامية من الشوائب التي علقت بها عبر الأجيال، ويبدأ الميلي في هذا الصدد بطريقة هي أقرب إلى المنطق والفطرة والطبائع السليمة، فيعرف الإله بقوله : "إذا كانت العبادة هي الانقياد والخضوع على وجه التقرب، فإن الإله هو المقصود بتلك العبادة. فمن قصرها على الله فقد وحده وعبده عبادة شرعية، ومن وجد هذا المعنى في نفسه لغير الله تعالى فقد اتخذ ذلك الغير إلها، وكانت عبادته شركية، سواء سماها إلها أو لم يسمه إلها"[3].

كما يركز الميلي اهتمامه على موضوع السببية، فيصل إلى الإقرار بأن لكل شيء سببا، وانتهى به الأمر إلى "الشعور بقوة غيبية تعلو على الأسباب وتستغني عنها، ونفتقر نحن إليها في تسيير الأسباب لتسيير الأعمال". واتضح له أن مصدر تلك القوة الغيبية خاصة بالله تعالى، بعد أن أظهر مقومات الإيمان، واستدل على صحة ما وصل إليه بقوله عز وجل: "يا أيها الناس انتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد"[4].

وسلك الميلي طريقة القرآن المكي، في الربط بين العلم بالله والحركية، والإدراكية، الإعتمادية القولية والعملية. فالعبادة في نظره لابد فيها من معرفة الله، والرجوع إليه والتذلل لديه والافتقار إليه. ويحرص الميلي على الابتعاد قدر الإمكان عن الطريقة الكلامية التي لا

---

(1) نفسه، ص54.

(2) أنظر: الاحياء للغزالي :دار المعارف/ بيروت، لبنان، ص 120 ــ121

(3) مبارك الميلي: المصدر السابق، ص85.

(4) سورة: 35 الآية: 15.

توصل سوى إلى نتائج حول معرفة الله والإقرار بوجوده، ذلك أن العبادة في نظره "غاية الخضوع، ولا تستحق إلا بغاية الإنعام، ولا تكون العبادة إلا مع المعرفة بالمعبود"[1].

ويرجع الميلي إلى موضوع عقدي له علاقة وطيدة مع السلوك اليومي للإنسان إذ أن الميلي يفكر كثيرا في هذه الحياة، كان يطرح على نفسه تساؤلات مثل : هل نقابل ما يصادفنا في هذه الحياة من مصائب ونكبات بالتشاؤم، كما قال المعري؟ أم نقابلها بالتفاؤل الذي تقتضيه حقيقة الإيمان بالله؟. وهنا يذكر الميلي بما ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم: أنه "كان يعجبه الفأل لأن التشاؤم سوء ظن بالله تعالى بغير سبب محقق، والتفاؤل حسن ظن به. والمؤمن مأمور بحسن الظن بالله تعالى على كل حال"[2]. ويبين الميلي أن التطير وأخذ الفال من المصحف حرام[*] واعتمد على كتاب "فتح الباري" لابن حجر العسقلاني، الذي أورد نصوصا نبوية تنهي عن التشاؤم، وانتقد الميلي فلسفة المعري التشاؤمية، ورأى أنها تتعارض مع إيمانه بالله تعالى الذي يدفع إلى التفاؤل. وقد عارض بن تيمية من قبله المعري وصنفه ضمن "القدرية الإبليسية"[3].

والحق أن الشيخ مبارك الميلي يوافق في فكرية السببية ومقاومة الجبرية القدرية، وفي رفض التقليد والتشاؤم، والإيمان بالأمل والتفاؤل شيخه عبد الحميد بن باديس. ولكن هذا النوع من التفاؤل ليس ساذجا إنما مبني على أساس وركائز عملية قوامها اليقين والرجاء في الله.

ولعل أهم ما يجب الإشارة إليه ونحن بصدد الحديث عن الحركة الإصلاحية الإسلامية بالجزائر، أن المرجعية السلفية النقية لهذه الحركة أحيت الفكر النقدي في نفوس وعقول وقلوب اتباعها، وأعلنت ثورة عارمة على الجمود والتقليد الأعمى والاستسلام لشيوخ الطرق الجهلة، وفي هذا الإطار يمكن أن ندرج فكر الميلي الذي ظل يدعو إلى حسن

---

(1) مبارك الميلي:المصدر السابق، ص ص: 82،83.

(2) نفسه، ص142.

(*) هذه العادة لا تزال متداولة عندنا إلى اليوم بحيث يأخذ إنسان متردد حول موضوع معين المصحف الشريف ويفتحه بطريقة عشوائية ليقرأ ما تقع عليه عينه من الآيات ويعرف بذلك بخته كما يزعمون.

(3) مجموع فتاوي شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، ج2، ص ص : 66،67.

استعمال الحس النقدي في أوساط الأمة، ويوضح أن العلماء هم الذين يتولون تربية هـــذه الحاسة لدى العامة.

وقد سبق وأن وضحنا عند تحديدنا لمفهوم الإصلاح عند الميلي، أن هذا الأخير يـــرى أن العلماء هم الذين يقومون بنشر نهج السلف الصالح الذين حثوا الأمة ودعوهـــا إلى مـــا حثها عليه ودعاها إليه القرآن والسنة لتعليم الأصلين، واتباعهما وتحكيمهما عنـــد الـــتراع والتحذير من مخالفتهما وارتكاب ما أنكراه على من تقدمنا من مشركين وأهل الكتاب[1].

وقارن الميلي جاهلية مجتمعه بجاهلية العرب قبل الإسلام، إذ لاحظ أن جاهلية القـــرن العشرين تتميز عن جاهلية العرب بكونها قد شملها الانحطاط حتى في الجانب اللغوي، وبـــين أثر الفساد اللغوي فيما آلت إليه العقائد في قوله: "كانت هذه الأصول، أصـــول الديانـــة الإسلامية، يشترك في فهمها من مصدرها وتطبيقها كل الناس أيام كانت العربيـــة ســـليقة فيهم، وبعد أن فسدت السلائق، وصارت اللغة العربية على أن لا تنال إلا بالتعليم والتلقين، اختص بفهمها طائفة من العلماء وكانوا كثيرين، ثم أخذوا يقلون"[2]. وهي عوض أن تعبـــد الأصنام فإنها تقدس الأولياء وتنسب إليهم الخوارق، وتعتقد أنهـــم يتصرفـــون في الكـــون ويعلمون الغيب[3] ولن تخرج الأمة الإسلامية- في نظره- من جاهليتها هذه إلا إذا هداهـــا علماؤها وإلا تقدم العامة إلى العلماء لسؤالهم عن حقائق دينهم[4].

وهذا النوع من الحس النقدي في موضوع نقد العلماء متجذر في فكر مبارك الميلـــي منذ كتابته الأولى، إذ يقول:" ولهذا اخترت لقلمي موضوعا واحـــدا هـــو نقـــد العلمـــاء السلفيين"[5]، وبهذه الطريقة يجمع الميلي في تنظير منسجم بين قمة المجتمع الذين هم العلمـــاء وقاعدته وهم أفراد المجتمع وكافة الشعب.

يتمحور فكر مبارك الميلي حول مجموعة رئيسة من الأفكار التي تمثل ميدان جـــهاده

---

[1] مبارك الميلي: المصدر السابق، ص ص: 40، 41.

[2] مبارك الميلي: المصلحون والمرجفون، المنتقد: العدد الرابع عشر، أكتوبر 1925، ص1.

[3] مبارك الميلي: المصدر السابق، ص ص: 100 – 102.

[4] نفسه، ص ص 117، 118.

[5] مبارك الميلي: "حي على الصلاح، حي على الحرب والكفاح: البرق، ع9. مارس 1929، ص1

العلمي والدعوي والإصلاحي ويمكن إجمالها فيما يأتي :

- أن الاستعمار هو بلاء عظيم حل بهذه الأمة، لأنه حرمها من حريتها واستغل أبناءها وحاصر علماءها ومنعهم من الإصلاح بواسطة التعليم وحرية الصحافة والخطابة والتدريس والتوعية بالمساجد.

- إن الطرقية تعمل على تنفيذ أهداف الاستعمار وتخدير الشعب الجزائري وابتزاز أمواله، وتحول بينه وبين العلم والإيمان الصحيح، وتمنع عنه استعمال العقل والنقد، وكذلك تحول بينه وبين النظر فيما يحيط به من عالم ومجتمع[1]. ويعني الميلي بالحرية كغيره من المصلحين، فهو يرى أن الأمة الجزائرية كغيرها من الأمم جديرة بالحرية، ويذكر الميلي أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حياة هذه الأمة[2] حتى أنه يرى –خلافا لما يراه البعض – أنه على المقصر في المعروف أن يأمر به غيره، بل يرى وجوب القيام بذلك تجاه الحكم ولو خشي بطشه[3].

وبما أن الفكر الإصلاحي يعمل على "نفي" المنكر الطرقي، فإننا نرى أنه من المفيد لبحثنا أن نفتش عن مرتكزات هذا الفكر أي الفكر السياسي الطرقي، يقوم على أساس نظرية التشبيه نظرية الرافضة؛ من حيث أركانها المتمثلة في "القطب وحكومته السرية وديوانه الخيالي، وأخذ البيعة والميثاق عن المريدين، واشتراط الطاعة العمياء من طرفهم في طاعة الله ومعصيته، ومنع الانتقاد السياسي، فضلا عن العصيان والخروج. وشريعة هذه الحكمة تمليها أهواء الشيوخ الأميين الجهلة بالدين والإباحيين في أخلاقهم"[4].

وردا على هذا التوجه للفكر الطرقي المنحرف يلاحظ الميلي أن النظريات الباطنية قد انتقلت إلى التصوف في مجال النظرية السياسية، كما انتقلت إليه في المجالات الأخرى[5]، وهو الرأي الذي ذهب إليه ابن خلدون في المقدمة إذ يقول بشأن هؤلاء: "وكان سلفهم

---

[1] مبارك الميلي: رسالة الشرك ومظاهره، ص 268.

[2] نفسه، ص ص: 290، 291.

[3] نفسه، ص ص: 291، 292.

[4] عبد اللطيف عبادة: العلاقة بين الفلسفة والسياسة، ص22.

[5] مبارك الميلي: المصدر السابق، ص ص: 263 - 265.

-(يقصد سلف التصوف المتطرف)- مخالطين للإسماعيلية المتأخرين من الرافضة الدائنين بحلول وإلهية الأئمة مذهبا لم يعرفه أولهم. فأشرب كل واحد مذهب الآخر. واختلط كلامهم وتشابهت عقائدهم، وظهر في كلام المتصوفة القول بالقطب ومعناه رأس العارفين"[1]. كما يقول عباده.

والملاحظ أن محاربة الميلي لهذا التصوف المتطرف تشبه إلى حد كبير ما قام به الأشاعرة والحنابلة قديما -من حربهم الباطنية، ويأتي على رأس هؤلاء كل من الباقلاني والغزالي وابن تيمية. ولعل من الاتفاقات العجيبة أن يكون التصوف المتطرف - مثله مثل الحركة الباطنية تماما- يناصر أعداء الأمة الإسلامية في الداخل والخارج، ويساعدهم على تقويض أركان الدولة الإسلامية. ولا غرابة أن يهتم الميلي -وهو أحد منظري السياسة الشرعيين المعاصرين- بمحاربة الباطنية والتصوف المتطرف معا. ومصطلح السياسة الشرعية هو المصطلح الذي اختاره الميلي ووظفه للتعبير عن السياسة التي جاء بها القرآن والسنة[2].

ويستنتج من هذا السياق أن الموقف الفكري السياسي للميلي على المستوى النظري استخلصه من حصيلة المواجهة التي قام بها الجزائريون ضد الاستعمار الفرنسي وعملائه، وكما هو معلوم فإن الاستعمار في بداية احتلاله لم يستطع فرض سلطته المطلقة على الجزائريين انطلاقا من عقيدتهم التي في جوهرها تحرم خضوع المسلمين للكفار. وهذا الذي جعل الميلي يجتهد في بلورته قياسا على ما قام به علماء السلف مثل الماوردي والجويني والباقلاني والغزالي وبن تيمية، .. في اجتهادهم لإبطال استسلام الأمة لطغيان الفرد، إذ جردوا الحكم من أسسه الإسلامية كالشورى وعصمة الأمة بعصمة الفرد. ويؤكد هذا الفهم للميلي الأستاذ عبد اللطيف عبادة في مسايرة الميلي لهؤلاء، لأن الفكر السياسي السني يرى أن الأمة هي المعصوم وعلاقة الإمام بالأمة هي علاقة تضامن وتعاون، وهي كالعلاقة بين إمام الصلاة والمأمومين"[1].

---

[1] عبد الرحمان بن خلدون: المقدمة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ص 875.

[2] عبد اللطيف عبادة: المرجع السابق، ص ص: 22،23.

[1] نفسه، ص ص: 24، 25.

وإذا أسقطنا هذه الأفكار على الواقع الجزائري الذي عاصره الميلي، فإن أذناب الاستعمار قد وصفهم بأنهم من أتباع الرافضة، التي تفرض عليهم انتهاج سياسة خاصة تجاه العلماء المصلحين المجددين، وهي تتمثل في مقاومتهم والكيد لهم بمحاولة قتلهم، كما أرادت أن تفعل بابن باديس سنة 1926م. ووجدت في الميلي مدافعا عنه بقلمه في مقاله الشهير "ابن ملجم القرن العشرين"، كما ندد أيضا بالاغتيال السياسي وإسكات صوت الزعماء الوطنيين المخلصين لدينهم ولغتهم بالقوة[1].

ويؤصل عبد اللطيف عبادة موقف الميلي هذا بأنه جري على المنهج السلفي، فإن المواجهة الفكرية التي خاضها الميلي ضد الفكر السياسي الطرقي في وجهها المتعاون مع السياسة الاستعمارية، إنما يكون قد استمد موقفه من الشرع ومن المصادر الإسلامية الأصيلة : القرآن والسنة والسلف الصالح. وهي ركائز السياسة الشرعية عنده، والتي تتميز بما يلي[2]:

1- الواقعية عند النظر في مشاكل الأمة الإسلامية التي سيطر عليها الاستعمار وفرض عليها سلطته السياسية.

2- السياسة الشرعية لدى الميلي تقوم على أساس مكارم الأخلاق، وليس كالسياسة الميكيافيلية القائمة على النفاق والخداع والاحتيال والقسوة والتضليل.

3- وكانت أهم مسألة شغلت بال الميلي في وقته هي الاندماج الذي بّين منه موقفه الصريح بقوله: إن سياسة الاندماج"هي القبر الذي لا نشور بعده وهي بعيدة عن الأمة وأخلاقها وعقائدها، فهي سياسة عقيمة، والمنتصر لها غير حكيم، وإن البقاء على الحالة التي نحن عليها (يقصد الجزائريين في عصره) ونحن متفقون على مقتها خير عندي من الاندماج، لأن حياة منحطة خير من ميتة شاذة عن ميتة الأمم"[3].

إن الميلي عندما رفض المثالية المتمثلة في الاندماجيين رفض – في نظرنا – الفكر

---

[1] أحمد حماني: المرجع السابق، ص 20 وما بعدها.

[2] عبد اللطيف عبادة: المرجع السابق، ص26.

[3] أحمد حماني: المرجع السابق، ص30.

السياسي الحاكم الذي يسبح في بحر الخيال ويبتعد عن النضال اليومي الذي تفرضه ظروف شعب مستعمر يئن تحت نير الاستعمار. فقد ثار الميلي على مثالية سياسية تهدف إلى "تقوية دعائم الاستبداد والاستغلال. وقد رفض الميلي المكيافيلية السياسية لأنه قاسى من ويلاتها؛ فالاستعمار ينادي بمثل سياسية ويعامل الشعب الجزائري بنقيضها، والطرقية تنادي بالمثالية السياسية الصوفية تعامل مريديها معاملة الأسياد لعبيدهم، فلم يبق للميلي إلا أن يؤمن بسياسة شرعية نظيفة المبادئ طاهرة المثل مستوحاة من مبادئ القرآن والسنة لتخلصه وشعبه من سياسات البشر المخادعة والمراوغة، وهكذا يضيف الميلي صفحة مشرقة أخرى إلى صفحات الفكر السياسي الإسلامي"[1] انطلاقا من نهجه السلفي. وإضافة إلى مجهودات الميلي في مجال التربية والتعليم والدعوة المكتوبة، يظهر الميلي كمفكر قبل كل شيء، وكان أصدقاؤه يسمونه الفيلسوف، وكمنظر للحركة الإصلاحية بالجزائر، وهو الذي أثرى هذه الحركة برسالة متينة في العقيدة تحت عنوان "الشرك ومظاهره" أعتبر من قبل الباحثين الأساسي الأيديولوجي للحركة الإصلاحية وجمعية العلماء في الجزائر، ومرجع هام في التاريخ تحت عنوان "تاريخ الجزائر في القديم والحديث "وهي كما يقول علي مراد" وسائل كفيلة بدعم دعوته الدينية والسياسية وبفضل هذين السلاحين تمكنت الحركة الإصلاحية من القيام بدورها في الإصلاح واثبات الشخصية الجزائرية في الواقع باتجاهها العربي الإسلامي.

هذه الرؤى الفكرية الإصلاحية التجديدية من طرف الميلي كان الواقع الجزائري محكا لها في مواجهة عنيفة على صفحات الجرائد والتآليف وفي ميدان التعليم والوعظ والإرشاد في المساجد والندوات والتجمعات والنوادي.

---

[1] عبد اللطيف عبادة: المرجع السابق، ص30.

المبحث الثاني : مواقفه من الطرقيين والإدارة الاستعمارية:

خاضت الحركة الإصلاحية في الجزائر صراعا دينيا مريرا بلغ درجة المواجهة والصدام الميداني مع شيوخ الطرق الصوفية واتباعها، الذين رأوا في ظهور الحركة الإصلاحية خطرا على زوال سلطانهم الاجتماعي والروحي على المجتمع، بفعل اليقظة التي بدأ يحدثها علماء الإصلاح في تسليط هجوماتهم على معاقل الطرقيين وتحميلهم مسؤولية الجمود الفكري الذي طغى على المؤسسات الدينية في الجزائر وجعلها في خدمة مصالح الاستعمار الفرنسي، وهو الجمود الذي بات طيلة نهاية القرن التاسع عشر إلى بداية القرن العشرين عائقا كبيرا في نشر مبادئ التقدم والإصلاح الاجتماعي.

وقد كانت المدارس الصوفية والجمعيات المتفرعة عنها تتشكل في الجزائر من أربع مدارس كبرى، تمثل الفكر الديني والفلسفي للطرق الصوفية وهي: القادرية، الخلوتية، الشاذلية، والخاذرية. وقد مرت الطرق الصوفية في الجزائر بثلاث مراحل أساسية: الأولى تميزت بالنشوء والبناء وظهور المذاهب المتعددة ونشر الفكر الصوفي بين المسلمين، وبناء الزوايا ومحلات العبادة والتعليم وتكوين القاعدة الشعبية المتمثلة في الأتباع والمريدين، أما المرحلة الثانية فقد تميزت بالمحافظة على التراث العربي الإسلامي، ونشر الدعوة الإسلامية بين الناس. وكانت الزوايا في هذه الفترة عبارة عن مؤسسات دينية ومراكز واجتماعية، يتعلم فيها الناس مبادئ دينهم وتعاليم شريعتهم. وقد بلغ عدد الزوايا في الجزائر 349 زاوية، وعدد المريدين والإخوان 285000[1].

وقد أشرنا في مبحث الحياة الثقافية في الفصل الأول، إلى كيفية ترويض الاستعمار لهذه الطرق الصوفية والتحكم في الزوايا عن طريق سياسة الاختراق والمهادنة، وذلك بداية من الربع الأخير من القرن التاسع عشر إثر ثورة المقراني سنة 1871م.

---

[1] عبد الكريم بوالصفصاف: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وعلاقتها بالحركات الجزائرية الأخرى، دراسة تاريخية وإيديولوجية مقارنة (1931-1945)، المتحف الوطني للمجاهد،1996، ص191.

ومنذ مطلع القرن العشرين أسفرت سياسة الاستعمار تجاه الطرقية عن تحويل جل الزوايا إلى أداة تخدم أغراضها وتسخيرها لمواجهة الحركة الإصلاحية.

بعد رجوعه مباشرة من جامع الزيتونة بتونس، بشهادة التطويع عام 1924م، وجد الشيخ مبارك الميلي نفسه في ميدان المواجهة مع خصوم الإصلاح، الذين يأتي على رأسهم شيوخ الطرق والزوايا، بل ومن بينهم بعض من العلماء الذين يعملون لفائدة الاستعمار. كما تؤكد ذلك شهادة أحد المؤرخين الفرنسيين الذي يقول: "لقد أصبحت الطرقية والزوايا بعد انحرافها أداة طيعة في خدمة مصالح الاستعمار الفرنسي وصار رجالها –من وجهة النظر الاستعمارية– الممثلين الحقيقيين للإسلام المتسامح، على عكس العلماء المصلحين الذين أرادوا تقويض نفوذ الطرقيين في المجتمع الذي سيطروا عليه روحيا بتقديس الأولياء والعبودية للاستعمار"[1].

وقد تصدى لهم الشيخ مبارك الميلي بما عرف عنه من قوة الشخصية وصلابة في الدفاع عن المبادئ الدينية والوطنية، التي ظل يعيش من أجلها لوضع حد لما كان يعيشه الشعب الجزائري من "حياة"، تطبّع القلب على الخوف من المخلوق والعقل على الجمود وقبول المحال، والنفس على التقصير في الصالحات اتكالا على أولى الخصوصيات[2].

وتجسدت المعركة التي خاضها في عدد وافر من النشاطات التربوية والعلمية الإصلاحية والتي كانت ميدانها المساجد والمدارس والصحف، إضافة إلى تأليفه كتابين في التاريخ والعقيدة كما سلف الذكر، وهما تتويج لعمله الإصلاحي إلى جانب زملائه في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

وكانت أولى حلقات صراع الشيخ مبارك الميلي مع الطرقية على أعمدة الصحف ما كتبه في مقال بجريدة " المنتقد"، العدد السادس، تحت عنوان "العقل الجزائري في خطر" ضمنه نقدا لاذعا للأوضاع التي فرضها الطرقيون على الشعب الجزائري[3]، ليواصل ذلك

---

(1) Charles André Julien " L'Afrique du nord en marche. Nationalisme musulman et souveraineté", imprimerie Denvers; Paris;1927;p:24.

(2) مبارك الميلي: " أحاديث جمعية العلماء وحوادثها"، جريدة البصائر، قسنطينة، السنة الثانية، عدد 86، 13 نوفمبر 1937،ص:2.

(3) مبارك الميلي: المصدر السابق، ص ص:283، 284.

من خلال كتاباته في صحف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ثم لينتقل في أعقاب ذلك إلى الواقع اليومي للمجتمع الجزائري عبر إقامته أولا بمدينة الأغواط لمدة سبع سنوات من سنة 1927م إلى 1933م بدعوة من أهاليها الذين بنوا مدرسة افتتحت في يوم الثالث عشر فيفري1927م وتحمل الشيخ مبارك الميلي مسؤولياتها كمعلم وإداري[1] لينشر هناك بذور الدعوة الإصلاحية في منطقة الجنوب متصديا لظاهرة الطرقية هناك، بالتربية والوعظ والإرشاد.

كانت هذه المنطقة خاضعة للطريقة التيجانية[*] التي جعلت منها معقلها الرئيسي، ويذكر الشيخ مبارك أنه لما كان بالأغواط قرأ كتاب للتيجانية وهي فرع من الخلوتية يحكم فيه مؤلفه بردة (الخروج عن الإسلام) كل من خرج عن طريقته وذهب إلى طريقة أخرى أو تخلى عنها[2]. وقد تتبع الشيخ مبارك الكثير من الادعاءات والممارسات الخاطئة من طرف شيوخ الطرقية وسجل ذلك في كتابه "الشرك ومظاهره".

وفي الوقت نفسه كانت الأغواط مجالاً للصراع القبلي بين عائلتي أولاد سالم وأولاد فرحات، في هذا المناخ الديني والسياسي المتناقض بين أصحاب المصالح في المنطقة أظهر الشيخ مبارك الميلي قدرة فائقة على استغلال لعبة موازين القوى الموجودة على الساحة، فأظهر تعاطفا مع رؤساء القبائل الذين كان لهم دور مزدوج في الحصول على امتيازات من الحكومة وكونهم أعداء للتيجانية. من خلال ذلك نجح بحنكته السياسية في إدخال الإصلاح الديني كاتجاه مسالم (ناحية فرنسا بطبيعة الحال)، غير أن الإدارة الاستعمارية تفطنت إلى مهمة الشيخ مبارك الميلي الذي كان يهدف في الحقيقة إلى تقويض الأوضاع بالمنطقة، فدعمت الطريقة التيجانية في مواجهتها له، إلى أن أجبرته على الرحيل من الأغواط[3]. بعد أن زرع البذور الأولى للحركة الإصلاحية في الجنوب الغربي من البلاد، وهذا الرحيل

---

(1) جريدة الشهاب: عدد 85/ 24فيفري 1927:ص:15،18.

(*) التيجانية: طريقة صوفية أسسها أبو العباس أحمد التيجاني بن المختار سنة 1778 بقرية عين ماضي ناحية الأغواط ، وقد توفي سنة 1815 بمدينة فاس.

(2) مبارك الميلي: المصدر السابق، ص 279.

(3) Ali Merad: op. cit; pp:91-92

ثم استقر بمدينة ميلة التي باشر بها عملية الإصلاح والتربية مواجهها فيها الطريقة الحنصالية[*] التي أجازت لمريديها الملاهي وتمتيع النفس بما تشتهي[1]، والتي يصور لنا الشيخ مبارك سلوكها في قوله: "وكان من تدابيرهم أن غدوا إخوان الطريقة الحنصالية الذين يمرون بميلة في زيارتهم لجبل الزواوي بأن يدخلوا ميلة رافعين أصواتهم بشعائرهم الطرقية ضاربين الأرض بأقدامهم، إبلاغا في الضلالة وإغراقا في الهمجية. ويوم الجمعة الخامس عشر ماي عاد هؤلاء الإخوان من زيارتهم ومثلوا دورهم، فقابلهم الأولاد بما يقابلون به "بوطبيلة" وتسارعوا إليهم كما يتسارعون إلى أصحاب القرود، كل هذا وأعيان المدينة مشغولون بإطعام الطعام سرورا بإنجازهم المسجد الجامع لا علم لهم بما يجري"[2]. وكان الشيخ مبارك الميلي كثير التنقل بين ميلة والحواضر والقرى المجاورة لها، ملقيا دروسا تتضمن الإسلام الصحيح ومحاربة البدع والضلالات الطرقية[3]، وقد واجه نفس العراقيل والمصاعب التي كان يعاني منها في الأغواط والتي وضعتها أمامه هذه المرة إدارة الشؤون الأهلية عبر إمام رسمي بمدينة ميلة[4] المدعو "بوفمة" الذي لما رأى انفضاض المصلين من حوله، اتهم الشيخ مبارك الميلي أنه يؤم المصلين بمذهب آخر[5].

وعلى عكس ما يتبادر إلى الذهن لأول وهلة، فإن الشيخ مبارك الميلي لم يصل إلى هذا الموقف في التشنيع بالطرقية بهذه الأوصاف، إلا بعد أن يئس من أي محاولة للتعاون معهم. وكما تذكر المصادر فقد كان الشيخ مبارك من المبادرين إلى إعطاء فرصة لهؤلاء أثناء فكرة التحضير لتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1931م، حيث تم إرسال دعوة إلى العلماء الطرقيين[6]. لكن فشل محاولة هؤلاء الانقلاب على الجمعية وتأسيسهم لجمعيتهم الموازية لها والمعروفة بجمعية علماء السنة كما أشرنا إلى ذلك في ما سبق، ثم

(*) الطريقة الحنصالية: شعبة من الشاذلية تنتشر بجنوب ميلة قرب وادي العثمانية.

(1) مبارك الميلي : المصدر السابق،ص: 277.

(2) مبارك الميلي: البصائر : "تفقد الشعب"، العدد 28، لـ17 جويلية 1937.

(3) جريدة البصائر: تفقد الشعب، أعداد: 28، ص:8، العدد 29،ص:6،8 ، العدد 30،ص:8، العدد 31،ص:5،6،8.

(4) مبارك الميلي : المصدر السابق،ص: 277.

(5) M. Noël: ": L'évolution religieuse à Mila (Algérie) renseignements coloniaux, du comité de l'Afrique Française",1938;n°2,p:33;A.F

(6) مبارك الميلي: جريدة البصائر ، قسنطينة، العدد 114، 20 ماي 1938،ص:2.

دعوة إلى العلماء الطرقيين[1]. لكن فشل محاولة هؤلاء الانقلاب على الجمعية وتأسيسهم لجمعيتهم الموازية لها والمعروفة بجمعية علماء السنة كما أشرنا إلى ذلك في ما سبق، ثم استمرارهم في قطع الطريق أمام جمعية العلماء بتواطئ مع الاستعمار، عبر وضع خطة تقتضي "منع العلماء الأحرار من إلقاء المواعظ في المساجد وغلق النوادي والمدارس"[2].

حينئذ بدأ الشيخ مبارك الميلي في سنة 1936م في نشر سلسة من المقالات حول (الشرك ومظاهره) بجريدة "البصائر"[*]، وهي عبارة عن دراسة مذهبية تقدم مذهب السلف الصالح بطريقة واضحة ودقيقة، مع تسليط نقد اجتماعي على واقع الطرقية مستندا في ذلك إلى ما عايشه بنفسه خلال إقامته بكل من الأغواط وميلة[3].

وهكذا اعتبر الشيخ مبارك الطرقيين وسيلة في يد الاستعمار لتخدير الشعب الجزائري حتى يبقى غافلا ولا يثور ضده، وذلك بواسطة نشر الخرافات والجمود وابتزاز أموال الناس[4]، فوضع شيوخ الطرقية أيديهم في أيدي المعمرين، وإن كان هناك اختلاف في الوسائل التي يستعملها الطرفان، فهما يتفقان في الغاية : "فالطرقي يستغل الناس باسم الدين، والمعمر يستغلهم بقوة الحديد والنار.. والفريقان مجتمعان في المحافظة على جهل الأمة وتأخرها لاستغلال جمودها[5].

ومن بين البدع الأخرى التي أعابها عليهم، إيمان شيوخ الطرقية بكونهم "واسطة بين الله ومخلوقاته في جلب المحبوب ودفع المكروه"، وإقامة الزردات التي تنفق فيها أموال طائلة، إضافة إلى الخسارة التي تناولت ناحية الأخلاق والدين، وكذا الإدعاء بضمان الجنة مقدما أمثلة من واقع مشاهداته عندما كان مقيما بالأغواط وميلة[6].

---

(1) مبارك الميلي: جريدة البصائر ، قسنطينة، العدد 114، 20 ماي 1938،ص:2.

(2) مبارك الميلي: " التعليم التعليم" نفس المرجع العدد 114،20ماي 1938،ص:2.

(*)البصائر: جريدة اسبوعية أسستها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في ديسمبر 1935 لتكون لسانها الرسمي.

(3) مبارك الميلي: رسالة الشرك ومظاهره، ص ص 14، 15، عمار طالبي: بن باديس، حياته وآثاره، ج3، دار اليقظة العربية للتأليف والنشر، ط1، ص ص: 280، 281.

(4) عمار طالبي: بن باديس، حياته وآثاره، ج3، دار اليقظة العربية للتأليف والنشر، ط1، ص190.

(5) نفسه، ص ص:41، 42.

(6) نفسه، ص178 وما بعدها.

بهذا قدم الشيخ مبارك الميلي مواجهة صريحة وشديدة للطرقية باستخدام أسلوبين علمي ودعوي أيضا؛ من خلال منهجه الإصلاحي، أبرز في الأول موقف الدين الصحيح وسيرة السلف الصالح، فاضحا بذلك بدع الطرقيين مبينا أهدافهم الحقيقية التي ترمي في نهاية المطاف إلى إبقاء الشعب الجزائري في قبضة الاستعمار، وفي الجانب السياسي توجه إلى عموم الناس من خلال المواعظ التي ألقاها عليهم والمواقف العامة بما من شأنه تكوين اتجاه جديد لدى الرأي العام.

وتتضح مواجهته الصريحة مع الطرقية من خلال ما نشره في الصحف، محملا مسؤولية ما يجري من تحذير وشعوذة لعامة المسلمين من قبل شيوخ الزوايا المنتشرة في كل أرجاء الوطن، خاصة ما يتعلق بما تواجهه الحركة الإصلاحية من قمع، من قبل الإدارة الفرنسية في قوله : "إن مسؤولية حرمان المسلمين من التعليم بالمساجد وبالنوادي وبالمدارس أولا بالذات على شيوخ الزوايا المتسببين في هذا الحرمان والمسرورين به"[1].

إن صراحة ومواقف مبارك الميلي الواضحة تتضح أيضا في تسميته الأشياء بمسمياتها في عمله الإصلاحي في قوله :"يأتي في ذنب سلسة المسؤولين بعض الموظفين وخدمة الموظفين من بعض الكتاب والصحافيين وجبناء النواب المطاوعين[2]. وفي هذا دليل قاطع على شجاعة الميلي وموقفه من قضايا عصره، سواء كانت من طرف الطرقيين وممن سار في فلكهم من أعوان الإدارة الاستعمارية. ولم يستثني الصحافيين والنواب الذين وصفهم بالجبناء وهذه صفة فيها موقف يدل على تقدير الشيخ مبارك الميلي لدور هؤلاء لو وقفوا موقفا آخر باعتبارهم من حماة الحريات العامة والدفاع عن المواطنين، وفي هذا الموقف أيضا نلمس تطورا ملحوظا في مضمون كتابات الشيخ مبارك، فبعد أن كان في نهاية العشرينات وبداية الثلاثينات قد تخصص في نقد العلماء السلفيين، نراه وسع جبهة المجابهة إلى الفئات السابقة الذكر، مما يعني أن مواقفه كانت مع تطور الأحداث التي تقتضي الموقف المطلوب.

---

[1] البصائر، عدد 114، 20 ماي 1938،ص:2.

[2] نفسه، ص نفسها.

موقفه من بعض علماء عصره

من القضايا الإصلاحية التي وقف بشأنها مبارك الميلي وأبدى رأيه فيها مواقف بعض العلماء المعاصرين له، فمنهم من اختلف معهم في وجهة النظر الإصلاحية منذ العشرينات، وتطور الخلاف إلى مواجهات على صفحات الجرائد حتى في فترة الثلاثينات وهم الموالين للطرقية والمتحالفين معها فيما بعد[1]، وفئة ثانية ممن كانوا إلى صفه في الحركة الإصلاحية منذ البداية وفي جمعية العلماء ثم انشقوا عنها، وكان للميلي رأيه موقفه منهم. وفئة ثالثة تخاصم معهم الميلي في عقد العشرينات، ثم تمت المصالحة وأصبحوا من أعضاء الجمعية.

وهو ما اهتم به الشيخ مبارك الميلي الذي وجد نفسه مضطرا إلى خوض معارك كلامية ضد هذه الفئة من العلماء، على صفحات الصحف التي أصدرتها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، واعتبر تأسيس الجمعية سنة 1931م مدعاة لإزالة مظاهر الفساد والشقاق الذي كان عليه أغلب العلماء في قوله: "حتى أن البلدة الواحدة تجدها منشقة إلى حزبين إن كان بها عالمان أو إلى ثلاثة إن كان بها ثلاثة وهلم جرا". وكذا ظاهرة: "الخضوع للعامة وطلب رضاها للطمع في مالها[2]. مما انجر عنه ما كان يرزح تحته الشعب الجزائري من جمود وغفلة تدعم الهيمنة الاستعمارية.

لكن أبرز المواجهات التي خاضها الشيخ مبارك الميلي، كانت ضد عالمين اثنين عملا في صفوف جمعية العلماء في بداية الأمر، ثم انشقا عنها بعد ذلك، واتخذا مواقف ضدها وضد عملها الإصلاحي، وهما: المولود الحافظي، ومحمد السعيد الزاهري.

بالنسبة للمولود الحافظي فقد كان عضوا في المجلس الإداري لجمعية العلماء أثناء تأسيسها رفقة ثلاثة عشر عضوا آخر، ينتمي إلى اتجاه رجال الدين غير الإصلاحيين الذين فتحت لهم الجمعية أبوابها في البداية لأسباب تكتيكية على حد تعبير المؤرخ الكبير أبو

---

(1) مبارك الميلي: موقفنا من الصحف الطرقية، البصائر، عدد 157، 17 مارس 1939. ص2.

(2) مبارك الميلي: التقرير المالي عن السنة الثانية لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، جريدة الشريعة" قسنطينة، السنة الأولى، عدد 24،2 جويلية 1933، ص:2.

القاسم سعد الله [1]. وكانوا من الطرقيين الذي لما فشلوا في السيطرة على الجمعية انشقوا عليها سنة 1932 برئاسة الحافظي، وكونوا جمعية منافسة تحمل اسم: "جمعية علماء السنة"[2]

وأما نقاط الخلاف التي فرقت بين الشيخ مبارك الميلي والحافظي وجعلتهما يخوضان معركة حامية دارت في البداية حول كتابات للشيخ مبارك الميلي عن قضية طعام الأوربيين وجواز استهلاكه من طرف المسلمين، حيث قام بتحريم طعام الأوروبيين بحجة أن أكثر الأوروبيين "ملحدون، فهم ليسوا من أهل الكتاب، والله إنما أباح لنا طعام أهل الكتاب"[3].

وقد رد الحافظي على ذلك بعدة مقالات حاول فيها نقض كلام مبارك الميلي مستخدما الثلب في الأعراض والطعن في شرف الرجال والثرثرة والتحامل. وتجاهل الشيخ مبارك الميلي في البداية ذلك، ثم لما رأى إصرار الحافظي على التعريض به قرر الرد عليه لوضع حد نهائي له. فرد عليه لانتقاده الحافظي ابن العربي[*] مظهرا ضعف حججه العلمية ومتهما إياه بأنه يريد التقرب من الطرقيين[4]. وقد نشر هذه الردود في مجلة الشهاب في سلسة تضمنت خمس مقالات عنونها: " حول ثرثرة الحافظي"، مبرزا الشخصية العلمية التي اتصف بها معتمدا في ذلك الموضوعية العلمية، دون أن يسقط في أسلوب الحافظي الذي كان بعيدا عن الروح العلمية[5].

ومن المسائل الأخرى التي أعابها الشيخ مبارك الميلي على الحافظي، كتابته مقالات يدافع فيها عن شيوخ الزوايا وكتابته عن هلال رمضان، وسب علماء تونس؛ شيوخ جامع الزيتونة، وكذا إجابته لدعوة رجال الإصلاح في وقت سابق، ولا شك أن معاداته لهؤلاء وأولائك جميعا كان يجني فوائد مادية[6].

---

(1) أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ج3، ص:81.

(2) عبد الحميد بن باديس: " البصائر"، عدد 124، 22 جويلية 1938،ص:4.

(3) مبارك الميلي: "حول ثرثرة الحافظي، الشهاب، قسنطينة، عدد 112،2سبتمبر 1927،ص:19.

(*) الحافظ بن العربي، صاحب كتاب: " العواصم من القواصم". الذي أعاد نشره بن باديس.

(4) مبارك الميلي: " دفع إشتباه ونقد الرد"، الشهاب، قسنطينة، عدد 111، 20أوت 1927،ص:11-12.

(5) محمد ناصر: " المقالة الصحفية الجزائرية"، الجزء الأول، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1978، ص ص 132، 135.

(6) مبارك الميلي: " دفع اشتباه ونقد الرد"، الشهاب، قسنطينة، عدد 111، أوت 1927، ص ص 11،12.

ويستنتج من بعض خلفيات المواجهة بين المصلحين وخصومهم السلفيين المتعاطفين مع شيوخ الطرق والزوايا اتهام هؤلاء المتخرجين من جامع الزيتونة بالتحصيل العلمي الضعيف في الدين وتغطية ذلك بالتمرد والعنف في كتاباتهم[1].

أما فيما يتعلق بمحمد السعيد الزاهري فقد كان أحد أعضاء مجلس إدارة جمعية العلماء منذ 1932، ويعتبر من العلماء المصلحين، وقد عمل إلى جانب الشيخ العقبي، في رئاسة تحرير جريدة الإصلاح الأولى، ولكن لم يجدد انتخابه لعضوية مجلس إدارتها أثناء اجتماعها في عام 1936. مما أدى به إلى الانقلاب عليها واتهام بعض أعضائها بالعمل ضده، فأخذ في مهاجمتهم علانية[2]. وأسس صحفا خاصة به للكتابة ضدهم، ثم وصل به الأمر إلى مرتبة خصوم المبادئ الإصلاحية التي كان يدافع هو نفسه من أجلها، ثم الانضمام إلى الحلفاء في الحرب العالمية الثانية، مناقضا للموقف الحيادي الذي إلتزمته جمعية العلماء آنذاك[3].

نظرا للانقلاب الذي طرأ على مواقف الزاهري تجاه الجمعية وهجومه على رجالها، ومنهم الشيخ البشير الإبراهيمي[4]، وحتى مبارك الميلي لم يسلم منه في شخصه، حيث اتهمه بالرجعية واتخاذه الجمعية وسيلة للكسب والمعاش وأخذ مالها[5].

ولقد كان للشيخ مبارك الميلي موقف حازم نحو إدعاءات هذا الرجل بين فيه التزامه "بخدمة الفكرة الإصلاحية لا الغضب لكبرياء النفوس"[6]. وكان رده بألفاظ قوية لكنها لم تصل حد القدح للتدليل على الانحراف الذي جعل الزاهري يزرع عبر صفحات جريدة

---

(1) مبارك الميلي: التعليم الديني في الجزائر وحظ الزوايا منه .الشهاب عدد:13، جوان 1926، ص1،2.

(2) أحمد حماني: المرجع السابق، ج2، ص ص:133، 134.

(3) نفسه،ص 134.

(4) نفسه،ص 135.

(5) مبارك الميلي: "من يسمع يخل"، البصائر: عدد 114،20 ماي 1938،ص:2.

(6) محمد ناصر: المرجع السابق، ص 135.

"الوفاق"[*] الفتنة والشقاق في الأوساط الجزائرية، وتقربه من الطرقيين الذين يعملون مع الاستعمار[1].

كان الشيخ مبارك الميلي في غمرة المناظرات التي خاضها مع خصوم الإصلاح مثالا للنزاهة العلمية والالتزام بانتمائه الإصلاحي الوطني. موازيا في ردوده بين المتطلبات الدينية والوطنية السائدة آنذاك، مع صبر لا يضاهى في البحث عن الحجج الشرعية والسياسية إلا فطاحل العلماء والمفكرين الكبار، ودون أن يسقط في الإسفاف رغم الهجمات الاستفزازية التي طالته شخصيا من طرف خصومه.

فدلل بذلك على أنه عالم من العلماء الربانيين الذين تمسكوا بالأخلاق العالية، وكانوا أفضل ممثل للفكرة الإصلاحية الإسلامية التي نهضت بها جمعية العلماء.

أخذت فرنسا غداة احتفالها بالذكرى المئوية لاحتلال الجزائر، تستعمل سياسة الإغراء والإرهاب للتحكم في الحركة الوطنية الناشئة التي أخذت مسارا آخر ابتداء من سنة 1931م بتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، واستمرار النشاط السياسي للجزائريين ممثلا خاصة في نجم شمال إفريقيا وكتلة النخبة من النواب. هذه التنظيمات التي استفادت في مطلع الثلاثينات من الضعف الناجم عن المشاكل الداخلية والخارجية عانت منها فرنسا في تلك الفترة[2].

فسياسة الترهيب الذي تجسدت في منشور "ميشال" سنة 1933 الذي استهدف التضييق على العلماء ومراقبتهم ومنعهم من القيام بمهمتهم الدينية إلى جانب تعليم اللغة العربية بحجة أنهم ينشرون الوهابية والشيوعية[3] إلى جانب قرار "رينيه" وزير الداخلية الفرنسي الصادر سنة 1935 الذي استخدم السوط لإرهاب الوطنيين والمطالبين بالإصلاحات.

---

[*] جريدة الوفاق: صحيفة أسسها الزاهري، في مارس 1938، كانت مضادة للعلماء وعاودت الصدور في 1940.

[1] مبارك الميلي: موقفنا من الصحف الطرقية ، البصائر 1939.

[2] أبو القاسم سعد الله : المرجع السابق،ص:17.

[3] نفسه، ص 21.

والواقع أنه لم ينجح لا الترغيب ولا الترهيب في وقف نشاط جمعية العلماء والحركات السياسية الأخرى، بل على العكس من ذلك كانت الأحداث التي تخللت هذه المحطات فرصة لنضج نضال الحركة الوطنية وانكشاف الأهداف الحقيقية للاستعمار الذي تراجع عن وعوده الهزيلة وسلط قمعا حقيقيا على كل المعارضين له. ومن جهة أخرى فقد عمد الاستعمار الفرنسي إلى تقديم مشاريع إصلاحية لتحسين حالة الجزائريين عبر اقتراحات موريس فيوليت عضو مجلس الشيوخ افرنسي والحاكم الحاكم العام السابق للجزائر (1925-1927) والتي جسدت في ما عرف بمشروع "بلوم فيوليت"[*] سنة 1931، مع صعود الجبهة الشعبية سنة 1936م.

كما سبق القول، حدث تغير نوعي لدى النخبة الجزائرية تجاه الوجود الاستعماري عقب الاحتفال المهين بمئوية الاحتلال؛ مما أدى إلى تبلور الحركة الوطنية التي تشكلت من ثلاث اتجاهات رئيسة ممثلة في العلماء المصلحين الذين تهيكلوا في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين, التي استخدمت الصحف والمساجد والمدارس الحرة والنوادي لخدمة المبادئ الإصلاحية القائمة على إحياء الإسلام واللغة العربية والتاريخ ومحاربة الخرافات والبدع مع إيقاف محاولة مسخ الشخصية الجزائرية ونشر الوعي لدى الشعب[1].

الاتجاه الثاني يعبر عنه اليسار الوطني الذي مثله حزب نجم شمال إفريقيا بقيادة مصالي الحاج[**] وهو يكافح من أجل استقلال الجزائر وتحقيق ثورة اجتماعية[2].الاتجاه الثالث مثلته جماعة المنتخبين تحت زعامة الدكتور "بن جلول"[***]، والصيدلي "فرحات عباس"[****]، من خريجي المدارس الفرنسية ويناضلون من أجل الاندماج والتجنس.

---

[*] بلوم ليون: رئيس الحكومة الفرنسية التي انبثقت عن فوز الجبهة الشعبية في انتخابات سنة 1936. وقد تبنى برنامج موريس فيوليت القاضي بإدماج الجزائريين مع الاحتفاظ بأحوالهم الشخصية، والذي كلف في حكومة الجبهة الشعبية بالشؤون الجزائرية. ولذلك عرف هذا المشروع بـ"بلوم – فيوليت".

[1] عبد الكريم بوالصفصاف : المرجع السابق، ص 105-108.

[**] مصالي الحاج: زعيم وطني جزائري، مؤسس حزب شمال إفريقيا الداعي إلى إستقلال الجزائر.

[2] Charles Robert Ageron: op, cit; p84.

[***] بن جلول: "من زعماء جماعة المنتخبين الذين شكلوا إتحادية المنتخبين المسلمين الجزائريين".

[****] فرحات عباس: "زعيم المنتخبين، انظم إلى جبهة التحرير الوطني و تولى رئاسة الحكومة.

المبحث الثالث : مكانته ودوره في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

تأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في 5 ماي 1931 غداة احتفال فرنسا بالذكرى المئوية الأولى لاحتلال الجزائر وهذا كرد فعل قوي من جانب جماعة من العلماء الحاملين لثقافة إصلاحية، الذين مهدوا إنشائها بصحافة ذات نبرة حرة وبتأسيس النوادي والمدارس الحرة ومساجد الوعظ والإرشاد في مختلف المدن والقرى الجزائرية. وإن كانت أهداف هذه الحركة دينية وثقافية واجتماعية بتقنية الإسلام من الشوائب التي علقت به ومحاربة البدع والخرافات التي نشرها الطرقيون، وإحياء اللغة العربية ومعالم التاريخ الوطني والتصدي لمحو معالم الشخصية الجزائرية وتوعية الشعب الجزائري وتربيته[1]، فإن البعد السياسي لم يخلو من نشاط العلماء في حركتهم الإصلاحية والنهضوية الذين قاموا طوال نشاط جمعيتهم في الثلاثينات والأربعينات وحتى اندلاع ثورة التحرير سنة 1954 بالتحرك على هذا الصعيد وهدفهم البعيد هو استعادة استقلال الجزائر وتكوين دولة عربية إسلامية كما عب رعن ذلك بوضوح أبرز قادتها ومنهم بن باديس من خلال موقفه في أعقاب فشل وفد المؤتمر الإسلامي إلى باريس سنة 1936 بقوله : "أيها الشعب إنك بعملك العظيم الشريف برهنت على أنك شعب متعشق للحرية هائم بها، تلك الحرية التي ما فارقت قلوبنا منذ كنا الحاملين للوائها وستعرف في المستقبل كيف نعمل لها، وكيف نحيا لأجلها"[2].

الأمر الذي جر عليهم غضب السلطات الاستعمارية التي عاملتهم نفس المعاملة التي خضع لها السياسيون الجزائريون الذين شكلوا خطرا على الوجود الاستعماري، فاتهمتهم بأنهم انحرفوا عن هدفهم الديني وزجت بزعمائهم في السجون وحكمت عليهم أحكاما ثقيلة[3].

---

(1) عبد الكريم بوالصفصاف: المرجع السابق،ص 108.

(2) ثلاثة أيام في شهر واحد، الشهاب، المجلد:12،ج:6 أوت-سبتمبر 1936،ص: 268-274.

(3) أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص:84-85.

الأفكار الأساسية لجمعية العلماء:

تعددت الآراء والنظريات في التعريف بجمعية العلماء وتحديد الدور الذي قامت بـــه في إحداث النهضة الوطنية الجزائرية المعاصرة وتأثيراتها في الحركة الوطنيـــة بصفـــة عامـــة، وبثورة التحرير على وجه الخصوص. بينما اعتبرها البعض ذات طبيعة دينية بحتـــة، جـــاءت لمحاربة الخرافات وتطهير الإسلام مما لحقه من بدع وضلالات الطرقيين، وكذلك إحياء اللغـة العربية وإصلاح الأسرة والمجتمع استنادا إلى المبدأ القـــرآني والســـنة الإلهيـــة العمرانيـــة في التغيير[1]. "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم"[2].

أما فرحات عباس الذي كان من النخبة المثقفين ثقافة فرنسية، فقد اعتبر أن الجمعيـــة تسعى إلى تجديد ومحاربة الطرقيين الذين وضعوا أنفسهم في خدمـــة الاســـتعمار وتكويـــن إطارات الثقافة العربية[3].

بالنسبة "لشارل روبير أجيرون" أن العلماء قاموا بإصلاحات حسب الصيغة التقليديـة التي تقوم على إرجاع العقيدة إلى صفائها، ولكن أيضا تعريب الجزائر المـــهددة بالفرنســـية ومحاربة المرابطين شركاء الاستعمار وتكوين إطارات ذوي ثقافة عربية[4].

أما بن باديس فيرى أن الجمعية تعمل على محاربة الخرافات والشعوذة الـــتي شملـــت البلاد وتسبب فيها الطرقيون[5].

كانت الإدارة الفرنسية ترى أن الجمعية تعمل على تجديد الإسلام وتطـــهيره مـــن خرافات شيوخ الزوايا وتطوير التعليم الديني والثقافة العربية[6].

والحقيقة أن للجمعية أهدافا متعددة تتجاوز الإطار الديـــني البحـــث إلى المجـــالات الاجتماعية والثقافية والسياسية التي لم تصرح بها علنا، والجانب السياسي الذي وإن كـــان

---

(1) أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق،ص:84.

(2) السورة 13، الآية 11.

(3) فرحات عباس: ليل الإستعمار"-أبو بكر رحال، مطبعة فضالة، المحمدية المغرب، بدون تاريخ،ص:150.

(4) Charles Robert Ageron: op. cit p:86

(5) جريدة النجاح: عدد 1683، 15 مارس 1935،ص:1.

(6) Notes du C.I.E,au préfet de Constantine 3 Histoire et position politique de l'association des oulemas – de congrès la fédération des élus du parti du peuple Algérien parti communiste d'Algérie et du Musulman":4 décembre 1941

يشكل جوهر عملها الحقيقي، تظاهرت بأنها جمعية دينية تهذيبية لا دخل لهـــا في السياســة لكي تفلت من الإجراءات الإدارية القمعية التي كانت تسلطها الإدارة الاستعمارية على كل الأحزاب والجمعيات الوطنية وحتى لا يعطلها الاستعمار. وهي تعمـــل في واقـــع المجتمـــع بالتعليم والتوجيه وتشكيل وعي جديد وإن أبدت مواقف سياسية جريئـــة أدت في بعـــض الأحيان إلى أن يتعرض رجالها للاضطهاد ويصطدم عملها بتضييقات الإدارة الاســـتعمارية التي حاولت في كثير من المرات شل نشاطها في التعليـــم بالمدارس الحرة والوعظ بالمســـاجد أو حرية التعبير في الصحافة الناطقة باسمها.

وبالتالي فإن الأفكار الأساسية لجمعية العلماء –كما سبق القول– حول دعوة النـــاس إلى الرجوع إلى الإسلام الصحيح كما نزل على النبي محمد –صلى الله عليه وسلم– وإزالـــة ما علق في أذهان الجزائريين من شوائب وخرافات كان المتسبب فيها الطرقيون والكنيســـة المسيحية التي قامت منذ بداية التواجد الاستعماري بمحاولة تشويه العقيدة الإسلامية. وهـــو ما أدى بالجمعيـــة إلى أن تركز معظم جهودها على الجانب الديني خاصة خلال الســـنوات الأولى التي شهـــدت مواجهة الطرقيين ورجال الدين الرسميين الذين يريدون المحافظة علـــى الوضع القائم، مما أدى بهـــا إلى أن تكون محل انتقاد الأحزاب السياسية الوطنية الأخـــرى مثل حركة النجم خلال هذه الفترة، التي أعابت على الجمعية تركيزها على هـــذا الجـــانب وإهمالها للنضال السياسي. وإن كان ذلك في الحقيقة سوء فهم وتقدير، باعتبـــار أن كـــلا الطرفين يستهدفان تحقيق غاية واحدة وهي استقلال الشعب وإن اختلفت وسائلها.

وهذه الأفكار تتمحور بصفة رئيسية – كما أظهرها رئيس الجمعية في خطاب لـــه ألقاه في الاجتماع العام لها بمركز الجمعية بنادي الترقي بالعاصمة يوم الســـابع والعشـــرين سبتمبر 1936، فيما يلي:

1– محاربة الآفات الاجتماعية كالخمر والميسر والبطالة والفجور، وكذا كـــل مـــا يفســـد عـــلى الناس عقولهم أو يضيع أموالهم من جهل وجمود ودجل وخرافة، إلى جانب الواقفـــين في طريق التعلم والتعليم، والزردات والوعدات، وبدعم المآتم والولائم.

2– خروج المسلمون عن أكثر ما دانوا به تجاه عقائد الإسلام وفضائله فلابد من إصلاحـــهم

وإرجاعهم إلى ما خرجوا عنه.

3- هداية الأمة عن طريق مخاطبتها بلسانها وقيادتها بدينها الذي هو زمام روحها والجزء الأعظم الذي تتكون منه وتحيا به شخصيتها، فعالجتها بالكتاب والسنة.

4- الطرقية مصدر كثير من الآفات الاجتماعية وهي مصدر عيشهم[1].

ويوضح مبارك الميلي الأفكار الأساسية لجمعية العلماء في نفيه صفة الحزبية عنها في افتتاحيته بجريدة البصائر قائلا: "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تعمل للمحافظة على الإسلام النقي من الخرافات... وهي العروبة الخالدة العزيزة على كل عربي وكل مسلم وإن لم يكن عربي الجنس، فليست هي حزبا خاصا ولا ضد حزب خاص، وإنما هي جمعية الأمة المسلمة الجزائرية[2]. هذا الفهم هو الذي سار عليه في جهوده الإصلاحية والتي تبوأ بها مكانته المرموقة في الجمعية.

إذ كان من المؤسسين، وعضو المجلس الإداري للجمعية وأمين ماليتها ثم رئيسا لتحرير جريدتها، والتي كان يدافع من خلالها عن الأفكار الأساسية للجمعية وبرامجها في خضم مواجهة السلطة الاستعمارية، ويتبين ذلك من خلال الدور الحاسم الذي قام به في جميع مراحل الجمعية، واحتل مكانة بارزة عبر عنها أستاذه وزميله الشيخ عبد الحميد بن باديس حين قدمه أثناء اجتماع المجلس الإداري للجمعية سنة 1937 في قوله : "هو المعلم بمدرسة ميلة والمدرس والإمام بمسجدها الحر، وهو مؤرخ الجزائر الذكي الفؤاد العميق النظر الصائب التعليل ومدعم الدعوة الإصلاحية الدينية برسالته "الشرك ومظاهره" وأمين الجمعية من أول يومها الذي خدمها بخبرته وأمانته وأنفق عليها من ذاته رغم مرضه وهو مدير جريدة الجمعية (البصائر) منذ السنة الماضية (أي 1937)، وقد أقرت حالته الصحية بالتخلي عن إحدى المهنتين فخير إخوانه فاختاروا إبقاء إدارة البصائر لعهدته ورضوا -آسفين- بتخليه عن المالية محافظة على ما استرجعه بعد طول علاج من صحته - أدام الله عافيته"[3].

---

(1) مجلة الشهاب: الجزء الثامن، المجلد الثاني عشر،ص:352-358، قسنطينة، الجزائر، نوفمبر 1936م.

(2) البصائر: عدد 32، الجمعة 20 شوال 1356/ ديسمبر 1937.

(3) عبد الحميد بن باديس: جريدة البصائر العدد 137 يوم 1938/10/28.

وفي هذا التقديم تبرز الأعمال الجليلة التي أداها الشيخ مبارك الميلي من خلال جهوده الإصلاحية التي سنتعرف عليها في عمله الميداني في الفصل القادم.

وقد بلغت مكانة الميلي في جمعية العلماء حدا جعل زميله الشيخ البشير الإبراهيمي يقيم تلك الجهود بأنها تعد من حقوق الميلي على الجمعية في قوله : "وإن لأخينا مبارك الميلي على جمعية العلماء حقوقا، فقد كان مرجعها يوم تحلولك المشكلات، وتضل الآراء، فيشرق عليها بالرأي كأنه فلق الصبح، وقد كان معقلها يوم تشتبه المسالك وتكاد الأقدام تزل، فيثبت على الحق كالجبل الراسي، وكان منها بحيث لا يجترئ عنها مجترئ، ولا يفتري عليها مفتري، إلا رمته هذه بالسيف الذي لا تنبو مضاربه، وبعيدا لولا ملازمة المرض الذي أودى به، وتأثيره في قوته البدنية، وفي قوته العقلية، لكان فلتة في البطولة العلمية بهذا الوطن، كما كان آية في الذكاء ودقة الفهم والجلد على البحث والإطلاع"[1]. بل أن البشير الإبراهيمي يجعل حق مبارك الميلي في عنق الأمة الجزائرية كلها، لما قدمه من تضحيات كبيرة رغم مرضه في قوله: "وإن لأخينا مبارك الميلي على الأمة الجزائرية حقوقا بما علم وكتب وبما نصح وأرشد. وبما رد على هذا الدين من عوادي المبتدعين، وبما وقف من مواقف الإصلاح الديني والدنيوي..."[2].

هذه المكانة التي تبوأها الشيخ مبارك الميلي من خلال الدور الذي قام به في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين لم تكن من فراغ، لأن الرجل كان يعتبر نفسه خادما لها، و لم يتأخر ولو مرة في أداء المهام التي كان يكلف بها، إذ يقول في مدخل محاضرته التي ألقاها في المؤتمر العام للجمعية والمنعقد بمركزها العام بنادي الترقي بالجزائر العاصمة عام 1935 :"... غير أن الجمعية كلفتني بإلقاء كلمات عليكم في موضوع السرف المالي ووجوب مقاومته، وكيف تقام، فلم أر التواني عن استجابة دعائها وهي جمعية جد و لم أستجز القعود عن تلبية ندائها وهي تدعو إلى الرشد.."[3]. وفي هذا الإقرار أمام إطارات الجمعية، وفي تلك

---

(1) الشيخ البشير الإبراهيمي: من آثار محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ج2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ، ص666.

(2) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(3) سجل مؤتمر جمعية العلماء: مصدر سابق، ص 158.

الظروف الصعبة والحرجة يقدم الميلي درسا في الوفاء والتضحية من أجل مبادئ الجمعية مهما كانت الظروف ليغرس في مستمعيه قيم الإيمان والالتزام بالعمل لصالح الأمة.

وتكليفه بمهمة أمين مالية الجمعية له من الدلالة في تلك المكانة، فما أصعب مهمة تسيير مالية جمعية ناشئة محاصرة من الاستعمار الفرنسي وأعوانه، ورغم ذلك تحشم الميلي المهمة وقدم النموذج للإطار المسير للمال بروح عالية في الدقة والإتقان، وشهادة زميله الشيخ خير الدين الذي أنابه في تقديم التقرير المالي أصدق دليل في قوله: "إني أقف أمامكم في هذا الموقف نيابة عن الشيخ مبارك الميلي الذي منعه المرض من تقديم الحساب المالي بنفسه... وإني أنتهز هذه الفرصة لأقدم له بلسان المجلس الإداري الشكر والتقدير لأعماله وجهوده المتواصلة في كل ما يرقي الجمعية بها ويعلي من شأنها والاعتراف بأنه أدى للجمعية خدمة لا يقدر غيره أن يطلع بها، خمس سنوات كاملة وهو قائم بأمانة مال الجمعية في ضبطه والمحافظة عليه وضبط المال وحده عمل شاق، فكيف إذا انضافت إليه أعمال أخرى من دروس متواصلة ورحلات في مصلحة الجمعية"[1].

ويمكن التعرف أكثر على الانضباط والحرص الذي كان يوليه مبارك الميلي في تسيير شؤون الجمعية من روح المسؤولية التي كان يتمتع بها فنجده يسرع إلى تعيين من يقوم ببعض الجوانب التسييرية كي لا تتعطل مصلحة الجمعية في غيابه ويعلن ذلك على صفحات الجريدة[2]. وحصيلة التقارير المالية كان ينشرها في الجمعية بدءا من جريدة الشريعة والسنة ثم البصائر بكل تفاصيلها، وذلك في شفافية لكي يتعرف مناصرو ومدعمو الجمعية بأموالهم على الجوانب التي تصرف فيها أموال الجمعية.

موقفه من العروض الفرنسية:

للشيخ مبارك الميلي موقف واضح من قضية نشر البرقية ثم استقالة الشيخ الطيب العقبي[*] من الجمعية، حيث رفض الميلي نشرها على صفحات البصائر التي كان يدير

---

[1] الشيخ خير الدين: " مذكرات خير الدين"ج1 ،دار حلب، الجزائر،1985،ص ص 143، 144.

[2] البصائر، عدد 33، ديسمبر 1936/ 17 جمادى الثانية 1355 .

[*] بشأن تفاصيل استقالة العقبي من الجمعية أنظر عبد الكريم بوالصفصاف، مرجع سابق، ص 76 وما بعدها.

تحريرها، ومما جاء في رده: أنها ليست جريدته الخاصة، إنما هي جريدة الجمعية ولا يستطيع إبرازها إلا بقرار منها، فلما طُلب منه تقديم استقالته، أجابهم : بأي صفة أقدم الاستقالة؟ إذا احتجت إلى تقديم استقالتي فإني أقدمها لرئيس الجمعية"[1]. وهذا الموقف وإن كان يبدو مويدا لموقف بن باديس في القضية، إلا أنه ينّم عن الالتزام بالعمل داخل الأطر القانونية لجمعية العلماء وهو الموقف الذي ثبت عليه بعد وفاة الشيخ عبد الحميد بن باديس سنة 1940، حيث حاولت الإدارة الفرنسية عبثا مساومة جمعية العلماء في من يخلفه في رئاستها حتى تثني الجمعية عن سياستها المعادية لفرنسا ومحاربتها الاندماج، وحثت أعضائها على انتخاب رجل معتدل يكون أحمد توفيق المدني، مبدية استعداد السلطات الفرنسية لتقديم كل العون والمساعدة...الوفد الذي جاء بهذه الرسالة كان مبعوثا من طرف الوالي العام الذي جاء ليقدم التعازي في وفاة الشيخ عبد الحميد بن باديس. فتولى الرد الشيخ مبارك الميلي على الاقتراح الذي قُدم لأعضاء الجمعية، وكان الرفض نصيبه بتوضيحه "أن من يملك تعيين الرئيس هو الاجتماع العام للجمعية، وقد اخترنا من قبل الشيخ البشير الإبراهيمي نائبا للرئيس في حياته. وهو ما يزال منفيا في مدينة آفلو، فعندما تطلقون سراح الشيخ البشير الإبراهيمي ستجتمع الجمعية وتختار من ينتخبه الأعضاء[2].

وإن مواقف الشيخ مبارك الميلي السياسية والفكرية من العروض الفرنسية ومن مواجهة الطرقية نابعة في رأينا من شخصيته الصلبة ذات التكوين العلمي الرزين، والموقف المبني على العلم هو الموقف السليم في غالب الأحيان، ولذلك نجد بن باديس يصفه بالعميق النظر الصائب التعليل، و لم تكن هذه التزكية من بن باديس وأمام المجلس الإداري للجمعية إلا بعد معاشرة طويلة له بلغت عشرين سنة جلها مواقف وامتحانات صعبة وأعباء كبيرة تحملها مبارك الميلي بروح عالية من المسؤولية، ولولا هذه الصلابة والإتقان والإخلاص في المسؤولية ما كانت تسند له أخطر المهام والمسؤوليات في الجمعية من تسيير لماليتها وإدارة صحيفتها. واليوم يقف الباحثون في تراثه على سر من تلك الأسرار في شخصيته العلمية إذ

---

[1] الشيخ خير الدين: المرجع السابق،ص:343.

[2] نفسه، ص:341.

يقول الأستاذ عبد اللطيف عبادة مدعما رأي الشيخ العربي التبسي في وصفه للميلي بالمحقق ومؤرخ الجزائر بقوله: "لأن الميلي كان كالغربال لا يترك شاردة ولا واردة تمّر دون إخضاعها للروح النقدية التي جبل عليها"[1].

كما ينقل لنا أحمد حماني وهو أحد المعاصرين له وقد اشتغل معه في صحيفة البصائر عن ميزة في شخصية الملي في قوله: "وقد كان الشيخ مبارك ضد اللين والمهادنة ويترع إلى الشدة والصلابة في مقاومة البدع". ولولا هذه الصلابة في مواقفه تجاه محاربة البدع ما كان للجمعية أن تحد من استفحال الطرقية، التي اقترن ذكرها بذكر مبارك الميلي لصرامته وشدته في التصدي لها علميا وعمليا. وبهذا زادت مكانته في الجمعية.

وكان الشيخ مبارك الميلي في طليعة العلماء المصلحين، الذين تصدوا للانحرافات والأمراض التي تنخر في بنية المجتمع الجزائري، وتمنعه من اليقظة والوعي من حالته المليئة بالبؤس والتخلف والخضوع للقهر الاستعماري.

ووظف في سبيل ذلك حرارة الالتزام الذي اشتهر به مع ما يتميز به من علم وذكاء ومهارة في التوجيه إلى الجماهير بنشر المبادئ الإصلاحية التي تستهدف تنقية الإسلام مما علق به من شوائب ونفخ الحياة في الشخصية الوطنية.

وكما أنصفه زملاؤه ومعاصروه من المصلحين والباحثين، فقد أنصفه أيضا الذين تناولوا بعض الجوانب من جهوده الإصلاحية، إذ يقول الأستاذ بوالصفصاف: "وهكذا كان الشيخ مبارك الميلي شخصية إصلاحية بارزة، ذات وزن كبير بين جماعة المصلحين الجزائريين، كما كان من أكبر دعاة الإصلاح المعروفين بإنتاجهم الفكري الغزير... وكان يتأجج في شتى ميادين الحياة الأدبية والعلمية والسياسية والاجتماعية، بروح الغيرة على وطنه الذي كان يراه يسير نحو التدهور والانحطاط[2].

---

[1] عبد اللطيف عبادة: مبارك محمد الهلالي الميلي المناضل المصلح، السلفي الوطني التقدمي، بحث مرقون، ص1.

[2] عبيد الكريم بوالصفصاف: المرجع السابق، ص83.

ورغم الصدمة التي لحقت به إثر وفاة بن باديس سنة 1940م، وتأثره الكبير، حيث يذكر الشيخ أحمد حماني أنه أغمي عليه بالقرب من جثمانه، ثم استعاد وعيه وملك صبره وإيمانه، وخلفه في الإطلاع بالمسؤوليات الجسام لأن الشيخ البشير الإبراهيمي كان لا يزال مبعدا بمدينة آفلو. وتولى مهمة التعليم وإتمام دروس طلبة الجامع الأخضر بقسنطينة رغم المرض الذي نخر جسمه[1]، وظل مدافعا علي الحركة الإصلاحية بجهوده المتعددة في ميادين الإصلاح في التربية والتعليم، وهو ما سنعرفه في أعماله الميدانية في ما يأتي.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[1] أحمد حماني: مرجع سابق، ص16.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وجوهر موقف مبارك الميلي من الإندماج نلمسه بعمق في قوله: "إننا قوم لا نكـــره الأجنبي ولا نرفض الاتحاد معه، وإنما نرفض الإندماج ونمقت من ينكر جنســـه، ويلتصـق بغيره لأن جنسه ضعيف في الحال وغيره قوي الآن[1].

ففي هذه المعادلة يتبين تفتح مبارك الميلي على الأفكار التي كانت ســـائدة آنـذاك، ومنها الحصول على حقوق المواطنة للجزائريين في إطار القوانين الفرنسية كما كانت تؤمـن به جمعية العلماء في سياستها الإصلاحية المتدرجة في عملها على تحقيق الاســتقلال الديـني والثقافي كأولوية، أما المطالبة بالاستقلال والانفصال فذلك عمل ضمني. كما يستنتج مـــن الأهداف الكبرى لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

ويؤكد هذا التحليل قوله: "لعل في هذا بيان لخطتنا الداخلية والخارجية، وهي بكـــل صراحة وسذاجة: العمل لرفع مستوانا الاجتماعي في دائرة الإسلام والعروبة من غير كراهية لجنس أو مبدأ أو شخص، إلا جنس الظلم ومبدأ التفوق، وشخص الظـــالم والمتفـــوق"[2]. أي أن الجهد الإصلاحي منصّب على تحقيق الإنتماء العربي الإسلامي للجزائر، وهذا في حـد ذاته طرح استقلالي ضد فكرة الإدماج، وفي نفس الوقت يبين التفتح السياسي للميلي علـى أفكار التعاون مع بقية شعوب العالم. وقد حدد أن موقف الكراهية هو منحصر في الظلـــم بكل أشكاله.

وبهذا الموقف يكون الميلي قد ساهم برأيه في أهم القضايا التي كانت تطرح بشـــكل واسع خلال حقبة الثلاثينات بالخصوص، والتي نوّرت الرأي العام والتشكيلات السياسية في تلك الحقبة، وعبرت عن موقف الجمعية القاطع في هذه المسألة.

أما فيما يتصل بقضية التجنيس، فإنه تناول القضية بمنهجية علميـــة وتفكـــير ســـليم واستقصاء دقيق في البحث، مبديا رأيه في أن المسألة لا يحسم فيها فرد واحد، واقـــترح أن يبحثها الكتّاب من ثلاث جهات: قانونية سياسية ودينية[3].

---

[1] مبارك الميلي: البصائر، عدد 90، الجمعة 06 شوال 1356 هـ/ 10 ديسمبر 1937.

[2] مبارك الميلي: المصدر نفسه.

[3] مبارك الميلي: الكتاب وقضية التجنيس، الإصلاح، عدد 12 جوان 1930، ص2.

في هذا الباب اقترح الأمين العمودي لإلمامه بالثقافة القانونية وإحاطته بالممارسات القانونية، ليصل إلى علاقة التجنس بالديمقراطية الفرنسية، ومن الجهة الدينية رأى أن الموضوع يبحث من عدة زوايا: في ماذا يلزم الجزائريين تعطيل ما بقي لهم من دينهم، واقترح لهذا الجانب الشيخ عبد الحميد بن باديس لاعتقاده أنه لا يكتم علما آتاه الله إياه ولا يبخل بخدمة دينه وقومه... وإذا لم يكن ذلك فأنى نلح على "بيضاوي" (يقصد شخصه) ليعود إلى موضوعه نقد العلماء.

وأما الجهة القومية في الموضوع، وهذه تكون لأصحاب الأقلام الذين ينطلقون في الكتابة في الموضوع بعد معرفتهم حكم الله في القضية[1]. ويبدو من هذا الطرح التدقيق العلمي والشمولية في تناول قضية مصيرية في حياة الأمة، لا يمكن لفرد واحد أن يفصل فيها. فهي قضية كل الأطراف الموجودة في الساحة السياسية الجزائرية، ويؤكد استنتاجنا هذا ما ذهب إليه الأستاذ محمد ناصر : "ومع ذلك فقد دعا مبارك الميلي إلى فتح نقاش بين الطرفين يؤدي إلى تقريب شقة الخلاف بين وجهة نظر المصلحين ووجهة نظر المتجنسين. وحتى إن لم يستقر على نتيجة محمودة، فعلى الأقل من أن تزيل اعتقاد المصلحين في التجنس الإلحاد، وتزيل اعتقاد المتجنسين في المصلحين الجمود"[2].

مع أن هذه الدعوة له لتناول الموضوع من جميع الجهات كانت بالنسبة إليه من القضايا المستعجل النظر فيها، تدعيما لرأي العمودي في الموضوع[*]. ومن هذا الطرح نستنتج أن مبارك الميلي يريد موقفا مؤسسا على رؤى قانونية ودينية وقومية، وهو في حد ذاته موقف متميز في بداية الثلاثينات.

---

[1] المصدر السابق، ص. نفسها.

[2] نفسه ،ص نفسها.

[*] عالج الأمين العمودي (الشخصية الإصلاحية وعضو جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في مجلسها الإداري، وكان يعبر عن آراء وقضايا الحركة الإصلاحية باللغة الفرنسية في جريدة الدفاع التي أسسها سنة 1934) موضوع التجنس معالجة دقيقة وشاملة وصريحة فقد وقف ضد التجنيس الفردي مبينا آثاره الوخيمة من النواحي القانونية والاجتماعية في توسيع الهوة بين السكان الجزائريين الأصليين والفرنسيين انطلاقا من واقع العدد المحدود للمتجنسين الجزائريين ودافع عن التجنيس الجماعي في إطار حقوق المواطنة مع عدم المس بالنظام الإسلامي للأحوال الشخصية (أنظر نور الدين ثنيو: مرجع سابق، ص132).

ولما أصدر الشيخ عبد الحميد بن باديس سنة 1938م فتوى حـــرم فيـــها اكتســـاب جنسية غير إسلامية، واعتبر المتجنس لا ينتمي إلى جماعة المسلمين، ويقع بذلك في حكـــم المرتد[1]، قام مبارك الميلي بالتخفيف من حدتها موضحا أن هذه الفتاوي ليست إعلانـــات عـــداوة ضـــد المتجنسين، و لم تكن تستهدف أن تجعلهم محتقرين، وميز بـــين التجنـــس والمتجنس، فالتجنس عمل لا يقره الشرع الإلهي، أما المتجنس فهو شخص يحمل صفـــات حميدة وسلبية. إذ ما أتى إلينا كرجل خير استقبلناه بسرور لا نـــأخذ بالحســـبان وضعيتـــه الشخصية[2]. وبهذا الموقف يتبين أن مبارك الميلي له موقفه من أهم قضايـــا الإصـــلاح في عصره (قضية الإدماج والتجنس)، مواجها بذلك السياسة الاستعمارية إلى جانب إخوانـــه العلماء المصلحين الذين ذكرنا آراءهم ومواقفهم من هذه القضية الحساسة.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[1] البصائر: المصدر السابق، 14 جانفي 1938.

[2] البصائر: المصدر السابق، 18 جانفي 1938.

خلاصة الفصل :

من خلال مباحث هذا الفصل يشكل المحور الأساسي في هـــذا البحـــث، عرفنـــا الخلفيات الفكرية، الإصلاحية للشيخ مبارك الميلي وآراءه في القضايا الإصلاحية. فقد بـــنى مبارك الميلي فكره الإصلاحي على المرجعية الإسلامية، السلفية، المجددة، بحركـــة العلمـــاء المصلحين المعاصرين في العالم الإسلامي، و أستاذه وزميله الشيخ عبد الحميد بن بـــاديس. حيث ساهم إلى جانبه في جزأرة الحركة الإصلاحية السلفية.

وقد بين آراءه العلمية في ما طرحه علماء السلفية في الجانب العقـــدي بـــالخصوص، وأبدى آراءه بكل اتزان وموضوعية.

أما آراءه السياسية فقد كانت حصيلة تفاعل ما اعتنقه من مبادئ إصلاحية وواقـــع المجتمع الجزائري. فقد أبدى رأيه ومواقفه في القضايا الإصلاحية المطروحة بحدة في وقتـــه، سواء داخل الحركة الإصلاحية، حيث قدم نقده للفهومات الخاطئة من طرف بعض علمـــاء عصره، وتخصص في نقد الفكر السلفي للطرقية، مبطلا كل مزاعمها العلميـــة، ومتصديـــا لامتداداتها في المجتمع بمواقف جريئة. أو في مواجهته لدعاة الإدماج والتجنس، حيث رفـــض الدعوة الإندماجية جملة وتفصيلا، وأبدى رأيا متميزا بشأن التجنس دعا فيـــه إلى مناقشـــة جوهرية وعميقة من طرف المختصين، لأن المسألة لا تحسن بفهم فرد بعينه.

وقد تجلت القيمة الفكرية النظرية والعملية لمواقف مبارك الميلي وآراءه في دفاعه عـــن مبادئ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ومكانته القيادية في هياكلها، واستمر على مواقفـــه الثابتة رغم المحن والصعوبات التي واجهتها الجمعية في عقد الثلاثينات وخاصـــة في نهايتـــه حيث ثبت أمام عروض السلطات الفرنسية بعد وفاة الشيخ عبد الحميد بن باديس، ويمكـــن القول أن آراء وموقف مبارك الميلي زادت في بلورة حل القضية الجزائرية من المنظور الوطـــني الإسلامي.

هذه الأفكار النظرية ستكون محك عمله الإصلاحي في الميدان كمـــا ســـنعرضها في الفصل القادم.

* القسم الثاني *

وسائل الإصلاح عند مبارك الميلي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

* الفصل الرابع *

جهوده الميدانيـــــة في إصلاح المجتمـــع

* المبحث الأول : جهوده في التربية والتعليم
* المبحث الثاني : موقفه من تعليم المرأة
* المبحث الثالث : التدريس بالمساجد وتأسيس الجمعيات والنوادي
* المبحث الرابع : تأسيس وتطوير الصحافة العربية في الجزائر

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تنوعت جهود الشيخ مبارك الميلي وتعددت مناشط أعماله وميادين جهاده العلمي والفكري. فمن جهوده العظيمة في مجال التربية والتعليم، في تأسيسه للمدارس وتجديده للبرامج، إلى تأليف للكتب، بموازاة جهوده الكبيرة في الكتابة الصحفية والمساهمة في تأسيس وتسيير جرائد الحركة الإصلاحية، إلى العمل الميداني في الوعظ والإرشاد بالمساجد التي كان ينتقل إليها في البوادي والحواضر.

إن الجهود الميدانية للشيخ مبارك الميلي في المجالات السابقة الذكر تعد وسائل إصلاحية اشترك فيها مع رواد الحركة الإصلاحية كما عرفنا سابقا، إلا أنه تميز بمنهجه الإصلاحي عن طريق استخدامه هذه الوسائل (المدرسة، المساجد، النوادي والجمعيات)، إلا أن مبارك الميلي تميز بتجديد هذه الوسائل من حيث التوظيف لها، واستخدام وسائل أخرى مثل التأليف في مجالات فكرية بعينها، والتي تفرد بها. وهو ما سنعرفه في الفصل الموالي، الذي انطلق فيه من ساحة التربية والتعليم إلى الميادين الأخرى منذ انخراطه المبكر في العمل الإصلاحي مباشرة بعد عودته من دراسته في تونس.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول : جهوده في التربية والتعليم

إن التربية والتعليم من الحقول البارزة التي أثمرت فيها الجهود الإصلاحيـــة للشـــيخ "مبارك الميلي" رحمه الله تعالى، وذلك من خلال تقديره لأولوية التعليم وأهميته في إصـــلاح المجتمع الجزائري.

وقد انخرط الشيخ" مبارك الميلي" بكامل جهوده، واستخدم كل مؤهلاته وقدراتـه في التربية والتعليم،منذ عودته من جامع الزيتونة بشهادة التطويع،شأنه شأن العلماء المصلحـين الآخرين الذين بدؤوا النشاط التعليمـــي منذ بداية القرن العشرين.

وقبل أن نتتبع جهود المعلم " مبارك الميلي" في حقل التربية والتعليم في الميدان بدايـــة من قسنطينة، ثم التنقل إلى مدينة الأغواط ثم الاستقرار أخيرا بمدينة ميلة، وما قام بـــه مـــن تأسيـــس المدارس وتجديد البرامج واستحداث الوسائل التربوية، يجدر أن نبرز ولو بصفـــة موجزة أهمية العلم والتعليم عند هذا الرجل الذي نذر عمره كله في سبيلهما، وترك بصماتـه الواضحة في ميدان العمل الإصلاحي عن طريقهما.

إن مبارك الميلي الذي اقتحم أبواب طلب العلم بإرادة فولاذية وهو في سن مبكـــرة وفي ظروف قاسية، كما ذكرنا في مبحث تحصيله العلمي، ما فتئ طيلة مسيرته التعليميـــة يدعو إلى ضرورة العلم والتعليم؛ كسبيل وحيد مضمون للتغيير السليم والرقي المفيد.

ففي مقارنة له عن مكانة وأهمية وضرورة العلم لنهوض الإنسان نراه يؤكد علـــى أن قوت العقل لدى الإنسان هو العلم "إن معدة الروح هو العقل، وأن قوتها هو العلم، فـــروح بلا عقل كجسد بلا معدة، وعقل بلا علم كمعدة بلا قوت[1]".

وينطلق" مبارك الميلي" في بيان أهمية العلم والتعليم في حياة الإنسان محللا ذلـــك في مقارنة منطقية، إذ أنه لا فائدة ترجى من عقل بلا علم، أي أن مثل هذا العقل سـيتعطل ولا يقوم بأي وظيفة لصالح الإنسان؛ مثله كمثل المعدة الخاوية من الطعام إذ لا فـــائدة منـــها لجسم الإنسان. ولا يستند في ذلك الحكم على المقارنة العقلية فقط، إذ يعزز فكرته بفـــهم

---

[1] مبارك الميلي : البصائر: حركة العلم والدين، عدد08/21 فيفري1936،ص2.

وتوظيف عملي لآيات القرآن الكريم في إشارة إلى أول سورة نزلت من القرآن مستنبطا ذلك بالقراءة وذكر العلم والقلم، ثم جاءت الآيات في مدح العلماء والعلم وتلك عناية بقوت الروح[1].

وبحرقة الحريص على توفير وتيسير سبل طلب العلم من المنظور القرآني الذي أكده يتساءل بقوة: "فأي أرض ملكناها لبذور العلم قوت الروح ؟"، ففي هذا التنبيه البليغ بأن العلم نبات وزرع فيه من الدلالات ما يؤكد العمق والتدقيق لتشخيص الواقع التربوي وما المطلوب عمله من أجل زرع قوت الروح أي العلم، وهو خطاب فيه من القوة في الحجة ما يجعل القارئ أو المستمع في موقع المسؤولية عن تغيير الواقع؛ وذلك من خلال الإقبال على الزرع، أي تشجيع طلب العلم وتحصيله. وتوضح بقية تساؤلاته في هذا المقام أن تحصيل العلم الذي هو بمثابة الزرع يحتاج إلى حفظه من التلف وغير ذلك "وأي دور اقتنيناها لحفظ قوت الروح ؟ وأي مصانع أنشأناها لمنفعة جانب الروح[2]".

هذه المكانة التي يثبتها الميلي بقوة المنطق والدين وبأسلوب أدبي متين بليغ يبين أن الرجل كان يتوفر على تصور جديد وشامل لجوانب العملية التعليمية وأهدافها ووسائلها، بل ومحيطها، ففي القانون الأساسي لجمعية حياة الشباب بميلة، يحدد غاية الجمعية في قوله :"غاية الجمعية ترقية عقول المسلمين كبارا وصغارا بالعلوم العربية والفرنسية ونتائج العقول الإنسانية"[3].

إذن ترقية العقل هو الهدف الأساسي من التعليم، والعقل في هذا المستوى المنشود من الرقي لا شك أنه سيؤدي وظيفته في تحقيق التقدم والتطور، ولذلك فطلب العلم عند مبارك الميلي ليس سوى غاية لتحقيق ترقية العقول وتهذيب الأخلاق.

ومثل هذا الهدف يتحقق من المعارف المختلفة وبشتى اللغات وبما أنتجته كل عقول البشرية في العلوم وذلك مقرونا بالآداب والأخلاق الإسلامية.

---

[1] نفسه، ص نفسها

[2] نفسه، ص نفسها.

[3] مبارك الميلي : البصائر : عدد7، في 14 فيفري 1936.

وإذا كان هذا هو التصور العام لفلسفة "مبارك الميلي" في حقل التربيـــة والتعليـــم، فكيف تعامل، مع ذلك الواقع التربوي والتعليمي السائد، وبذل جهدا إصلاحيـــا متمـــيزا وهذا ما سنحاول التعرض له فيما يأتي.

*** التدريس وتأسيس المدارس:**

يعتبر"مبارك الميلي" من الرواد الأوائل الذين أسسوا الحركة الإصلاحيـــة التعليميـــة العربية في الجزائر مباشرة بعد تخرجه من جامع الزيتونة وإقامته بقسنطينة عام 1925 وبدايـــة ممارسته لمهنة التعليم بالمكتب العربي بـــ" سيدي بو معزة".

وقد اعتبر بعض الباحثين هذه الخطوة لبداية التعليم العصري على يد "مبارك الميلـي" وتأسيس " الشيخ عبد الحميد بن باديس" جريدة "المنتقد" في هذه السنة بمثابة بداية النهضـــة الحقيقة للحركة الإصلاحية في الجزائر[1]، التي تعاضد فيها التعليم والتدريس مع الصحافـــة والكتابة، وهو مامثل البدايات الحقيقية للنهضة الإسلامية الجزائرية.

وقد استدعى "مبارك الميلي" من طرف المكتب الإبتدائي العربي بـــ(سيدي بو معزة) خلفا للشيخ " محمد الشريف الصائغي"[*] الذي اعتزل المكتب لأعذار قدمها[2].

وقد رحبت جريدة النجاح في أخبارها المحلية باستدعاء "مبارك الميلي" وتوسمت فيـــه نفعا كبيرا، ويتضح أن سمعة مبارك قد سبقت الوسط الإعلامي والتربوي "و بما نعلمه مـــن حضرة الشيخ مبارك الميلي من الإطلاع على الأساليب التعليميـــة وحســبنا أنـــه مـــن متطـــوعي الجامع الأعظم بتونس، فأنا نتحقق أنه سيهدي للأمة شبيبة ذكية صالحـــة"[3].

وقد عرّف "مبارك الميلي" في فترة لاحقة مكتب (سيدي بو معزة) قائلا: "إن أول مكتـــب

---

(1) عبد المالك مرتاض: نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر(1925-1954) ،الطبعة الثانية ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر 1983.ص.9.

(*) محمد الشريف الصائغي من المعلمين الأوائل بالمكتب المذكور الذي تم تاسيسه في 1922، انتقل إلى بلدة مسكانة ناحية عين البيضـــاء و أسس مكتب للتعليم و مسجدا، مواصلا مشواره الإصلاحي في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (سليمان الصيد: نفح الازهار عمـــا في قسنطينة من أخبار، مطبعة المجلات والجرائد الجزائر، ص 158.

(2) جريدة النجاح: عدد 210 في 29/05/1925.

(3) نفسه، ص نفسها.

عربي على نمط عصري بهذه البلاد هو المكتب العربي الابتدائي بسيدي بو معزة ومساحته لا تتجاوز الأربعين مترا"[1].

ويقع مكتب " سيدي بو معزة" في مسجد يحمل نفس الاسم كائن بذات النهج الذي كانت توجد به مطبعة وإدارة الشهاب وهو اليوم يحمل اسم" الشيخ عبد الحميد بن باديس"[2].

ونستخلص مما سبق أن " مبارك الميلي" التحق بالمكتب المذكور كمدرس وحيد كما كان يقتضيه واقع التعليم العربي، حيث العدد القليل للتلاميذ والتنظيم الدراسي ونوعية المواد والمناهج، وهو الواقع الذي سيكون من صلب جهود "مبارك الميلي" بصفته جدية في تغييره.

وخلال تلك الفترة القصيرة من التدريس بمكتب " سيدي بو معزة"، بذل كل ما عرف عنه من عزم وجد ليقدم ما هو أحسن[3].

وقد اجتهد منذ البداية لتكوين أحسن نموذج للمدارس الحرة العربية القائمة آنذاك حسب شهادة "توفيق المدني" الذي التقى به في اجتماع نظم بمدرسته القرآنية الصغيرة في جوان 1925[4].

وقد مكث" مبارك الميلي"حوالي أربعة عشر شهرا،وهذا التقرير بناء على خبر استدعائه السابق الذكر[5]، وخبر تأكيد انقطاعه عن التدريس بالمكتب بصفة نهائية كما جاء حرفيا في صحيفة النجاح..."و إنما نعلم الناس إعلاما باتا لما لنا من الاتصال بصديقنا نشره في الشهاب عدد31 والسلام"[6].

وقد جاء نشر هذا الخبر كتوضيح من صاحب هذا الخبر لما ترتب من شكوك وحيرة لدى أولياء تلامذة المكتب العربي في إثر المقال الذي نشره متأسفا ومودعا صديقه "مبارك

---

(1) جريدة الشهاب: ج11-1937.ص.502.

(2) أحمد حماني: المرجع السابق،،ج.2، ص.15.

(3) عبد الحفيظ الجنان: المصدر السابق،ص.271.

(4) أحمد توفيق المدني : مبارك الميلي مؤرخ الجزائر، البصائر ، ع26 ، 8 مارس1948،ص4.

(5) النجاح: المصدر السابق، ص نفسها.

(6) عبد الحفيظ الجنان: النجاح، عدد 325، لـ 23/07/1926

الميلي" "غاب مبارك وبغيبته أصيب الأربعون من التلامذة المعطلة دروسهم"[1]. وقد ترتب عن ذلك الإنقطاع المفاجئ تعطيل الدروس بالمكتب إلى أن انتهى في سنة 1927[2].

وإذا كان من الصعب تحديد كل الأسباب الحقيقية التي جعلت "مبارك الميلي" يغادر المكتب العربي بتلك الطريقة المفاجئة، وقسنطينة بالخصوص، وما كانت تتميز به من أجواء مناسبة للعمل الإصلاحي، فإن السبب الأساسي لقرار المغادرة كان وليد عدم تحسن الوضعية العامة للمكتب العربي الذي نبه إليها "مبارك" من قبل في قوله: "وبمرور سنة عليّ معلما بهذا المكتب رأيت أن أعرض حالته في ظرف هذه السنة كما هي كي يطلع من يهمه شأن التعليم العربي"[3].

وحالة المكتب كان قد شخصها من قبل أمام لجنة المكتب وأولياء التلاميذ، في كلمة مفصلة عن حالة التعليم بالمكتب منتقدا كل جوانب العملية التعليمية، خاصة الحجم الساعي المحدود جدا في تقديره لتحقيق الحد الأدنى من تحصيل التلاميذ للمعارف الأساسية "ليكون اقتراحي هذا وتنفيذكم له كاستعمال الدواء بعد معرفة الداء"[4].

هذه المقترحات تم عرضها بعد حوالي ستة أشهر من مباشرته للتعليم بالمكتب، مما يعني أن الرجل منذ البداية يحمل مشروعا تربويا جديدا إصلاحيا سنقف على مضمونه في الصفحات القادمة.

ولكن وضعية المكتب لم تتحسن و لم ينفذ أي شيء من اقتراحاته، ولأن أزمة مالية عصفت بالمكتب عجلت برحيله، كما يذكر أحمد حماني[5].

ولكن تبقى هناك أسباب مهمة في اختياره الأغواط، من بينها ما استنتجه" أحمد صاري" والمتعلقة باستراتيجية " ابن باديس " في توزيع تلامذته النجباء لنشر الفكر

---

(1) عبد الحفيظ الجنان: النجاح، عدد 323، لـ 1926/07/28.

(2) سليمان الصيد: مصدر سابق،ص204.

(3) الشهاب:عدد 31، لـ 1926/06/17.

(4) أحمد حماني: مصدر سابق، ص15.

(5) النجاح:عدد152، لـ 1925/04/12.

الإصلاحي في أرجاء القطر، وكذلك دور "عبد العزيز الهاشمي(*)" في تيسير الإتصال بينه وبين أهالي الأغواط تيسيرا لتنفيذ وصية والده في تشييد مدرسة بالأغواط،و بين زميله في الدراسة بالزيتونة "مبارك"[1].

كما أن حاجة الأغواطيين وعزمهم على تأسيس نهضة إصلاحية على غرار بوادر الإصلاح التي بدأت تظهر في بعض الجهات من الوطن، اقتضت وجود عالم يكون في مستوى المهمة ليملأ ذلك الفراغ القائم بالمنطقة في مجال الوعظ والإرشاد. ولأن الشيخ" محمد السعيد الزاهري " كان ذا تكوين أدبي ومعلم مقتدر لم يستطع تلبية تلك الحاجة؛ خاصة و أن الطرقية قد عششت بالمنطقة. ومن هذا الباب باتت الحاجة ملحة لمصلح عالم بالشريعة وأصول الدين مثل الشيخ " مبارك الميلي " الذي قام بزيارة للأغواط رفقة عبد العزيز الهاشمي، وقد نشرت أسبوعية الشهاب خبر هذه الزيارة، والتي اطلع من خلالها على الأوضاع العامة وتعرف على جماعة الإصلاح والمدرسة القائمة، ووافق تلبية الدعوة للتنقل في وقت لاحق إلى هناك، وبذلك اجتمعت أسباب انتقال الشيخ" مبارك الميلي" للأغواط[2].

بدأ "مبارك الميلي"تعليمه بالأغواط بتشييده رفقة أهالي المدينة مدرسة الشبيبة التي فتحت أبوابها في فيفري 1927، ليتولى الإشراف عليها والتدريس بها[3].

وهنا لابد من الإشارة إلى الخطأ الذي ذكره "محمد علي دبوز"[4]، و"عبد الكريم

(*) هو عبد العزيز بن محمد بن براهيم بن أحمد الشريف، وهو الإبن الثالث، ولد سنة 1898 بقرية البياضة بالوادي، واصل تعليمه بالزيتونة بين سنتي 1913 و 1923، وبعد عودته ترأس الزاوية القادرية بعميش. ومنذ منتصف الثلاثينات بدأ يتقرب من جمعية العلماء، ثم انتخب سنة 1937 عضوا بمكتبها، ومنذ ذلك الوقت تغير موقف الإدارة الاستعمارية نحوه، في بداية سنة 1938 وبعد زيارة السيد لويس ميليو (مدير الشؤون الأهلية بالوادي) احتج عبد العزيز على مرسوم 08 مارس 1938 الذي يحد من التعليم العربي الحر، وعندها ألقي عليه القبض، وأودع سجن الكدية بقسنطينة، و لم يفرج عنه إلا بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، إلا أنه بقي مبعدا عن منطقة الوادي حتى وفاته في بداية الاستقلال. أنظر أحمد صاري، مرجع سابق، ص113).

(1) أحمد صاري: المرجع السابق،ص.113.

(2) الشهاب: جويلية 1926.

(3) أحمد بو شمال: مجلة الشهاب عدد 85، 24 فيفري 1927،ص ص: 15، 18.

(4) محمد علي دبوز: نهضة الجزائر الحديثة و ثورتها المباركة، ط1، المطبعة العربية،1969 ، ص257.

الخطيب"[1] في أن "مبارك الميلي" ذهب إلى الأغواط في 1923، لأنه خلال هذه السنة ما يزال طالبا للعلم بجامع الزيتونة، وقد عثرنا له على أثره الوحيد في الصحافة التونسية في تشطيره لبيت شعري مع زميله السعيد الزاهري على صفحات جريدة النهضة[2]. ولو لم يكن هذا الأثر كافيا لإثبات بقائه في تونس، فقد أشرنا إلى زيارة صديقه عبد الحفيظ الجنان له في تونس خلال سنة 1924م[3].

وواضح جدا ما كنا أوردناه من أخبار استدعائه من طرف المكتب العربي للتعليم بـ"سيدي بو معزة" في منتصف سنة، 1925 خلفا للشيخ محمد الشريف الصائغي، ثم أيضا أخبار مغادرته للمكتب العربي للتعليم في منتصف سنة 1926[4].

وقد تيسرت لمبارك الميلي أهم الأسباب في تأسيسه لمدرسة عصرية لما كان يطمح إليه، فالمدرسة في بناية جديدة و واسعة، وعدد التلاميذ يربو عن السبعين، والراتب الشهري كان مبلغا قياسيا 700 فرنك فرنسي، وهو أجر لم يحلم به إلا موظفو الحكومة، أما أجر معلمي جيل مبارك الميلي. فقد كان لا يتجاوز الـ 300 فرنك فرنسي[5]. هذه الإمكانات المادية المعتبرة وحاجة المنطقة إلى جهد إصلاحي شامل جعلت مبارك الميلي يرابط في مدرسة الشبيبة مدة سبع سنوات كاملة من 1927 إلى 1933 نشر خلالها تعليما عصريا جذب إليه الكثير من التلامذة[6].

وقد وصل مبارك الميلي إلى النتائج التربوية التي كانت موضع تقدير كبير من طرف المعاصرين الذين اعتبروا ذلك بمثابة ثورة على الكثير من أسس التعليم، بل أن مدرسة الأغواط اعتبرت من المدارس العصرية النادرة في تلك الفترة[7]، كما ستقف على ذلك في جهوده في تجديد النظام التعليمي في مبحثنا الموالي.

---

(1) أحمد الخطيب: المرجع السابق،ص164

(2) جريدة النهضة جانفي 1924

(3) أنظر الفصل الثاني من هذا البحث.

(4) أنظر الصفحة 115 من هذا البحث.

(5) محمد علي دبوز: المرجع السابق،ص 262.

(6) Ali Merad, op. cit, p 343

(7) أحمد بوزيد قصيبة: البصائر عدد 26، في 15 مارس 1948.

وقد بلغت سمعة مدرسة الشبيبة بالأغواط إلى الزيتونة بتونس من خلال نوعية الطلبة الذين ابتعثهم مبارك الميلي لمواصلة دراساتهم العليا، فقد كان تحصيلهم العلمي المتين يخبر عن خلفيتهم العلمية القوية التي تلقوها على يد مبارك الميلي بالأغواط، وتؤكد شهادة أحد زملاء طلبته بتونس ذلك التميز بقوله: "كنا نشم في مخايلهم آيات جلال مربيهم، ونلمح في قرائحهم آثار المقتدر الذي نوّر عقولهم، وصفاء أذهانهم، فكنا نتمنى لو أخذنا من الفيض الذي اخذوا منه[1]".

كما كانت سمعة مدرسة الشبيبة في شخص مبارك الميلي موضع تقدير في المدرسة الثعالبية بالجزائر العاصمة، لما كان يتميز به تلامذته من تفوق أثناء مواصلتهم لدراستهم العليا بها، الأمر الذي جعل الشيخ" بن زكري" مسؤول القسم العربي يقوم بزيارة للشيخ مبارك في أحد فنادق العاصمة معبرا له عن ذلك التقدير[2].

إن جهود مبارك الميلي في التعليم بمدرسة الشبيبة بالأغواط كانت القاعدة الصلبة لاستمرارية التعليم العربي بعد رحيله، وذلك من خلال المجموعة التي كوّنها وابتعثها إلى الجامع الأخضر بقسنطينة، أوالزيتونة بتونس من أمثال: أحمد بن التهامي شطة، أحمد بن بوزيد قصيبة، أبو بكر بلقاسم، محمد بن ادهينة، ومنهم من تبوأ مكانة هامة في جمعية العلماء المسلمين[3].

وقد عاد الشيخ مبارك الميلي إلى ميلة في سنة 1933، وقد كانت إقامته بميلة كل شيء إلا تقاعدا أو صمتا، وقد بدأ يهيئ الأرضية من خلال بث أفكاره الإصلاحية، عبر نادي الشباب والمسجد لتكون الاستجابة طبيعية لتأسيس مدرسة سيطبق بها ما اكتسبه من خبرة ميدانية في تعليمه بالأغواط.

وقد تم تأسيس مدرسة حياة الشباب في ميلة من سنة 1936، كما ذكر مبارك الميلي نفسه في تقريره الصحفي الذي نشرته البصائر عن سير أشغال جمعية حياة الشباب التي

---

(1) أحمد بن ذياب: البصائر، عدد 27 في 15 مارس 1948.

(2) محمد علي دبوز: المرجع السابق،ص272.

(3) أحمد صاري: المرجع السابق،ص109.

تتوسل"إلى غايتها بإنشاء مدرسة أو مدارس، و يجعل مكتبة عمومية و بإلقاء محـــاضرات في محالها المنسوبة إليها[1]".

وقد أسفر اجتماع الجمعية عن جمع التبرعات المالية لشراء وتأثيث المدرســـة الـــتي قدرت تكاليفها بما يزيد 150 ألف فرنك فرنسي، وثم نشرت قائمة المتبرعين والمبالغ الماليـــة المحصلة[2].

وقد كانت الاستجابة واسعة كما يتضح من قائمة المتبرعين " وقد بلغ الحمـــــاس بالبعض إلى بيع أرضه، بل منهم من باع حليه وبرانيسهم من أجل تقديم مساهماتهم لإنجـــاز ذلك المشروع. ومن خلال وقت قصير تمكن الشيخ مبارك الميلي من جمع 40.000 فرنـــك، اشترى بها مترلا ثم هيأه كمدرسة[3]".

وقد كان ذلك التجاوب ثمرة التوعية التي كان يبثها مبارك الميلي وتحسيس المواطنـــين بأهمية مثل هذا المشروع كما جاء في خطابه الافتتاحي لجمعية حياة الشباب بالمناســـبة "إن جمعية حياة الشباب قد رأت أن تعتني بجـــانب الـــروح فاشـــترت دارا لتعليـــم الصغـــار ذكورا وإناثا، وقد جمعتكم اليوم لتطلعكم على ذلك و تطلـــــع علـــى رأيكـــم في هـــذا العمل[4]".

وقد انطلقت الدروس في مدرسة حياة الشباب في تلك السنة 1936 تحت إشـــراف وتدريس مبارك الميلي بعدد قليل من البنين والبنات ما فتئ يزداد إلى أن أصبحت مدرســـة حياة الشباب مثالا آخر من جهود مبارك الميلي في حقل التربية والتعليم.

---

(1) مبارك الميلي: البصائر، العدد7، 14فيفري 1936،ص:3.

(2) نفسه، ص نفسها.

(3) Jean Noël : « L'évolution religieuse à Mila » in renseignement coloniaux, n°2 Février mots1938.p.p.32.34

(4) مبارك الميلي: البصائر: العدد 8، فيفري 1936،ص3.

إصلاح المناهج :

إن أول ما استوقف مبارك الملي تشخيصه للحالة التعليمية بالمكتب العربي بسدي بومعزة هو النظام الدراسي والحجم الساعي وعلاقتهما بالأهداف التربوية التعليمية المنشودة.

وإذ كانت هذه الغاية تقتضي نظاما دراسيا له مراحله في برنامج معين للمواد الدراسية؛ فإن ذلك يقتضي حجما ساعيا كافيا لتوزيع محاور الدروس بطريقة تضمن تحصيلا علميا متينا وحقيقيا. وقد أدرك الشيخ مبارك الميلي ذلك النقص المهول في هذا الجانب في تسيير المكتب خلال كلمته أمام لجنة أولياء التلاميذ في قوله: "لابن اليوم من أي طبقة كان بالمكتب ست ساعات كل أسبوع.توزع عليها أنواع الدروس التي يتعاطاها،ومن الدروس ما يجب حفظه،ومنها ما تكفي مراجعته، ومنها ما تكون أسئلة يملى إجابته من عنده لمعرفة مقدار تحصيله"[1].

هذه الحقيقة الأولية في تشخيص مبارك الميلي جعلته يبدأ منها في تنفيذ برنامجه في التأسيس لمناهج جديدة لإصلاح التعليم. إذ أعطى للحجم الساعي ونظام الدراسة مكانتهما في مدرسته بالأغواط.

فقد خصص المدرس الميلي خمس ساعات كل يوم من الثامنة إلى الحادية عشر صباحا ومن الثانية إلى الرابعة مساء،كما فصل بين التلامذة المنتظمين بمدرسته، والذين يذهبون إلى المدرسة الفرنسية في أقسام منفصلة، حيث كان التلامذة في السنة الأولى والثانية في فصول يدرسهم الشيخ محمد علي بن عزوز (أحد مساعديه)،ويكمل التلامذة السنوات الثلاث الأخرى من الدراسة على يد الشيخ مبارك الميلي[2].

أما تلامذة المدرسة الفرنسية، فقد كان لهم توقيتهم مساء كل يوم بعد خروجهم من المدرسة في أيام محددة من عطلتهم الأسبوعية والسنوية[3]. وقد سمح هذا النظام الجديد

---

[1] جريدة النجاح: المصدر السابق، العدد 250 ، لـ 1925/11/27.

[2] محمد علي دبوز: المرجع السابق،ص:264.

[3] نفسه،ص نفسها.

في توفير الحجم الساعي الذي سيمكن المدرس مبارك الميلي من تطبيق وتطوير أساليب التعليم؛ لأن الوقت سيسمح له بتوزيع المحاور الدراسية التي برمجها في المواد التي كان يدرسها، كما يسمح له بتطبيق أساليب التلقين التي تمكن التلميذ من الحفظ والمراجعة والمساءلة التي ذكرها في تشخيصه الذي سبقت الإشارة إليه في المباحث السالفة.

كانت أساليب التعليم ووسائله تقليدية لا تسمح بمواكبة العصر، وتعتمد استظهار ما تم حفظه " تلك الطرائق القديمة التي تترك طالب العلم يتربع في حلقات الدروس طوال يومه يستمع إلى مفردات وجمل يرددها المدرس عشرات المرات مسرودة...ثم لا يستفيد منها الطالب أكثر من ترديدها محفوظة عن ظهر قلب"[1].

هذا الأسلوب بات عقبة كبيرة أمام تجديد وإصلاح المفاهيم والأفكار الخاطئة السائدة آنذاك في معظم دور التعليم. ويؤكد تلك الحقيقة أحد الكتاب المعاصرين للشيخ مبارك الميلي الذي كتب مقالات عديدة في موضوع إصلاح التعليم، ومما جاء في إحدى كتاباته قوله: "وبهذا كانت مصيبة التعليم العربي فاشية في المدارس الأهلية والزوايا، فقد يوجد من بين المتعلمين من يقرأ الأجرومية ويحفظ نهج البلاغة وسرد أقوال المؤلفين في المسائل وسبب اختلافهم وإيراد النكت البلاغية التي تشم ولا تحك إلى غير ذلك... إننا نحتاج إلى تدريس يقتصر على جواهر المسائل والاستطرادات وإيصال التلميذ إلى المعنى بطريقة هادئة واضحة، تلك هي الطريقة العصرية التي انتشلت الصغار من إضاعة الوقت في مبادئ يمكن الإحراز عليها في أقرب وقت"[2].

فالحفظ الكثير دون تبسيط وفهم لن يؤدي إلى استيعاب الحقائق الجديدة في مختلف العلوم، ويعود هو الإفتقار إلى مدرسين مطلعين ومقتنعين ومستوعبين الأساليب العصرية في التعليم والتربية. ومن هنا ندرك أهمية الحركة التجديدية للمناهج في إصلاح مبارك الميلي للتعليم. لقد كانت الحاجة ملحة لإصلاح أساليب ووسائل التعليم إذ يقول الشيخ البشير الإبراهيمي: "وكانت الطريقة التي اتفقنا عليها أنا وبن باديس في اجتماعنا بالمدينة المنورة

---

(1) محمد الطاهر فضلاء: دعائم النهضة الوطنية الجزائرية، ط1،دار البعث قسنطينة، 1984، ص:27.

(2) عبد الحفيظ الهاشمي: أسلوب التعليم العربي، ووجوب العلماء اتباع طريق الإفادة، النجاح، عدد190، لـ9حانفي 1925، ص1.

في تربية النشء ألا نتوسع له في العلم، وإنما نربيه على فكرة صحيحة ولو مع قليل من العلم"[1].

ويبدو أن مبارك الميلي تلميذ بن باديس ورفيق دربه في الإصلاح، قد استفاد من ذلك التصور الجديد في تبسيط وتحديث أساليب التعليم وتبناها في جهوده التربوية.

وقد طالت إصلاحات الميلي وتجديده لوسائل التعليم، إذ كان يكتب لتلامذته جزءا من القرآن الكريم على السبورة ويفسره حتى يفهموه ويحفظوه[2]، وذلك أسلوب جديد في تعليم القرآن، مقارنة بما كان سائدا حيث الحفظ ثم السرد دون تفهيم أو تفسير.

و قد اجتهد مبارك الميلي في استعمال وسائل التعليم ومنها الكتاب المدرسي[3]، كما تذكر بعض المراجع أنه بادر بإعداد كراسات لدروس في النحو والصرف، وشرح بعض القصائد الشعرية[*]، ولعل هذه المبادرات هي التي أفضت إلى تأليفه الشهير: "تاريخ الجزائر في القديم والحديث" أثناء تعاطيه التدريس بمدينة الأغواط، ووقوفه على الحاجة الملحة لمثل ذلك التأليف[4].

إن هذا المنهاج العصري والمتدرج في تنظيم الفصول وضبط الحجم الساعي واستخدام الوسائل التربوية جعل مدة الدراسة بمدرسة الشبيبة خمس سنوات، وسمح ذلك النظام بإجراء أول امتحانات الحصول على شهادة التعليم الابتدائي في نهاية السنة الدراسية 1930م، كما مكن المدرسة من إعداد طلابها للالتحاق بالجامع الأخضر بقسنطينة[5].

---

(1) محمد قاسم: ابن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية،ص27.

(2) محمد علي دبوز: المرجع السابق،ص264.

(3) عبد المالك مرتاض: المرجع السابق، ص 504.

(*) ذكرنا الأستاذ أحمد بن ذياب أحد المعاصرين لمبارك الميلي و المهتمين بآثاره (في مكالمة هاتفية) أن بعض الكراسات كان يتبادلها الميلي مع الشيخ فرحات بن الدراجي،كانت موجودة لدى ورثة هذا الأخير بالبليدة. وقد سعينا سويا من أجلها و لم نجد لها أي أثر لأن ورثة فرحات بن الدراجي كانوا قد تخلصوا من الصناديق المحبأة فيها خلال تغيير محلاتهم.

(4) أنظر جهوده الفكرية وأهدافها في الفصل الثاني من هذا البحث.

(5) أحمد صاري: المرجع السابق،ص109.

إن إصلاح مبارك الميلي لحالة التعليم كانت تستهدف غاية أساسية وهي الإصلاح الشامل لأوضاع المجتمع، وقد كان الإصلاح الديني من مجالات جهود العلماء المصلحين، وقد عرفنا في الفصل الثالث مفهوم الإصلاح لدى الميلي وعلاقته بالإصلاح الديني.

وإذا كان الميلي يقرر بأن من حاول إصلاح الأمة بغير دينها فإنه يعمل على هدمها من حيث لا يدري "ومن حاول إصلاح الأمة بغير دينها فقد عرّض وحدتها للانحلال وجسمها للتلاشي وصار هادما لعرشها بنية تشييد[1]". فإنه قد وجه دعوته المبكرة للأمة الجزائرية بالرجوع إلى دينها عن طريق لغتها العربية في قوله المنشور في جريدة المنتقد في منتصف العقد الثالث من القرن الماضي، قال: "أيتها الأمة الجزائرية ارجعي إلى دينك ولغته فلن تسعدي إلا به، ولن تسعدي به إلا بإحكام لغته"[2].

والإعراض عن اللغة العربية عند مبارك الميلي، إعراض عن ذكر الله، ولذلك يقور في هذا المقام "ومن أعرض عن اللغة العربية فقد أعرض عن ذكر ربه ومن يعرض عن ذكر ربه نسلكه عذابا صعدا"[3].

هذا الموقف الحازم والحاسم من طرف مبارك الميلي في أهمية اللغة العربية وتعليمها من منطلق إيماني عقدي جعله يسخر حياته لتعليمها، ونشرها وتخريج أجيال من تلامذته حملوا لواءها وذادوا عن حياضها وما بدلوا تبديلا.

وبأسلوبه الجذاب ومهارته في التصوير حبب اللغة العربية لتلامذته فصاروا يسارعون إلى دروسها، ويسعون سعيا إلى حصصها إذا خرجوا من المدرسة الفرنسية[4].

وقد أولى تعليم اللغة العربية عنايته الفائقة لأنها الوعاء الذي سيسكب فيه مبادئ وأفكار الإصلاح الشامل. كما اعتنى مبارك الميلي بالتربية الدينية في تدريسه لما لها من أهمية في تكوين النشء الجديد المتشبع بالأخلاق الإسلامية، وتلك غاية أخرى من غايات الإصلاح، كما خطط له المصلحون والعلماء.

---

(2)مبارك الميلي: المنتقد، لـ 1925/09/03.

(2) نفسه، ص نفسها.

(3) نفسه، ص نفسها.

(4) محمد علي دبوز: المرجع السابق،ص266.

ومن المواد الدراسية التي حقق بها الريادة في تنويع المناهج الدراسية،أدراجه مادة التاريخ الإسلامي وتركيزه على تاريخ الجزائر الذي اقترن ذكر مبارك به إلى الأبد.

وقد جعل مبارك الميلي تدريس المتعلمين الجزائريين تاريخ وطنهم من أولوياته لما لاحظه وقتذاك من تقصير كبي في هذا الخصوص..كما جاء في مقدمة كتابه "تاريخ الجزائر"....قال: "إن المتعلمين اليوم من أبناء الجزائر قطعوا الصلة بينهم وبين ماضيهم، فجهلوا بذلك ما فيه، وفرطوا في قراءة علم يعود على أخلاقهم بالتهذيب وعلى عقولهم بالتدريب على التفكير ذلك علم التاريخ وفوائده"[1].

ويتضح من هذا التعريف الغاية التربوية من تدريس علم التاريخ وأهميته بالنسبة للمتعلمين الجزائريين، لأنه ينمي التفكير ويقوم الأخلاق. وقد اعتبر ذلك الجهد في التأليف واجبا نحو اللغة العربية في حد ذاتها التي لا يجب أن يحرم قراءها من هذا الفن[2].

وقد ظل مبارك الميلي طيلة حياته داعيا للتعليم الذي يصلح حال الأمة وترقيتها بين الأمم. ولما انتشرت المدارس الحرة كانت عينه ساهرة على تشجيعها وتدعيمها في كل المناسبات، وينوه بدورها في نشر الدين الخالص وتغذية العقول بالعلوم النافعة.

كما جاء في قوله: "وأخذت تظهر في الوطن الجزائري مدارس حرة غايتها تربية القلوب على احترام الدين الخالص واتباعه وتغذية العقول بما تقوي به النظر في الحياة العصرية لتأخذ من وسائلها ما يلائم دينها ونهضة قوميتها"[3].

هكذا عمل في مدرسته بالأغواط أو بميلة على تلقين التلاميذ العلوم وربطها بالنهضة الدينية والقومية؛ وبذلك يكون مضمون المواد التي درسها وسيلة لغايات كبرى.

إن التصور الشامل الذي كان يحمله مبارك الميلي للعمل التعليمي كوسيلة للإصلاح الاجتماعي جعله يصب كل أفكاره في آليات العملية التربوية في وعاء التعليم الذي نهل منه تلاميذه المبادئ الصحيحة للدين الإسلامي واللغة العربية، ولذلك كان في مضمون الدروس

---

[1] مبارك الميلي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث،ج1 مكتبة النهضة الجزائرية،بدون تاريخ، ص10.

[2] نفسه، ص نفسها.

[3] مبارك الميلي: الشهاب ج.6.م 12، أوت/سبتمبر 1936.

"يعتني قبل كل شيء ببث الروح الإسلامية والقومية العربية في نفوس التلاميذ وتربيتهم على مكارم الأخلاق والآداب الشرقية الإسلامية"[1].

وهذا يدل على أن الوضوح في الهدف التربوي يؤدي إلى وضوح الأساليب والمضامين التربوية، ولذلك كان مبارك الميلي واضحا في أهدافه التربوية وهي إحياء اللغة العربية وتعليم أركان الإسلام للفرد الجزائري ذي الإنتماء العربي الإسلامي. وما يستشف من أهمية المضمون الدراسي المرتبط بالأهداف التربوية الواضحة من جهود مبارك الميلي أن ثماره كانت طيبة في الجيل الذي تركه في الأغواط الذي واصل العمل التعليمي والإصلاح على منهجه وحسب أسلوبه التجديدي في مجال التربية والتعليم.

فالمدرسة الأغواطية التي تعطلت بعد رحيله، أعاد بعثها من جديد تلامذته بعد عودتهم من الدراسة من تونس... "فقد قام الشيخ أحمد بن التهامي شطة، والشيخ أبو بكر بن بلقاسم الحاج عيسى بإحياء تلك المدرسة والتي كانت في المواد والبرامج والمناهج الدراسية على غرار مدرسة الشيخ مبارك الميلي[2]".

إن هذه الشهادات من تلامذته بالأغواط تؤكد عمق الجهد التربوي الذي بذله مبارك الميلي من تجديد للأساليب وتوظيف للوسائل الحديثة وتأصيل للأهداف التربوية، ذلك الجهد الذي كان أرضية حلبة للبناء التربوي الذي واصل تشييده رجال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين عبر مختلف أرجاء الوطن.

ولقد أدرك مبارك الميلي أن المعلم هو الركن الأساسي في العملية التربوية التعليمية، وقد خبر اسرارها وما تقتضيه من شروط وإمكانات، وأولها في تقديره سلامة البنية الجسيمة للقائم على التعليم .. "والنظم العصرية تشترط في المعلم سلامة البنية مثل ما تشترطها في الجندي على أن عمل المعلم أشق وفائدة المجتمع منه أجل"[3].

وقد شخص الوضعية العامة للمعلمين في عصر الميلي أستاذه وزميله الشيخ عبد

---

[1] أحمد بوزيد قصيبة: المصدر السابق،ص2.

[2] نفسه،ص8.

[3] البصائر ، العدد 125 جمادي الثانية 1357، اوت 1938.

الحميد بن باديس في منتصف الثلاثينيات واصفا إياهم بضعف المستوى سواء في ثقافتهم العامة أو إلمامهم بفروع المعرفة التي يقومون بتدريسها[1]. وهذا الضعف في الأداء التربوي كان موضوع تشخيص دقيق وعميق من طرف مبارك الميلي في مقال له بجريدة البصائر تحت عنوان " المعلم المعلم " وفي العنوان دلالة على الحرص مستوى المعلم[2].

وفي المقال السابق الذكر يشبه مبارك الميلي المعلم بزهرة جنت منها النحلة –عصارة رحيق الأزهار شفاء للناس "وأي معلم لم ينتج تلاميذه عسل العرفان الذي فيه شفاء للناس فلا يرجع باللائمة على نحله وليفتش عن علة الخيبة في زهره، فإنما هو بين أمرين أهونهما أن طريقته في التعليم عقيمة وأدهاهما أنه مصاب في أدبه مؤتزر بالأوزار وهذا الثاني يجب إبعاده وذلك يتعين إرشاده"[3].

وفي هذا التحليل الدقيق لقضية تربوية خطيرة وهي المعلم والأخلاق، وقد حسم مبارك الميلي في إبعاد المعلم المؤتزر أي السيء الأخلاق من ممارسة مهنة التعليم، أما صاحب الطريقة العقيمة أي غير المتمكن من تلقين التلاميذ عسل العرفان، فيمكن إرشاده لتحسين مستواه لتجتمع لديه الكفاءة والأخلاق.

وهذا الموقف الصريح من طرف مبارك الميلي مبني على رؤيته الإصلاحية للمعلم الذي يراهن عليه في إصلاح الناشئة عن طريق القدوة، كوسيلة تربوية مستوحاة من المراجع والخلفيات التكوينية لمبارك الميلي وهي القرآن الكريم والسنة النبوية.

وبهذا التصور الناضج لشخصية المعلم والمتمثلة في سلامة البدن وطهارة النفس مع الكفاءة العلمية يقدم مبارك الميلي النموذج الحي للمعلم الحقيقي. وهذه المواصفات هي التي طبعت شخصية مبارك الميلي المعلم الذي أسس اللبنات الأولى للتعليم العصري العربي بالوطن الجزائري معترفا بالقصور في كثير من الجوانب منها المعنوي والحسي".

---

(1) محمد حميداتو: ابن باديس وجهوده التربوية، كتاب الأمة، عدد 157، 1997، وزارة الشؤون القطرية،ص157.

(2) جريدة البصائر: المصدر السابق، ص نفسها.

(3) نفسه، ص نفسها.

وإذا كان فيما أسس اليوم منها قصور عن تلك الغاية فلعل بعضها معنوي وبعضها حسي، ولا تزال تلك الغاية هدفنا نعمل لها حسب منتها ونعتذر عن التقصير عنها بما اعتذر بها القائل:

على قدر الكساء ممدت رجلي ولو طال الكساء لها لطالت[1].

وفي هذا الاستشهاد إيحاء قوي بأن ما تحقق من جهود في نشر التعليم كان على قدر الامكانات الموجودة في تلك الظروف الصعبة التي عاشتها الحركة الإصلاحية في مواجهاتها مع خصومها، كما رأينا في مواقفه من قضايا عصره التي تعد قضية تعليم المرأة من قضايا الإصلاح التي كان للميلي موقفه الرائد والعملي المتميز بين علماء عصره.

[1] مبارك الميلي: الشهاب، مرجع سابق.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثاني : موقفه من تعليم المرأة:

عمل الاستعمار الفرنسي على إبقاء المجتمع الجزائري رجاله ونسائه في حالة جهل وأمية شاملة حتى لا يبرز أي وعي وطني يتجاوز وضعية التخلف والخضوع. لكن واجهته مقاومة جزائرية مستمرة تحت أشكال مختلفة تبلورت في العشرينات والثلاثينات من القرن العشرين بحركة إصلاحية أولت اهتماما بالغا بالتعليم فأنشأت مدارس حرة لتلقين تعليم عصري يرسخ المبادئ الإصلاحية[1]. وعندما برزت إشكالية فتحها للبنين والبنات أو قصرها على البنين فقط،غدت جدالا واسعا بين المؤيدين والمعارضين[2] من العلماء المصلحي أنفسهم، وكانت للشيخ مبارك مساهمة هامة في النقاش الذي دار آنذاك، بعد أن فتح أقسام المدارس التي أسسها وأشرف عليها خاصة في الأغواط وميلة لفتيات تلقين التعليم الابتدائي بمعية فتيان، وبحرص منه في القول والعمل على تيسير مهمة تعليم البنت واعتبر الإعراض عن ذلك من الجنايات الكبرى كما سنرى في هذا البحث.

وقد عانت المرأة الجزائرية خلال الليل الاستعماري الطويل مثل ما عاناه شقيقها الرجل من قهر وبؤس وتخلف، لكن معاناة المرأة كانت أكثر بسبب كونها الحلقة الأضعف في بنية المجتمع الجزائري، رغم الدور الهام الذي لعبته في حماية الشخصية الوطنية من الذوبان أو الانسلاخ.

لكن فرضت عليها قيود مفتعلة مست بحقوقها وجعلتها ضحية للجمود والتعسف والظلم مما كان سائدا آنذاك من تقاليد قبلية بالية لم ترد في الإسلام و لم يعمل بها سلف هذه الأمة[3].

إلى جانب ذلك فإن المستعمرين الفرنسيين لم يغب عن بالهم عنصر المرأة الجزائرية كمعطى هام في إستراتيجيتهم الطويلة المدى الرامية للوصول إلى نقطة اللا رجوع في تفكيك المكونات الأصيلة للمجتمع الجزائري. ومن ثم لم يكفوا عن بذل محاولات مستمرة

---

[1] أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق،ج2، ص:82.

[2] مبارك الميلي:" تعليم المرأة الكتابة"، الشهاب، قسنطينة، الجزء 6، مجلد 12، أوت-سبتمبر 1936،ص:254.

[3] عبد اللطيف عبادة: المرجع السابق،ص:25.

لإقحام معقلها حتى جعلوا منها آلة "تربية عبيد و إماء للمعمرين"، وهذا بمخاطبتها إعلاميا عن طريق تخصيص برامج في الإذاعة ووسائل الإعلام الأخرى، لحثها على التخلي عن نمط معيشتها التقليدية وتبني أسلوب الحياة الفرنسية.

جاء هذا العمل التدميري للاستعمار، كحلقة رئيسية في مسعاه الرامي إلى محو هوية المجتمع الجزائري الذي كانت آخر قلاعه المرأة التي ظلت لمدة أكثر من قرن من الوجود الاستعماري الفرنسي تتحدى بلباسها وتقاليدها خطة لأكبر محاولة عملية مسخ تعرض له شعب في التاريخ إنها جزائرية وليست فرنسية[1].

في خضم الحركة الواسعة التي قامت بها جمعية العلماء غداة تأسيسها بإنشاء عدد كبير من المدارس في مختلف أنحاء القطر لتحقيق أحد أهدافها الرئيسية المدرجة في البرنامج الإصلاحي الذي وضعته وهو مكافحة الجهل عن طريق نشر التعليم كلبنة أولى في يقظة الشعب[2]. انقسم علماء الجمعية على أنفسهم إلى جناحين بين مؤيدين لتعميرالمدارس بالبنين والبنات، ومعارضين لإدماج البنين.

وإن كان الرأي الغالب داخل جمعية العلماء وقف مع تحرير تعليم المرأة إلا أنهم لم يصلوا إلى حد المطالبة بمساواتها مع الرجل. وكان الشيخ الميلي من بين المؤيدين لتعليم المرأة مقدما في تدخلاته المكتوبة الحجج الشرعية والمنطقية لهذا المطلب الذي يندرج كعنصر هام في خطة عمل الجمعية، ويثبت تقدميتها نافيا تهمة الرجعية التي يصفها بها خصومها من الموالين للاستعمار. وقد عرض الشيخ مبارك الميلي حجج الفريق المؤيد فيما يلي:

1- "إن فساد القلوب وانحطاط العقول كانا شاملين للأمة ذكورها وإناثها[3]".

2- " إن المرأة شقيقة الرجل في الإنسانية فلتكن شريكته في التربية و التهذيب".

3-"وإن الأم هي المدرسة الأولى التي يتلقى فيها الأبناء معلوماتهم الأولية".

4-"الأنثى مكلفة في حكم الإسلام بمثل ما يكلف به الرجل لا يفترقان إلا فيما يرجع إلى

---

[1] عبد الكريم بوالصفصاف:" جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في تطوير الحركة الوطنية الجزائرية"،1931-1945،قسنطينة، دار البعث، ط1،1981. ص

[2] رابح تركي: " التعليم القومي والشخصية الوطنية" الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،1975،ص:199.

[3] مبارك الميلي: المصدر السابق،ص254.

القوة والسيادة، فيختص بالرجل بالإمامة و ولاية مناصب الحكم، وإلا فيما يعود إلى الضعف والحنان فيختص بالأنثى".

5- "الأنثى شريكة الرجل في مترله وقرينته في الحياة لا غنى لأحدهما عن الآخر، فلابد من مشاركهتما في التهذيب وتعاوهما في التثقيف"[1].

أما الفريق الثاني فتقوم حججه في منع البنت من تعلم الكتابة على الآتي:

1- إن إدخالها المكتب جمع بينها وبين الابن وفي ذلك الاختلاط ما تخشى عاقبته وخطره على العفاف والفضيلة.

2-" إن تعليمها الكتابة يسهل عليها الوصول إلى وساوس نفسها، ويقرب منها ما يدعوها إليها هواها".

3- "خلاصة ما أدلى به هذا الفريق هو الاسترابة بالبنت والمحافظة على خلق الحياء الذي هو أجمل ما في المرأة".

في الأخير ينتهي المعارضون إلى القول بأن الحجج السابقة "توجب تعليم المرأة ما تعرف به دينها وإدارة مترلها وتربية أولادها بطريقة التلقين الخالي من الكتابة"[2].

وبعد هذا الاستعراض لمواقف الطرفين، أكد الشيخ مبارك الميلي تأييده لتعليم البنت بتفنيده لحجج المعارضين معتبرا أن لا مغمز في اختلاط البنين بالبنات مادامت البنت لم تبلغ حد الحجاب. أما بالنسبة للمفسدة التي تنجر عن تعليم البنت الكتابة فهذه قضية متخيلة لم تتحقق بعد على العكس، هناك من الرجال المتعلمين الكتابة الذين إتخذوها وسيلة لزلزلة صروح القومية الجزائرية وأداة للرقية المنكرة والكهانة الضالة.

وفيما يخص الرأي القائل باتخاذ التلقين وسيلة لتعليم البنت، يرى فيه مبارك الميلي أنه غير مجد، بل هو تعمد لترك البنت في الجهالة، وهكذا فإن المسألة التي ينبغي أن تكون محل

---

(1) نفسه، ص نفسها.

(2) نفسه، ص نفسها

نقاش بين العلماء ليس تعليم البنت من عدمه، بل إيجاد طريقة الجمع بين تعليمها والمحافظة على أنوثتها[1].

مما سبق يظهر الفضل الذي كان للعلماء المصلحين ومن بينهم الشيخ مبارك الميلي في إخراج المرأة الجزائرية من قترة الظلمات التي كانت فيها. وهكذا كان هناك اتفاق على تعليم المرأة لكن وقع اختلاف فيما يخص تعليمها الكتابة من دونها، وهنا وقف مبارك الميلي مؤيدا للطرح الأول مع اشتراط توفير الإطار الملائم الذي تحفظ كرامتها وأنوثتها. وهو ما عمل به مبارك الميلي في الميدان قبل الكتابة في جريدة الشهاب، وقد بلغ عدد تلامذته بمدرسة الشبيبة بالأغواط حوالي سبعين تلميذا من بينهم ثماني فتيات[2].

وقد أفاض في أهمية اشتراك البنت في التعليم معتبرا أنه من حقوقها الدينية والاجتماعية في خطابه في اجتماع جمعية حياة الشباب بميلة بمناسبة جمع التبرعات لتأسيس مدرسة حياة الشباب. ومما جاء في ذلك الخطاب " إن ا لمجتمع البشري لا يكتمل إلا بالعناية بجزئيه المرأة والرجل، وإذا كان الإسلام يطلب من الأنثى ما يطلب من الذكر فلا معنى لإهمال جانب المرأة[3]".

وهذا التوضيح لأهالي المدينة في هذه المسألة الحساسة في ذلك الزمن سهل عملية التحاق فتيات كثيرات حين فتحت المدرسة أبوابها وقد وقفنا على عينات من تلك الأسر التي ساندت وأيدت مبارك الميلي في تعليم بناتها.

ويعد ذلك الموقف في غاية من الجرأة في قوله:" فإن الإعراض عن تيسير طرق العلم عليهن و القيام بفروض دينهن جناية لا تعادلها جناية[4]".

بل حمل الشيخ مبارك الميلي النساء مسؤولية المساهمة في شراء الدار المخصصة للمدرسة "وحيث أن المشروع للذكور والإناث فليشارك في تكوينه الذكور والإناث[5]".

---

(1) نفسه، ص نفسها

(2) محمد علي دبوز: المرجع السابق،ص:264.

(3) مبارك الميلي : جريدة البصائر: العدد8، 21 فيفري1936، ص:2.

(4) نفسه، ص نفسها.

(5) نفسه، ص نفسها.

وقد كنا أشرنا في هذا الفصل إلى شهادات تاريخية تؤكد استجابة النساء لهذا النـــداء ومنهن من بعن حليهن للمساهمة في المشروع الخيري للمدرسة. و لم يكن هذا الإقبال وهـذه التضحية إلا ثمارا لجهود مبارك الميلي الدعوية في الوعظ والإرشاد في المســـاجد والنـــوادي وعمل الجمعيات الخيرية التي كانت هي الأخرى من ميادين الإصلاح التي عمل فيها طيلـــة حياته في العمل الإصلاحي.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثالث: التدريس بالمساجد وتأسيس الجمعيات والنوادي:

احتل المسجد مكانة مرموقة لدى كبار الأعضاء العاملين في الحركة الإصلاحية قبل تأسيس جمعية العلماء من طرف الذين أتموا دراستهم العليا بجامع الزيتونة بتونس، وعادوا إلى أرض الوطن مثلما هو حال عبد الحميد بن باديس ومبارك الميلي وإخوانهم الآخرين. كان المسجد هو نقطة انطلاقهم الأولى وفيه اصطدموا بأشد المعارضة أحيانا من الإدارة الاستعمارية وطورا من رجال الدين الرسميين وفي الأخير الطرقيين الذين استخدموا بيوت الله لنشر البدع والخرافات وكل الأشياء التي تبقي الشعب الجزائري جاهلا وخاضعا تحت سيطرة القبضة الاستعمارية.

أما مبارك الميلي وزملاؤه فقد كانت المساجد التي أسسوها في كل المكان التي أقاموا بها في مختلف أنحاء الجزائر الفضاء الفعال الذي خاطبوا فيه العامة والبسطاء من الناس واستطاعوا أن يصلوا إلى القلوب ويتمكنوا من تصحيح المفاهيم والسلوكات التي حرفتها عشرات السنين من الممارسات الاستعمارية بالتواطؤ مع الأذناب المحليين.

ولما دخل مبارك الميلي الأغواط في أوائل 1927، وجد أهلها شيعا وطرائق، فالمنطقة لم تكن فقط المعقل الأساسي للطريقة التيجانية(*). ولكن كانت أيضا ميدانا لصراع بين عائلة بن سالم الخضرية وعائلة بن فرحات ذوي النزعة القبلية[1]، وقد أدرك الميلي حقيقة القوى الفاعلة في الوسط الأغواطي، فاستأنس إلى الخليفة جلول الذي بدأ نجم أسرته يصعد بدعم من السلطة الفرنسية، وقد استغل مبارك الميلي العداء الذي كان قائما بين الطريقة التيجانية وأسرة الخليفة جلول بذكاء وديبلوماسية، في زرع بذور الفكر الإصلاحي بهدوء في بداية الأمر، إذ لم يجابه أعوان فرنسا مستعينا بمرونة رجال وشباب المدينة المتجذرين في بعض الدوائر الإدارية المحلية المتعاطفين مع الفكرة الإصلاحية [2]. وبمدينة الأغواط طاب له

(*) التيجانية : أسسها عام 1878 بمدينة فاس الشيخ أحمد بن مختار التيجاني المولود بمدينة عين ماضي بناحية الأغواط ، وتوفي سنة 1815 بمدينة فاس.

(1) علي مراد: المرجع السابق، ص

(2) محمد علي دبوز: المرجع السابق،ص208.

المقام لمدة سبع سنوات كاملة فوجد الميدان متسعا لتحقيق ما كانت تختلج به نفسه من برامج وطموحات وانفتحت الأبواب لكي يبرز شخصيته وما تميزت به من مواهب وخصائص[1].

وقد كان لدروسه في المسجد الصدى الواسع في أوساط السكان فانتشرت العربية، وتمكنت المذهبية الإصلاحية الإسلامية و بدأ الناس يتحررون من هيمنة الطرقية، "وصار أغلب الشباب من حزب الإصلاح الذي يقوده الميلي وأنصاره[2]".

فقد حرص الشيخ مبارك الميلي على الإكثار من الدروس الليلية في الوعظ والإرشاد خمس ليالي في الأسبوع، تناول فيها عدة مواضيع من التفسير والحديث النبوي الشريف والفقه إلى السيرة والأخلاق[3]. وقد واجه في بداية الأمر صعوبة في إفهام العامة لأول عهده بهم، مما أدى به إلى بذل جهود كبيرة للتبسيط والشرح وتسهيل لغته الراقية، وفي الأخير نجح في ذلك واستطاع استقطاب مختلف الشرائح من سكان الأغواط من الشباب والكهول والشيوخ.

وكان الجانب الذي ركز عليه هو تقوية الإيمان في القلوب وتطهيرها من أوساخ الشرك والرياء وفساد الاعتقاد، من أجل ذلك اعتنى بدروس" التفسير وبالأخص السور المكية، كسورة "الأنعام" لما تناولته من المسائل الإعتقادية. وفيما يتعلق بدروس الفقه، فقد كان يبين مشروعية الأحكام وبيان مقاصد الشريعة من التكاليف في العبادات وما فيها من المصالح العامة وسعادة المجتمع في المعاملات[4].

وسرعان ما ظهر للاستعمار خطر العمل الذي يقوم به مبارك الميلي في الأغواط إذ بدا له الخطر الكامن من وراء الأوضاع القائمة التي حرص الاستعمار على أدامتها، فتحركت الإدارة الأهلية وأغرت الخليفة جلول بالامتناع عن مساندته المصلحية مُبارك الميلي الذي أحس بذلك المآل قبل أن يقع، فاختار ترك الميدان مراعاة للجميل ورأفة بآثاره

---

(1) أحمد بوزيد قصيبة: البصائر، عدد 26، لـ 8 مارس1948،ص:3.

(2) محمد علي دبوز: المرجع السابق،ص:208.

(3) أحمد بوزيد قصيبة: المصدر السابق، ص نفسها.

(4) نفسه، ص نفسها.

أن تصاب بمكروه" إن هو بقي يعمل معتمدا على الأغواطيين وحدهـــم...ولعلـــه أراد أن يخدمها بفقده كما خدمها بوجوده ففارقها سنة 1933 مأسوفا عليه من الجمع[1].

الشائع عند الذين كتبوا عن جهود مبارك الميلي الإصلاحية في مدينة ميلـــة اعتـــبروا بداية تلك الجهود بعودته من الأغواط في سبتمبر 1933حين شرع في التدريس بالقاعة الـــتي خصصها للتعليم والصلاة أحد الخيرين من داره الفسيحة وهو الحاج محمد بن ناصف[2].

لكن آثارا أخرى تدل على أن مبارك الميلي كان قد تعـــاطى التدريـــس بالمســـجد الأعظم لمدينة ميلة مباشرة بعد عودته من تونس، في منتصف العقـــد الثـــاني مـــن القـــرن العشرين حامـــلا شهادة التطويع من الزيتونة كما يذكر أحد معاصريه محمد الصـــالح بـــن عتيق في مذكراته قائلا: " وصادف يومئذ أن عاد من تونس فيلسوف العصر ونابغة التفكير الأستاذ مبارك الميلي... فالتففنا حوله نستفسر عن الدعوة الجديدة ونطلب لها مزيدا مـــن الشرح و لم يكن الأستاذ أقل منا حرصا على إيضاحها وتعميمها ففتح لذلك درسا بالجـــامع الأعظم بميلة وأخذ يشـــرح مبادئ الإصلاح"[3]. مما يعني أن مبارك الميلي كـــان جـــاهزا للعمل الميداني في تأسيس الحركة الإصلاحية، بل من روادها الأوائـــل الذيـــن نـــاصروا وعاضدوا الشيخ عبد الحميد بن باديس منذ أن كانت الحركة في مرحلتها الجنينية، وإيمانـــا من مبارك الميلي برسالة المسجد ودوره في إصـــلاح المجتمع من دروس الوعظ والإرشـــاد لتوعية المواطنين بشؤون دينهم وقضايـــاهم الاجتماعية فقد باشر جهوده الإصلاحية بتلـــك القاعة التي توسعت إلى مسجد استقطب الكثير من المواطنين لسماع دروسه وخطبه الـــتي أصبحت تجلب الكثير من المصلين الأمر الذي أدى إلى فراغ المسجد الذي كـــان يشـــرف عليه الإمام الرسمي"بوفمة " مما دفع بهذا الأخير إلى إتهام مبارك الميلي باتباع المذهب الوهـــابي والقيام بنشاط معادي لفرنسا[4].

---

(1) نفسه، ص 3.

(2) كل الذين اعتمدوا في كتابتهم على مقال السيد Noeîl " التطور الديني بميلة " و النشور:
Renseignement colinaux de l'afrique française n°2.1938p.p.32.34

(3) محمد الصالح بن عتيق: المرجع السابق،ص48.

(4) Jean Noël : op. Cit. p:33

وتلك التهمة كان الغرض منها دفع الإدارة المحلية إلى اتخاذ إجراءات لمنع مبارك الميلي من مواصلة دروسه التي زرع من خلالها بذور الإصلاح في المدينة وتكوين قاعدة من المؤمنين بتلك المبادئ والذين عملوا على تعزيزها وتدعيمها بمؤسسات أخرى كالنادي الإسلامي، والجمعية الدينية، وجمعيات حياة الشباب التي أنشأت المدرسة[1]. ولذلك حرص مبارك الميلي على الدروس المسجدية التي تغير النفوس وتنير العقول وتصحح العقائد من خلال المنهج القرآني في الدعوة والإصلاح الذي أثمر في تغيير كبير في المجتمع الأغواطي ولذلك سار على نفس المنهج في ميلة، متخذا من سورة "الأنعام" موضوعا لدروسه، كما شهد بذلك أحد معاصريه في دروسه المسجدية بميلة التي فسر وصحح بها العقائد وأوثق بها الحبل المنفصم (المقطوع) فصار متوطدا،كما جدد بها فكرة الإصلاح الديني هناك[2].

وتتخلل تلك الدروس في بعض الليالي دروس في موطأ الإمام مالك، وكتاب "رياض الصالحين"، كما كان يخصص لدروس التفسير يوم سوق البلدة ليشهده الحاضر والبادي وتعم الدعوة الإصلاحية جميع الناس...ويحضر دروسه المستيقن والمتردد والشاك، وكل يسأل عما يبدو له فيبين أن الإسلام لا يصح إلا بالجازم. ويضيف أحد شهود تلك الدروس المسجدية تميزت" بأسلوب له طرفان، طرف تتذوقه الخاصة تذوقا حلوا، وطرف تنتعش به العامة انتعاشا ملموسا مسموعا يحرك به وترها اليومي"[3].

ولم يكن الشيخ مبارك الميلي بتلك الجهود الإصلاحية في ميلى بمنأى عن المضايقات التي كانت تعترض الحركة الإصلاحية من طرف الطرقيين والإدارة الاستعمارية، لكنه مضى في مضاعفة وتكثيف جهوده بميلة متخذا ميدان التدريس المسجدي كعمل قاعدي تمتد منه النشاطات الأخرى في ميادين أخرى ضمن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

---

(1) نفسه، ص نفسها.

(2) أحمد الغوالمي: الميلي كمعلم و مدرس، البصائر،عدد27، لـ 1948/03/15، ص:8.

(3) نفسه، ص نفيها.

كانت النوادي من أهم الوسائل التي استخدمتها جمعية العلماء لنشر الوعي والثقافة بين الجزائريين وتبادل الآراء ومناقشة القضايا السياسية والاجتماعية طبقا لقانون1901[1].

وبالنسبة للشيخ مبارك الميلي فإنه لم يؤسس نوادي بالأغواط، واهتم بهذا الجانب خلال إقامته بميلة أين أنشأ بها ناديا هو النادي الإسلامي الواقع بالمترل الذي أهداه أحد الخيرين من رجال الإصلاح، وكان الشيخ مبارك الميلي يلقي محاضراته فيه وتولى رئاسته "محمد الهادي بن معنصر"[2].

وأما فيما يتعلق بالجمعيات فقد أسس جمعية واحدة بالأغواط وثلاث جمعيات بمدينة ميلة، جمعية الأغواط أطلق عليها اسم "الجمعية الخيرية الأغواطية" كرست جهودها لإسعاف الفقراء واليتامى، فكان لها قدم راسخة في مجال البر والإحسان[3].

أما جمعيات ميلة فقد سميت الأولى "بجمعية النادي الإسلامي" وتأسست سنة 1934 مثلما القول بعد أن أهدى الحاج محمد بن ناصف من داره الفسيحة ما جعلها مسجدا تقام فيه الصلوات وتلقى به الدروس، أما الثانية فعرفت باسم "الجمعية الدينية الإسلامية الميلية" التي ترأسها مبارك الميلي وتكونت من نائبه السيد الحاج بن عمر نبي المبارك وكاتبها دريدي محمود وأمين مالها الحاج البشير طيار ونائبه الحسن بن قارة مصطفى بعضوية بن ناصف محمد والأخضر بن عميرة ولعرابة محمود وغيرهم، وكان ذلك يوم 2 ماي 1936، وفيما يخص الثالثة التي شهدت النور في 4 فيفري 1934، فقد سميت "جمعية حياة الشباب" تحت رئاسة عمارة بن عميرة، ونائبه بن زروق السعيد المعلم كاتبا والبشير طيار أمينا للمالية[4].

ومن خلال هذه الجمعيات والنوادي الثقافية تغير وجه مدينة ميلة من مركز فلاحي صغير إلى مدينة بدأ يشيع منه نور المعرفة والعلم، وتبرز فيه ركائز الحركة الإصلاحية.

---

(1) L'Algérie du demi siècle - les autorités locales,janvier1954, Archives historiques- wilaya de Constantine

(2) جريدة البصائر: عدد 7،فيفري 1936،ص:3.

(3) جريدة البصائر: عدد 6، 8 مارس 1948.

(4) البصائر: عدد 7، فيفري 1936، ص:3.

لم يكن الشيخ مبارك الميلي حبيس المناطق التي أقام بها أثناء عمله الإصلاحي وبالأخص في مدينتي الأغواط وميلة، حيث لم يتردد في الخروج إلى المناطق المجاورة لهما لينشر الحركة الإصلاحية هناك ويواجه عبر رحلات تنظم بصفة دورية للاحتكاك عن قرب بالسكان وتزويدهم بما هم في حاجة إليه من علم ودين وكذلك للوقوف في وجه الظواهر السلبية المتمثلة في الطرقية التي عششت بتلك المناطق.

بمنطقة الأغواط التي كانت تحت هيمنة شيوخ الزوايا،كان الميلي "يخرج إلى الجلفة شمالا وبوسعادة شرقا وأفلو غربا،فيلقي دروسا بمساجدها يدعو من خلالها أهل هذه المنطق إلى الإصلاح والتمسك بحبل الله ويذكرهم ويرشدهم ويحرضهم على نفض غبارالجهل والكسل والخمول[1]".

وخلال هذه الرحلات سعى بكل ما أوتي من جهد وعلم وعزم على أن يصرخ بقوة في وجه المتصوفة المزيفين صرخة استنكار انتشرت أصداؤها في كامل أرجاء الجنوب الغربي من البلاد، مثلما عمل على ترسيخ مبادئ الحركة في نفوس سكان المنطقة الذين أظهروا تعطشا للعلم والمعرفة ورغبة أكيدة في الخروج من براثن الجهل والخرافة[2].

نفس الشيء قام به في ميلة، حيث قاد الحركة الإصلاحية بها وبالمناطق المجاورة ومجابها الطريقة الحنصالية، ووراءها الإجراءات القمعية للإدارة الاستعمارية. لكن لم يثنه ذلك عن إكثار التنقل بصفة دائمة بين القرى والحواضر المجاورة لها من جيجل إلى سطيف.

ومن ذلك رحلته إلى جيجل في شهر جويلية سنة 1936، في زيارة تفقدية لقي أثناءها كل الحفاوة والإكرام من أهلها وألقى بمسجد جيجل درسا موضوعه"لا حسد إلا في إثنين" جذب إليه الكثير من الناس ولقي منهم الإصغاء والاستحسان، ثم عرج إلى الشقفة وألقى بها درسا صحح فيه المعتقدات الباطلة[3].

---

(1) عبد اللطيف عبادة: المرجع السابق،ص ص:10،11.

(2) مبارك الملي : "سير الجمعية وأعمالها تفقد الشعب -البصائر"،عدد،28، 17جويلية 1936،ص:8.

(3) نفسه، ص نفسها.

في هذه الرحلات وجد الميلي دعاة وأنصار كثيرين للجمعية منهم الشيخ محمد طاهر الساحلي الجيجلي خريج جامع الزيتونة ومؤسس مدرسة الحياة بجيجل، والشيخ محمد العربي كبيس بالشقفة، والمدني بن يس، وأحمد بن الحكيمي، والخضر الميلي وغيرهم من أركان الإصلاح بالمنطقة، كما سماهم الشيخ مبارك بذلك[1].

ومثلما كتب عن انطباعاته خلال هذه السلسة من الرحلات الدعوية التي قام بها في المنطقة أن "كل مدينة أو قرية دخلناها في جولتنا هذه لم تخل من جمع إصلاحي يستضيع أن يحمي نفسه من فتن المفسدين وأن يبلغ كلمة الحق والخير إلى الراغبين، وأن كل مركز إصلاحي به مدرس حر غير طماع تجد فيها الإقبال على وفود الجمعية ودروسهم أقوى وأرجى ثمرة[2]. لأنها كانت حركة نابعة من صميم معتقدات الشعب وتعبر عن أحاسيسه الدينية والصدق الذي التزمت به في مخاطبة الناس لنشر التعاليم الإسلامية الصحيحة ومحاربة التدجيل والشعوذة وكل الآفات التي تفشت في المجتمع في غياب المرشدين والمصلحين الذين كانوا يقومون بهذه المهمة من باب الواجب الديني والوطني دون حسابات حزبية أو فئوية أو شخصية. وقد تكاملت وظيفة المسجد مع وظيفة الصحافة في تنوير عقول الناس وتحسيسهم بضرورة العودة إلى منابع الإسلام الصحيح والمساهمة في الحفاظ على الشخصية الوطنية الجزائرية، وفي هذا الميدان كان للشيخ مبارك الباع الطويل منذ انخراطه في العمل الإصلاحي.

---

[1] أنظر: البصائر ، نفس المرجع،عدد 28-29-30-31-فيفري 1936، ص 8.

[2] نفسه، ص نفسها.

المبحث الرابع : تأسيس وتطوير الصحافة العربية في الجزائر :

لقد عزف مبارك الميلي من المساهمة بالكتابة في الصحف والجرائد التونسية أثناء فترة دراسته بجامع الزيتونة – عدا تشطيره لبيت شعري في جريدة النهضة[1]– مكرسا بذلك كل جهده للاستفادة القصوى من الوسط العلمي الزيتوني والمطالعة والبحث[2]، لكنه حين عاد من تونس كان يحمل في تصوره مشروعا طموحا في تأسيس الصحافة؛ فقد جلب معه إلى قسنطينة " مسودة قانون أساسي يحث الطلاب وأهل العلم على المساهمة في إنشاء مطبعة كبرى تطبع المنشورات وتنشر الجرائد والمجلات[3]".

ومن خلال هذا التصور يتبين مدى الإدراك المبكر لمبارك الميلي في ضرورة تأسيس المطبعة التي تقوم عليها حركة نشر المطبوعات، ومنها الصحف كوسيلة عملية للمشروع الإصلاحي الذي بات أنصاره في حاجة ملحة إليها في مطلع العشرينيات. ونلمس أهمية الصحافة في المشروع الإصلاحي لدى الميلي في تقديره لمبادرة الشباب الذي استجاب في إصدار الصحف بنية التأسيس لنهضة حديثه في قوله:"ولعل شباب اليوم قد فطنوا... فأخذوا في تأسيس نهضة طالبين المجد من بابه، باب تطهير الدين من مبتدعات المضلين، وباب إحياء اللغة العربية و لم يروا كالصحافة والنوادي أقرب سبيل إلى غايتهم الشريفة ، فأسسوا أخيرا جريدتين حرتين تعملان لتحقيق تلك الغايتين[4] ".

ويقصد بذلك جريدتي المنتقد(*) والجزائر(**)، اللتين صدرتا في منتصف سنة خمس وعشرين (1925)، و لم يكن بينهما في الصدور سوى أسابيع قليلة، ومنذ البداية يفصح

---

(1) النهضة التونسية:عدد جانفي 1924.

(2) محمد الصالح الجابري: المرجع السابق، ص نفسها.

(3) عبد الحفيظ الجنان: المصدر السابق، ص نفسها.

(4) مبارك الميلي: هل نحن في بداية نهضة..، المنتقد، ع 10 سبتمبر 1925، ص1.

(*)المنتقد: اسبوعية سياسية تهذيبية صدرت في 2 جويلية 1925 أسسها ورأس تحريرها ابن باديس وأدارها أحمد بوشمال ،وتوقفت بعد 18 عددا في 29 أكتوبر 1925، (النسخة الموجودة بأرشيف قسنطينة).

(**) الجزائر :صحيفة إصلاحية أسسها الزاهري صدر عددها الأول بعد أسابيع قليلة من صدور المنتقد سنة 1925 وقد كان الشيخ ابن باديس يعلق عليها آمالا كبيرة ؛ وجاءت لتكمل رسالة "الاقدام "الوطنية . (محمد ناصر:الصحف العربية الجزائرية ....ص 55)

الميلي عن الصحافة كوسيلة لتطهير الدين وإحياء اللغة العربية، وهما الهدفان اللذان سيجعل من الصحافة أداة لتحقيق مراميهما، عبر جهوده المتواصلة في عالم الصحافة.

أقدم مبارك الميلي على الكتابة الصحفية بعزيمته التي حملها في مشروعه الذي وجد أستاذه عبد الحميد بن باديس بدأ العدة لانطلاقته فكان من أركانه الأساسيين "وقد ابتدأ ذلك باشتراك مع شبان ناهضين بقسنطينة كان على رأسهم الأستاذ عبد الحميد بن بلديس، أسسوا جريدة المنتقد، وهجموا بها على معاقل الجهل والجمود[1]".

وقد برزت مقدرة مبارك الميلي في مجال الكتابة الصحفية من الأعداد الأولى لهذه الجريدة إذ ضرب بمقالاته النارية معاقل الجهل والجمود؛ من خصوم الفكرة الإصلاحية ومن "أشهر تلك الضربات؛ مقالات: العقل الجزائري في خطر، الجمهورية ضمن المملوكية وغيرها من المقالات أمضاها باسم البيضاوي، فاسمعت الصم وحركت جبال الجهل والظلم والإرهاق[2]".

وبهذه الانطلاقة القوية في مجال الكتابة الصحفية برهن مبارك الميلي أن عزيمته في هذا المجال قوية، وسيكون له باع طويل امتد معه إلى نهاية حياته مظهرا قلما رفيعا وبارعا وكان دوما في الصفوف الأمامية للمواجهة الطويلة مع خصوم الفكرة الإصلاحية قائلا كلمته مهما كان الثمن.

وازداد عزم مبارك الميلي في توظيف كتاباته في التأسيس للفكر الإصلاحي بتناوله لقضايا الأمة لإحيائها حياة عملية لا نظرية، وعبر صفحات الشهاب[3] ستكون له جولات إذ لم تنقطع مساهماته في هذا المنبر عبر مراحله بين أسبوعية وشهرية إلى أن توقف عن الصدور.

---

(1) عبد الحفيظ الجنان: المصدر السابق، ص:38.

(2) نفسه، ص نفسها.

(3) الشهاب: جريدة صدرت كأسبوعية في قسنطينة لـ1925/11/12، وتحولت إلى مجلة شهرية في فيفري 1929 إلى أن توقفت في سبتمبر 1939 (الشهاب المطبوع).

والجدول الخاص بمقالاته يبين تلك المساهمة[1] ومضمون وخصائص المواضيع التي كتبها بينت أن مبارك الميلي برز ككاتب للمقال الصحفي من الدرجة الأولى كما سنرى ذلك في هذا المبحث.

لقد هز مبارك الميلي بمقالاته النارية أركان خصوم الحركة الإصلاحية بشكل لافت في مقالاته ضد الطرقيين، أدت إلى حادثة محاولة إغتيال الشيخ عبد الحميد بن باديس[2]، وما ترتب عليه من تجنيد صفوف أصحاب الفكرة الإصلاحية الذين عبروا في كتاباتهم عن إستيائهم العميق منددين بتلك الفعلة الشنيعة[3].

ومن بين ردود الفعل الأولى مقال مبارك الميلي بعنوان " ابن ملجم القرن العشرين"عبر فيه بقوة و بأسلوب متهكم شنع فيه بالطريقة العليوية و شيخها مستثمرا الحادثة في تنوير أنصار الحركة الإصلاحية بحقيقة الطرقية وأباطيلها[4].

وقد سجلت أصداء ذلك المقال في صفوف قراء أسبوعية الشهاب كما جاء في رسالة لأحد شباب الحركة الإصلاحية يناصر ويؤيد مبارك الميلي في ذلك المقال "بيضاوي، إنك تتكلم بصراحة وحرية ولا تداري ولا تركن إلى المدارة...أنت اليوم يا بيضاوي صاحب الراية إننا نعلق عليك الآمال في هزم هذا الجيش الجرار، جيش الشعوذة والتضليل[5]". وبهذا الموقف القوي في معالجة للحادثة أكد الميلي أنه الكاتب الإصلاحي الذي فتح آفاقا جديدة للرأي الحر والموقف الشجاع إلى جانب بقية كوكبة رواد الحركة الإصلاحية في تناوله للقضايا الحساسة بمواضيع سجل بصماته الواضحة على صفحات الشهاب وغيرها من الصحف الإصلاحية المعاصرة في مواضيع متنوعي الجوانب الدينية والاجتماعية والسياسية.

---

(1) أنظر الملحق رقم 1 من هذا البحث.

(2) أحمد حماني: المرجع السابق،ص20.

(3) جريدة الشهاب فيفري 1927 وما بعده، حيث هناك مقالات عديدة لرواد الحركة الإصلاحية.

(4) الشهاب: عدد 78، رجب الثاني 1345، الموافق 26 جانفي 1927.

(5) أحمد حماني: المرجع السابق،ص:45 وما بعدها.

وتوسعت مساهمة الميلي في الصحافة الإصلاحية بما كتبه من مقالات في الصحف التي أنشأها زملاء له في الحركة الإصلاحية في نهاية العشرينات مثل"البرق"[1]، "الإصـــلاح"[2]، "وادي ميزاب"[3]، مما يبين أهمية الكتابة عند مبارك الميلي وعدم الاكتفاء بمنبر واحد حرصـا منه على توسيع دائرة الفكرة الإصلاحية وتعميمها على أوسع نطاق وفي مختلف الأوسـاط، متابعا بذلك كل مستجدات الحياة الوطنية الجزائرية الزاخرة بالقضايا السياسية والدينية، وبما تقوم به السلطات الاستعمارية وأعوانها من مظالم وقمع وقهر. وقد تصدى مبـارك الميلـي بقلمه رغم العنت والمضايقات، في تلك الفترة من نهاية العشرية الثانية، بكتاباته المقاومـة، ثم حاول التفرغ لتأليف كتابه الشهير "تاريخ الجزائر في القديم والحديث".

ويواصل مبارك الميلي جهوده في تأسيس وتطوير الصحافة العربية في الجزائر خـلال العقد الثالث من القرن العشرين في صحف جمعية العلماء المسلمين الجزائريـين[4]، سـواء ككاتب أو كمسير ومجاهد ملتزم بمبادئها وأهدافها.

ساهم مبارك الميلي بالكتابة في الصحف التي أصدرتها جمعيـة العلمـاء المسـلمين الجزائريين منذ محاولاتها الأولى بتأسيس منبرها الإعلامي ليكون لسان حالها.بدء بصحيفـة السنة النبوية[5]، أو بالشريعة النبوية المحمدية[6] وصحيفة" الصراط السوي ومـن اهتـدى" وهذه الصحف جميعها صدرت بداية من العام الثالث لتأسيس جمعية العلمـاء وتسـاقطت الواحدة تلوى الأخرى في نفس السنة بسبب القمع الرهيب الـذي مارسـته السـلطات الفرنسية في سنة 1933 بإصدار قرارات ضد نشاطات الجمعية ومنها منع إصدار الصحـف

---

(1) البرق:اجتماعية أدبية انتقادية صدرت بقسنطينة سنة 1927 بإدارة رحموني محمد عبد المجيد، ورئيس تحريرها محمد السعيد الزاهري .

(2) الإصلاح: صحيفة أسبوعية اصدرها العقبي سنة سبع وعشرين ، ببسكرة .

(3) وادي ميزاب. صدرت كأسبوعية بعاصمة الجزائر سنة ست وعشرين وتسعمائة وألف.

(4) تأسست في 31 ماي 1931.

(5) السنة النبوية: لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين صدرت كأسبوعية في1933/03/01 بقسنطينة، صدر منها 13 عدد وتوقفت بأمر من وزير الداخلية الفرنسي.

(6) جريدة الشريعة: لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين صدرت كأسبوعية بقسنطينة في 1933/07/17 صدر منها 7 أعداد وعطلت من طرف السلطات الفرنسية.

بناء على منطوق القانون المشؤوم وقرارات مدير الشؤون الأهلية[1]، وهي الأسباب التي جعلت هذه الصحف لا تعمر إلا شهورا.

هذا وكان مبارك الميلي في الموعد مع أهم صحيفة أصدرتها جمعية العلماء المسلمين منذ تأسيسها لجريدة البصائر[2]، إذ يلاحظ الدارس لتجربته الإصلاحية في مختلف أطوارها وفتراتها تسجيل حضوره المبكر على صفحات "البصائر" بتميزه البارز من خلال مقالاته التي تصدرت الصفحة الأولى منذ أعدادها الأولى؛ إذ بدأت الصحيفة تنشر حلقات "الشرك ومظاهره" منذ العدد الخامس الصادر في الواحد والثلاثين جانفي 1936، إلى العدد الثاني والأربعين (42) الصادر في جوان من نفس السنة، بمجموع ثلاث عشرة مقالة؛ ليتوقف مبارك الميلي عن النشر بسبب المرض الذي اشتد عليه إلى غاية نهاية نوفمبر، حيث استأنف مقالاته بدءا من العدد الثاني والأربعين الصادر في نوفمبر 1936 وبتلك العودة يجدد صلته الدائمة مع قراء البصائر الذين عبروا عن سرورهم بتلك العودة؛ كما جاء في رسالة علي مرحوم "فكم كنا مسرورين بعودة مقال الشرك ومظاهره إلى الظهور، ذلك المقال الذي أتحفنا به العلامة الجليل الشيخ مبارك الميلي منذ أشرق نور جريدة البصائر في الآفاق"[3].

و لم يقتصر الشيخ مبارك الميلي على كتابة المقال السابق الذكر،إذ تضمنت أعداد السنة الأولى مساهمات متنوعة؛ فقد زود البصائر بمادة إعلامية تعكس دقة إحساسه بدور الصحافة في الجهود الإصلاحية وإبراز نشاطات الجمعية وإعلام جمهور قرائها والرأي العام بما تقوم به من عمل ميداني في نشر أفكار ومبادئ الإصلاح من مختلف الأوساط،كما يتضح ذلك من تقريره الصحفي عن تفقد وفد جمعية العلماء برئاسته لعدد من شعب

---

(1) قرارات ميرانت عام 1933.

(2) البصائر لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين صدرت سلسلتها الأولى بمدينة الجزائر يوم 27 ديسمبر 1935، ثم انتقلت إلى مدينة قسنطينة ابتداء من عددها 84 الصادر بتاريخ الجمعة 29/10/1937 إلى شهر أوت 1939.
في عددها الثمانين بعد المائة، ثم صدرت سلسلتها الثانية في عام 1947 و توقفت سنة 1956 و هي الآن في سلسلتها الثالثة منذ ماي 2000.

(3) علي مرحوم: البصائر العدد 44، أكتوبر 1936، ص7.

الجمعية بمدن و قرى الشمال القسنطيني تحت عنوان "حياة الإصلاح في البلدان التي زرناها"[1].

وإذا كانت تلك الزيارة تدخل في تنفيذ برنامج الجمعية لتجديد وتعميق الصلة مع قواعدها التي تنشط في الميدان فإن نشر وقائع الزيارة وفي تلك الفترة بالذات صيف 1936 بمثابة توضيح ضروري للرأي العام بحقيقة خلفيات وأبعاد الاصطدامات التي وقعت بين أنصار الحركة الإصلاحية الإسلامية في ميلة وإخوان الزاوية الحنصالية[2].

وتتطور ومساهمة مبارك الميلي في صحيفة البصائر بتوليه مسؤولية إدارة تحريرها خلفا للشيخ الطيب العقبي بانتقالها من الجزائر إلى قسنطينة.

تعد إدارة تحرير البصائر مرحلة جديدة في جهود مبارك الميلي في تطوير الصحافة العربية في الجزائر؛ فإدارة تحرير جريدة تختلف عن الكتابة الصحفية اختلافا جذريا، فالمهمة تتطلب إمكانات مهنية عالية وتصورا محكما ينبنى على خبرة متحققة في الواقع.

لقد تولى مبارك الميلي مسؤولية إدارة تحرير أسبوعية البصائر ابتداء من عددها الرابع والثمانين الصادر يوم الجمعة 29 أكتوبر 1937،كما بينه "شعار" الجريدة في العدد ذاته، في الزاوية اليمنى للصفحة الأولى؛ إذ كتب المدير رئيس التحرير: محمد بن مبارك الميلي[3]. وكذلك المقال الافتتاحي لمبارك الميلي الذي أوضح في مضمونه مباشرته لمهامه كمدير ورئيس تحرير[4].

وقد بلغت حصيلة مبارك الميلي في إدارته لتحرير جريدة البصائر تسعين عددا في فترة زمنية امتدت على مدار اثنين وعشرين شهرا، وهي نصف عمر هذه الجريدة في سلسلتها الأولى (1935–1939) وهي الصحيفة الرابعة التي أصدرتها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وكانت، بشهادة عدد من الدارسين الموضوعيين، تعد من أكبر الصحف العربية

---

[1] البصائر السنة الأولى أعداد:30.29.28.جويلية/ أوت 1936.

[2] أنظر "الحادثة"، ص90

[3] البصائر: عدد 84، 29 أكتوبر1937،ص1.

[4] نفسه، ص نفسها.

شهرة وانتشارا ومن أعظمها أهمية لما تركته من أثر عميق في مجرى الحياة الوطنية[1].

وقد بنى مبارك الميلي رؤيته العملية في تسيير صحيفة البصائر على تصوره الذي نضج من خلال مشواره الطويل في الصحافة؛ انطلاقا من تقديره لأهميتها في تنفيذ الأفكار والدعوات والتي تعد ضمن الخطط الهامة في ذلك "وإن من أهم الخطط وأعم الوسائل لتحقيق الغايات ونشر الدعوات، إنشاء الصحف السيارة التي تحفظ جيد الأقوال وسديد النظريات، وتدخل بها على الطالب في مسكنه، وعلى التاجر في متجره، وعلى الصانع في مصنعه،وعلى الملأ في ناديهم وعلى المسافرين في مراكبهم، بل لا يحجبها على الفتيات خدر ولا حرس، ولا يحول بينها وبينهم خدر ولا شرس. وما وجدت فكرة الإصلاح الديني بأرض الجزائر حتى وجدت صحف تعبر عنها، وتبشر بها، وتدافع دونها[2]".

ومن خلال هذه الرؤية الشاملة لدور الصحافة في الإعلام والإرشاد والتوجيه والتثقيف والإصلاح، يرسم الشيخ مبارك الميلي خطته موضحا رؤيته من موقع المدير المسير للتحرير. مذكرا بخصوصية صفة البصائر وخطها الافتتاحي.. يقول في مقال افتتاحي له: "البصائر صحيفة جمعية ومبدأ، وعلى كل مؤمن بمبدأ أن لا يدخر وسعه في نشر صحيفة تخدم ذلك المبدأ ولا يألو جهده في إمدادها ماديا وأدبيا، وعلى كل فرد من أفراد الجمعية أن يقوي صوتها في الدعوة إلى مبدئها، ويطلق لسانها الناطق باسمها[3]".

وإذا كان الإطار القانوني للصحيفة كونها لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين كما جاء في تقديمه، فإن تذكيره بأنها صحيفة مبدأ مسألة أساسية؛ لأن هناك ما يترتب على الصحيفة المبدئية من الالتزامات وأولها وضوح الخط الافتتاحي المعبر عن مبادئ الجمعية، وذلك الالتزام لن يكون إلا بالإيمان بتلك المبادئ إيمانا قويا يجعله يسخر كل إمكانياته وطاقاته لخدمة ذلك المبدأ؛ سواء بتقوية هذه الصحيفة التي لها وظيفة إستراتيجية، ماديا أو معنويا، وهي نشر مبادئ الإصلاح والدفاع عنها وفك الحصار المضروب على

---

[1] محمد ناصر: المرجع السابق،ص 180

[2] مبارك الميلي: البصائر ، العدد 84،27 أكتوبر 1937.

[3] مبارك الميلي: البصائر العدد 83، أكتوبر 1937.

الجمعية.

ونقف تارة أخرى على عمق التصور الإعلامي وخلفياته والرسالة الإسلامية المنوطة بالبصائر من افتتاحية له للسنة الرابعة من صدورها، باعتماده على منطوق الآية الكريمة المؤدى في وصية لقمان الحكيم في موعظته لابنه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومصداقه من قوله تعالى في سورة لقمان: "يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وأنه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور..." ؛ فقد ذكر من جديد أن البصائر تسير في ضوء الوصية الخالدة التي هي من وصايا جمعية العلماء في جمعيتها العامة وتوجيه رئيسها "هذه لا تزال على " البصائر" قائمة بذلك داعية إليه وهي لا تزال على خطتها التي أعربت عنها للعمل على رفع مستوانا الاجتماعي في دائرة العروبة والإسلام من غير كراهية لجنس أو مبدأ أو شخص إلا جنس الظلم"[1].

وقد أحسن إدارة جريدة البصائر، كما شهد له بذلك العديد من زملائه ومن بينهم الشيخ البشير الإبراهيمي. لقد ربط مبارك الميلي نجاحه في هذه المهمة باستجابة العلماء للكتابة فيها وتزويدها بالمادة الراقية التي تفتح المجال لإعلام المواطنين إعلاما بهدف تربيتهم وتبصيرهم وتقوية دوافعهم[2].

ومن الشروط التي وضعها للكتاب حتى يتم اعتمادهم كل في جهته الالتزام بالتصوير الصادق للقضايا والارتفاع عن حزازات النفوس ونزعات الأحزاب ومقابل ذلك توفر البصائر الحماية والوقوف بجانبهم عند كل ظلم يلحق من أي جهة كانت مثلما أكد الميلي ذلك في احدى كتاباته بقوله: "وعلى أعضاء الجمعية أن يخبروا إدارة الجريدة بكل عمل يقومون به لخدمة الجمعية وبكل عقبة تعترض سيرهم نحو غايتها، وبكل ظلامة تقع عليهم من أجل مبادئها لتقوم إدارة التحرير بإبلاغ ذلك إلى الرأي العام فتبين سير الجمعية وتخلد موقف العاملين، وتشهر بالظلمة الباغين"[3]. وقد حاولنا الإشارة إلى نماذج من تلك

---

[1] مبارك الميلي : البصائر عدد 141، 3شوال 1357، 25 نوفمبر 1938.

[2] أحمد حماني: المرجع السابق،ص:16.

[3] مبارك الميلي: البصائر عدد 84، 28 أكتوبر 1937.

الرسائل وأدرجنا أمثلة عنها في الملحق المرفق بهذا البحث.

و لم يقتصر مبارك على استكتاب كبار العلماء ،بل فتح صفحات الجريدة للشباب المقتدرين وشجعهم على المساهمة بشرط " أن لا يثوروا من تصرف الإدارة فيما رأت التصرف فيه، أو بالتلخيص أو بالإهمال، فإن الثقة أساس التعاون والمدير قد يرى ما لا يتفطن إليه الكاتب "وفي نهاية كلامه يصل إلى الصورة المهنية التي رسمها للجريدة التي يجب أن "تجمع بين آمال الشيوخ واعتدال الكهول وإفراط الشباب"[1].

إلى جانب كل ذلك،كان مبارك الميلي شعلة من النشاط في الكتابة وتأطير الناشئين من الأدباء، مع تبادل الرسائل الخاصة مع كبار العلماء يخاطب كل واحد حسب مستواه واستعداده من نقد وتشجيع وإرشاد.

وهكذا نستنتج من خلال ما أحاط به نفسه كمسؤول عن الجريدة من احتياطيات وإجراءات كثيرة أنه وضع نظاما محكما أشرك فيه الجميع وحفزهم لأخذ نصيبهم من المسؤولية في إنجاز الجريدة التي هي قبل كل شيء عمل جماعي تلتقي فيه الكفاءات؛ كل في مجال اختصاصه حتى تكون ما أسماه أحد العاملين ضمن جمعية العلماء "التبعة جماعية في إنجاح الجريدة، وإنجاح رسالتها، ليغدو أثرها بالغا في النفوس، والعقول، والقلوب والأذواق. ومهما يكن دستور العمل في ذلك الوقت،فقد كان عنوانا على مقدرة الشيخ مبارك الصحفية ودليل إهتمام بالواجب، وبرهان إخلاص للمهمة، وتفانيا في خدمتها، وقد ظهر ذلك جليا في أبواب الجريدة، وفي افتتاحياتها وفي أسلوبها".

مسألة التوزيع التي أولاها عناية فائقة؛ لارتباطها الوثيق بنجاح الجريدة وضرورة وصولها في الوقت المناسب وبأعداد كافية إلى قرائها؛ حتى يرتفع مدخولها الذي هو أساس بقائها وحتى ينتفع بها أكبر عدد ممكن من القراء خاصتهم وعامتهم. وفي هذا الصدد كتب يقول: "وعلى رؤساء الشعب وكل غيور من أنصار الإصلاح أن يرتبطوا بإدارة الجريدة

---

[1] أحمد بن ذياب: " معالم في حياة الشيخ مبارك " البصائر،عدد 27،15 مارس 1984،ص:6.

للاتفاق على خطط العمل في نشر الجريدة بيعا واشتراكا، لتقوى على السير المنظم والرقي المطرد"[3].

وبعقلية المسير الخبير المقدر لأهمية علاقة الجريدة بقرائها وكتابها يعمل مبارك الميلي على نسج هذه العلاقة بتبصر وحكمة؛ لأن ذلك يعزز مكانة الجريدة ويشركهم في تلك المسؤولية "وقد دخلنا السنة الثالثة آملين من الكتاب أن يؤدوا ما عليهم من حقوق أدبية ومن القراء أن يقضوا ما عليهم من واجبات مادية لتقوم بمهمتها الدينية والاجتماعية[1]". وهذا بعد أن مهد الميلي في مقاله الافتتاحي لفاتحة السنة الثالثة من عمر الجريدة بتقديم يدخل في سياسة إرساء تقاليد جديدة مع قرائها والتحسيس المستمر بأهمية ومكانة هذه الجريدة في تلك الظروف التاريخية والمغزى من جعل فاتحة كل سنة ذكرى صدور "البصائر"، والتي اعتبرها عيدا ثالثا للإصلاحيين؛ "فقد بزغت شمس هذه الصحيفة على العالم الإصلاحي بعد طول انتظار... فكان يومئذ للمصلحين ثلاثة أعياد: عيد الفطر وعيد الجمعة وعيد إشراق هذه الصحيفة"[2].

وفي المقال السابق يجعل من مناسبة ذكرى صدور "البصائر" الفرصة لدعوته التأصيلية لشخصية الأمة في إحتفالها بمثل هذه الذكريات المجيدة ويوضح أهداف اختيار تعداد عمر : البصائر" بالسنين القمرية، مع الرجاء من كل غيور على الإسلام والعروبة مهتم بحياتهما وقوتها أن يعد عمر نفسه بالسنين القمرية"[3].

ويواصل مبارك الميلي نسج علاقات البصائر مع محيطها بالمتابعة الدقيقة والصارمة لاستمرار تحسنها واستقطاب القراء والكتاب الجدد إلى أن بلغت تلك العلاقة درجة الحميمية النادرة. كما يستشف من مقاله الإفتتاحي الذي دبجه بعد عودته من فرنسا في مقاله" إلى عشرة القراء والكتاب"؛ معبرا عن تشوقه لتلك العودة، لأن غيابه لمدة ثلاثة أشهر للعلاج بفرنسا وما تشكل لديه من ذلك الانقطاع م ينسه تلك العلاقة الحميمية: "بعدنا

---

[3] مبارك الميلي: البصائر عدد 84، 29 أكتوبر 1937.

[1] مبارك الميلي: البصائر عدد 90 الجمعة 3 شوال 1356، الموافق 10 ديسمبر 1937.

[2] نفسه، ص نفسها.

[3] نفسه، ص نفسها.

بذلك البحر وأحاديثه عن كتاب "البصائر" وقرائها فلم نكن نستطيع الإشراف على التحرير والنظر فيماحقه التقديم والتأخير.و لم نستطع مشاركة القراء في الملاحظة على ما ينشر في بصائرهم فنستحسن أو نستنكر، فلم نكتب إلى الإدارة برأي في شأن كتاب البصائر ولا أبدينا لها ملاحظة إدارية وطباعية"[1].

وبقدر ما نلمس من العلاقة الحميمية لمبارك الميلي كمسؤول أول على الجريدة وحرصه على تأصيل تلك العلاقة لإدراكه التام بأنها من رأس مال الجريدة. نلمس أيضا الآليات العملية لكيفية الإشراف والمتابعة العملية له في إصدار الجريدة التي تبين تحكمه التحكم في مختلف الأقسام والتنسيق الذي كان يؤديه كمتابع ومسؤول أول على اصدار البصائر بحرارة المسير الحريص على تجديد الصلة مع الكتاب والقراء، يقول: "واليوم انتهى بعودنا ذلك البعد الحسي... وعزمنا على مباشرة الإدارة ومعاشرة الكتاب واستيحاء ملاحظات القراء، ولكن طول العهد بالعمل يورث الإخلاد للراحة، ومبدأ التدريج في الحياة يضعف الأمل في استعادة النشاط لأول مرة"[2].

---

[1] مبارك الميلي : البصائر ، 7 رجب 1357، الموافق 3 ديسمبر 1938.

[2] مبارك الميلي : البصائر : إياب إلى عشرة القراء والكتاب، عدد 129، 7 رجب 1357، الموافق 3ديسمبر 1937،ص:1.

خلاصة الفصل :

وخلاصة لما سبق فإن مبارك الميلي نزل إلى ميدان التدريس بأفكار كبيرة وطموح لا يضاهى إلى جانب تمتعه ببراعة وسحر أسلوب خلب به عقول تلاميذه وزملائه بالمدارس التي عمل بها. وقد بلغ تأثيره إلى درجة أنه حول في الأغواط "بعض معلمي اللغة الفرنسية إلى العناية باللغة العربية والبراعة فيها، حتى أصبحوا معلميها وأساتذتها كما يذكر ذلك الأستاذ عمر دهينة وهو أحدهم[1]".

الأمر الذي أدى إلى اعتباره أول معلم أنشأ ودشن التعليم المدرسي العصري الذي انتشر آنذاك في الجزائر، وكانت إقامته بالأغواط أخصب فترة في حياته في ميدان التعليم الذي زرعت بفضله بذورا أكملت العمل الذي قام به عند مغادرته الأغواط.

أما طريقته في ممارسة هذه المهنة النبيلة التي أعطاها جل وقته كانت محبوبة من طرف التلاميذ الذين أقبلوا عليه بكثرة، وركز بالأساس على بث الروح الإسلامية والقومية العربية والعزة في نفوسهم، وتربيتهم على الدوام على مكارم الأخلاق الإسلامية مباينا ومقاوما لما كانت تلقنه المدرسة الفرنسية.

وبفضل عمله الدؤوب استطاع بمدرسة الشبيبة بالأغواط التي تعد أولى المدارس الحرة الجزائرية في ذلك الوقت أن يزودها بكتيبات وكراسات وخلاصات، فألف دورسا في النحو والصرف والتوحيد والفقه الذي شرح فيه المرشد المعين شرحا مدرسيا، كما كتب للطبقة النهائية من التلاميذ ما يحتاجونه من المبادئ المنطقية وشروحا لبعض القصائد ضمنها الدروس التطبيقية باللغة العربية[2].

في كل هذا كان مبارك الميلي المعلم المثالي الكفء والمتفتح على أساليب العصر وقضاياه في موقفه الرائد من تعليم المرأة وحرصه الكبير على إعطائها الفرصة للتعليم إلى جانب الرجل في إطار من المبادئ الإسلامية وفي ضوء الالتزام بمقتضيات الشريعة.

---

(1) أحمد بن ذياب: "الشيخ مبارك الميلي في ذكرى وفاته الثانية و الثلاثين- مجلة الثقافة-"، عدد 37 ، فيفري/مارس 1977،ص:48.

(2) أبو بكر بن بلقاسم الأغواطي:" عصامية الشيخ مبارك الميلي" البصائر، عدد 27، 15 مارس 1948، ص7.

وبرز الشيخ مبارك الميلي كداعية مصلح عالج القضايا العقدية في أسلوب تجديـــــدي عن طريق الدعوة بأساليب علمية تجلت في فهمه لواقع أمراض المجتمع الجزائري في مفاهيمـــه الدينية، ولذلك وجدناه يؤلف كتاب "الشرك ومظاهره" انطلاقـــا مـــن قراءتـــه الميدانيـــة لممارسات الناس لشعائرهم الدينية اعتقادا وسلوكا وتشخيصه الذي بدأ بالدروس المسجدية في المناطق التي استقر بها (الأغواط ثم ميلة) والحواضر التي كان يرحل إليها وتقديم دروس في الوعظ والإرشاد.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

* الفصل الخامس *

آثاره الفكرية في التأليف والصحافة

* المبحث الأول : مؤلفاته المطبوعة

* المبحث الثاني : آثاره المنشورة في الصحف

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إن الشخصية العلمية للشيخ مبارك الميلي التي صقلتها حياته التعليمية والعملية كما عرفنا في الفصول السابقة، قد جعلته يتبوأ الصدارة والسبق في الحركة الإصلاحية في مجال البحث والتأليف، وهي الميزة التي جعلتنا نخصص لآثاره الفكرية هذا الفصل في محاولة للإجابة عن الأسئلة التي طرحناها في إشكالية هذا البحث الذي سنتناول فيه الأسباب والأهداف التي توخاها مبارك الميلي في مؤلفاته. وإمكاناته العلمية في البحث والتأليف، ورأي الباحثين المعاصرين له في تلك المؤلفات، كما سنتطرق إلى الفوائد التي جنتها الحركة الإصلاحية الإسلامية من تلك التآليف التي اعتبرت بمثابة أسلحة فكرية في غاية من الأهمية لمواجهة الأوضاع الفكرية والعلمية التي كانت قائمة في تلك الحقبة.

وفي هذا الفصل أيضا، سنتعرف على جانب أساسي في جهود الميلي الإصلاحية وهو عمله بالصحافة تأسيسا وتأطيرا وكتابة. وحصيلة ذلك أكثر من خمسين مقالة نشرها في صحف الحركة الإصلاحية، والتي ستكشف لنا عن خصوصيات كتابته الصحفية والقضايا التي كان يعالجها انطلاقا من رؤيته الفكرية والعلمية للعمل الإصلاحي وأهمية الصحافة في ذلك.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول: مؤلفاته المطبوعة

أولا: كتاب تاريخ الجزائر في القديم والحديث:

لعل التساؤل الذي يقتضيه البحث عن إبراز جهود مبارك الميلي الفكرية هو: لماذا أقدم هذا المصلح السلفي ذي التكوين الديني في الفقه وأصوله والشريعة ومقاصدها خريج الزيتونة التأليف في تاريخ الجزائر وفي تلك الظروف التاريخية بالذات وحقق فضل السبق في مجال بعيد عن تخصصه؟.

ومشروعية التساؤل تكمن في أن التعرف على الأسباب الحقيقية لإقدام الميلي على هذا الإنجاز تكشف لنا الهدف الأساسي للكتاب وقيمته التاريخية في تلك الظروف.

كما أن هناك تساؤل آخر مرتبط بالأول وتفرضه طبيعة التأليف مفاده : ما هو المنهج الذي اتبعه مبارك الميلي في كتابه ؟

ومشروعية هذا التساؤل تكمن أيضا في أن التعرف على الكيفية التي تعامل بها الميلي مع المادة التاريخية –بزاد معرفي تقليدي في نظر البعض – ليخرج كتابا يبحث في القضايا السياسية والإدارية والأدبية والاقتصادية وغيرها، ويبرهن أن المنهج الإصلاحي السلفي له دلالات ونظريات في واقع المجتمع الجزائري، أعمق وأشمل وأوسع، عكس ما كان يحشر خصوم الفكر الإصلاحي الإسلامي في الجزائر مبارك الميلي وغيره من رواد الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر، في دائرة الإصلاح الديني الضيق. الذي يقتصر على مراجعة الحواشي في الكتب التقليدية ...وحصر دورهم في منابر المساجد؟.

فكيف كانت بداية التفكير في هذا الإنجاز؟ وكيف خرج إلى حيّز التنفيذ ليم تقديمه للطبع في نهاية 1927؟ كما جاء في إعلان الشهاب "مَثُلَ الجزء الأول من هذا الكتاب للطبع وهو خير ما ترجوه الجزائر من أبنائها العاملين ..ويطلب من صاحبه مبارك الميلي بالأغواط"[1].

ويبدو أن ظروف الطباعة قد أخرت إصداره إلى شهر نوفمبر 1928، كما أعلنت

---

[1] الشهاب: تاريخ الجزائر في القديم و الحديث. عدد 124. ديسمبر 1927.

جريدة النجاح لقرائها. واهتمت بالتعليق عليه والثناء على مؤلفه، ثم تبعه بإصدار الجزء الثاني في شهر فيفري 1932، كما أخبرت النجاح في تغطيتها لوقائع حفل التكريم الذي أقامته رابطة الأدب القسنطيني لمبارك الميلي بالمناسبة[1].

وبالنسبة لتاريخ صدور هذا الجزء فإننا نقرأ في الصفحة الأولى من الكتاب ما يلي: "طبع سنة 1350 هـ-1932 م"، وحسب اعتذار الميلي في الصفحة الخامسة منه، فإنه تأخر لصعوبات كبيرة لطبيعة الموضوع[2].

وكان مبارك الميلي يخطط لإنجاز جزء ثالث يغطي فترة الوجود العثماني بالجزائر، بعد أن غطى الجزء الأول الجزائر في العهد القديم، وغطى الجزء الثاني الجزائر في فترة المغرب الإسلامي. إلا أن مسؤولياته في جمعية العلماء ومرض السكري الذي أصابه فيما بعد، أدى إلى عدم استكماله له للجزء الثالث الذي كتب منه عشرين صفحة ، ثم أكمله على منهجه ابن محمد في سنة 1964[3].

لقد جاء إنجاز كتاب تاريخ الجزائر في القديم والحديث كأول سابقة من نوعها في مفاجأة من الحركة الاصطلاحية الناشئة في نهاية العشرينات للمدرسة الاستعمارية التي اعتبرت الإنجاز بمثابة "ميلاد أول تاريخ تاريخي وطني للجزائر"[4].

ويبدو أن هذا التقدير – حسب تاريخ صدوره – كان بعد تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ثم صدور كتاب في مجال تاريخ الجزائر من طرف توفيق المدني[5]، ثم كتاب عبد الرحمان الجيلالي[6]، لذلك يمكن القول عند البداية أن صدور كتاب الميلي الجزء الأول منه عام 1928م، أي بحوالي ثلاث سنوات قبل كتاب توفيق المدني ساهم في بلورة روح العمل الجماعي على الصعيد الفكري في التأسيس لمواجهة جديدة مع الاستعمار

---

(1) تاريخ الجزائر في القديم و الحديث ، النجاح عدد 664 ، نوفمبر 1928.

(2) النجاح عدد 1335هـ جويلية 1932.

(3) عبد الكريم بوالصفصاف : المرجع السابق، ص81.

(4) J .Desparmet naissance d'une histoire nationale d'Algérie in Afrique Française N° 7 . juillet 1933. p 338..

(5) "كتاب الجزائر " لأحمد توفيق المدني، صدر عام 1933، ط1 .

(6) "كتاب تاريخ الجزائر العام" لعبد الرحمان الجيلالي، صدر عام 1933.

بوسائل أقل ما توصف به أنها من جنس الفعل الاستعماري، أي بمواجهة علمـــاء الجزائـــر بفكرهم مع مؤرخي(علماء) فرنسا، الذين نفذوا المهمة الآجلة من مخطط فرنسا في الجزائـــر عند بداية الاحتلال في عام 1830م، بعد أن أنهى عساكرها مهمة الاحتلال لجغرافيا الجزائر.

ولذلك كانت مهمة العلماء ومنهم مبارك الميلي استفراغ أو طرد احتلال الفرنســيين لتاريخ الجزائر في عقول أبنائها، وهذا هو الإصلاح الفكري الذي ناشده مبارك الميلي مـــن خلال إحيائه للأمة الجزائرية عن طريق بعث تاريخها وإبراز شخصيتها عبر العصـــور الـــتي عملت على طمسها المدرسة الاستعمارية من خلال منظريها الاستعماريين من أمثـــال "س .أقزال قوتيه" الذين كانوا "قد صاغوا نظرية عدمية عن تاريخ المغرب العربي وعـــن تراثـــه الوطني والحضاري وعملوا على النسيج الاجتماعي الثقافي والأثـــنى لمجتمعاتـــه بـــالتفكيك والجمود "[1].

ولذلك فإن النخبة الفكرية والسياسية التي استجابت لهذا التحـــدي الأيديولوجـــي بنظرة جديدة كما يقول "ديبارمي"[2] والنخبة المقصودة هنـــا في تقديرنـــا في العشـــرينات ومطلع الثلاثينات التي كانت تنشط في الاتجاه الفكري هي مجموعة الشباب النـــاهض مـــن الجزائريين، الذين كانوا يعدون العدة لمواجهات قادمة أكثر تصورا وتنظيما وانتشارا وهـــم الطليعة العلمية يومئذ في البلاد ولقد كانت النزعة الإصلاحية في إحياء تاريخ الأمة الجزائريـــة قائمة في أذهان رواد الإصلاح الديني منذ البداية في مقدمتهم بن باديس، الذي عمل علـــى أيقاظ الشعور بذلك إذ قال: "لا يحي خلف إلا بحياة سلف وما حياة الســـلف إلا بحيـــاة تاريخهم ودوام ذكرهم"[3]، والانتساب للوطن في رأي بن باديس يوجب العلـــم والقيـــام بواجباته وبنهضة علمية واقتصادية وعمرانية[4]. ولإحساس بن باديس بالظلم الـــذي لحـــق العرب في تاريخهم صحح أخطاء المؤرخين وبين "أن التاريخ يجب أن لا ينظر إليه من جهـــة واحدة، بل ينظر من جهات متعددة. وفي العرب نواحي تجتبي ونواحي تجتنب وجهات تـــذم

---

(1) محمد المالكي : الحركات الوطنية والاستعمار ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ص 222.

(2) J.Desparrmet : Histoire des arabes et les oulamas d'Algérie in Afrique française . N°05 . 1934. P280.

(3) عمار طالبي : المرجع السابق، ج3، ص47.

(4) محمد الميلي: ابن باديس وعروبة الجزائر ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1973م، ص135.

وتقدح وجهات يبنى عليها وتمدح"[1]. وهذا الظلم الذي سلط على تاريخ شعوب المغرب العربي الذي تعد الجزائر منه، ينطلق من نظرة المؤرخ الاستعماري كما يرى الباحث الطاهر عمري في قوله: "إن طروحات المؤرخ وعالم السلالات الاستعماري تأخذ غالبا اتجاها مناقضا لطروحات المؤرخ العربي الإسلامي.

إذ نجد الأول منها لا يتردد عند دراسته مكونات المجتمع المغربي عموما، والمجتمع الجزائري خصوصا محاولته فك الروابط الاجتماعية والثقافية ليدرس كل مكوّن في وحدة مستقلة عن الآخر. وعلى النقيض من ذلك يحرص المؤرخ العربي الإسلامي على إبراز عناصر الوحدة الجغرافية والبشرية والثقافية لهذه المنطقة من العالم[2]. ومن جملة مظالم المؤرخين الاستعماريين على تاريخ الجزائر، ما حملته كتب مؤرخيها من تشويه بالإدعاء والأكاذيب من " أن الرومان كانوا في هذا الوطن كل شيء، وأنهم طبعوا المغرب العربي بطابعهم الخاص ولن يزول ذلك، وأن العرب سرقوا كل ذلك واختلسوه اختلاسا"[3].

وقد كان مبارك الميلي مدركا بشكل واضح وعميق أسباب النتائج الخطيرة التي تترسب في عقلية المتعلمين الجزائريين من جراء نظرة المؤرخين الأجانب في قوله: "وذلك تزهيد للمتعلم في وطنه وتنفير من بني جنسه"[4]. لأن ما كان يلقن من مواضع التاريخ قد حصر التفوق المطلق والسيادة للأمة الأجنبية، وحصر المعارف والحضارة فيها "بينما أجداده الأوائل إنما عاشوا في الهمجية وسقوط الأخلاق بعيدين عن الحياة والعمران[5].

ورغم هذا الإحساس من مبارك الميلي، فإنه تريث طويلا في خوض غمار التأليف في مجال تاريخ الجزائر، وذلك لاعتبارات ذاتية. إلا أنه فيما بعد استجاب للإلحاح الذي تكرر أكثر من مرة من طرف زملاء له في الحركة الإصلاحية لما بلغ الأمر درجة الشعور بالواجب الوطني، إذ يقول "فلم يحملني على الخوض في هذا الموضوع غير الشعور بواجب خدمة

---

[1] المرجع نفسه، ص21.

[2] الطاهر عمري : بيزا المجتمع الجزائري ودورها في مقاومة الاستعمار (1830م-1900)، رسالة ماجستير ،غير مطبوعة، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، ص3.

[3] أحمد توفيق المدني : مبارك الميلي مؤرخ الجزائر ، البصائر ، عدد26 ، 08مارس ، 1948 ، ص4.

[4] مبارك الميلي : تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج1، مكتبة النهضة الجزائرية، مطبعة بدران، بيروت، 1963، ص10.

[5] المصدر نفسه، ص نفسها.

الوطن"[1].

إذا الواجب الوطني والمفهوم الشامل لميادين الإصلاح، والفهم العميق لطبيعة المواجهة مع الاستعمار في شقها التاريخي الفكري، جعلت مبارك يقدم على تأليف هذا الكتاب.

واستهدف مبارك الميلي في كتابه إزالة الشبهات والادعاءات التي رسختها المدرسة الفرنسية عن الجزائريين من خلال تاريخهم.

فقد تناول الشبهات المتعلقة بأصل البربر السكان القدماء للجزائر، والتي عمل مؤرخو المدرسة الاستعمارية على ربطهم بالأصول الأوروبية لتبرير وجود المستعمرين الفرنسيين بالجزائر.

فقد تعامل مبارك الميلي مع المسألة من خلال اعتماده روايات متعددة، ومقارنات مبنية على نتائج الأبحاث والدراسات الحديثة في التاريخ لإبطال تلك المزاعم.

ومن الادعاءات التي تصدى لها " أن الرومان هم كل شيء في هذا الوطن كما سبقت الإشارة إليه". وقد تعامل مبارك الميلي مع الإدعاء بروح علمية في دراسة للوجود الروماني بالجزائر، وقد توصل في البحث إلى سرعة انتهاء الاحتلال الروماني بعد مرور 60 سنة على يد الوندال، وكذلك بمساعدة البربر لهؤلاء، الناجم عن رغبتهم في التخلص من الرومان[2]، وهذا الجهد كان يصب في إثباته للشخصية الجزائرية منذ العهود القديمة. وقد فند مبارك تلك الادعاءات بالمنطق والدليل التاريخي. وهو ما حرص على إبطاله بالتحليل والتعليل فيما هو قائم من أن العرب الهلاليين عند هجرتهم إلى المغرب العربي الإسلامي قد خربوا المنطقة واعتبار المؤرخين ومنهم بن خلدون الذي وصف ذلك بنكبة على الشمال الإفريقي، حيث رد الميلي على ذلك بأن الوصف مجانب للحقيقة ويحمل مبالغات أجنبية. ويرجع الميلي الأضرار التي لحقت بالمغرب الإسلامي إلى السياسة التي انتهجتها صنهاجه إزاء العرب، ومع هذا هناك مبالغة في تقدير أضرار بنو هلال واستغلال

---

[1] نفسه ، ص نفسها.

[2] أحمد توفيق المدني : المرجع السابق ، ص5.

الفرنسيين لذلك للنيل من العرب[1].

وقد سلك مبارك الميلي في تناوله مختلف القضايا السابقة الذكر وغيرها مسلك التحليل والتعليل، و لم يكتفي بالسرد، وبنى اجتهاداته على تعمقه في الأسباب والنتائج، وأظهر موقفه كمؤرخ وطني له شخصيته العربية الإسلامية في تصحيح تلك الأخطاء أو الادعاءات بجهد كبير ومعاناة لا يعرف حقيقتها إلا من عمل عمله، إذ يقول "لا شيء أشق على الكاتب العربي من كتابة التاريخ على النهج العصري، ولا تاريخ أغمض وأقل مادة من تاريخ الجزائر، ولا كتب أكثر تحريفا من الكتب العربية المؤلفة فيه، وقد قاسيت في تصحيح الأعلام وجمع المواد وإيضاح الأغراض التاريخية"[2].

فهذا النص الذي دبج به مقدمة الجزء الثاني، يبين حجم الخطر الذي وقف عليه مبارك الميلي من خلال قراءاته لتاريخ أشلاؤه ممزقة، ومواده مفقودة، والمتوفر منها محرف حتى المكتوب باللغة العربية.

ومن هنا تبدو قيمة الكتاب التاريخية كجهد قبل تقديمه كقيمة علمية، لأنه يمكن وصف جهد الميلي في تلك الفترة كمن يريد استخدام سلاح مغشوش في معركة غير متوازنة ومصيرية في نفس الوقت، بالنظر للتحريات السياسية الاستعمارية الفرنسية. ولذلك ظلت أهمية الكتاب من الناحية التاريخية بمثابة حدث علمي وإصلاحي بغض النظر عن قيمته العلمية، وتمثل شهادة أحمد حماني جانبا هاما في ذلك الزمن في حالة تاريخ الجزائر المبعثر جزء منه في تاريخ تونس وجزء منه في تاريخ المغرب، تبعا لدول كانت عواصمها هناك. لكن أجزاء من الجزائر كانت تابعة لها، بل هناك من مؤسسي تلك الدول موطنه الأصلي الجزائر كالدولة الموحدية على سبيل الذكر "وهذه هي الثغرة الواسعة التي استغلها المؤرخون الفرنسيون في طمس تاريخ الجزائر عبر العصور"[3]. وهو الخطر الذي قدره مبارك الميلي تقديرا ناضجا، وقصد بكتابه أن يسد ما تيسر له من تلك الثغرة الفكرية، ليثبت وحدة

---

[1] مبارك الميلي : تاريخ الجزائر القديم والحديث ، ج2، المطبعة الإسلامية الجزائرية ، قسنطينة ، 1932، ص121.

[2] المصدر نفسه ، ص4.

[3] أحمد حماني: مرجع سابق ، ص19.

الشخصية الجزائرية وأثرها الفعال عبر أطوار التاريخ.

وقد أحدث الكتاب أيام صدوره أصداء إيجابية في صفوف الحركة الاصطلاحية، كما جاء في رسالة بن باديس لمبارك الميلي قوله "إذا كان من أحيا نفسا فكأنما أحيا الناس جميعا فكيف من أحيا أمة "[1]. وكأنما مبارك الميلي قد استجاب لتحسيس بن باديس بأهمية وظروف إحياء مجد الأمة من خلال ماضيها.

وتجاوزت أصداء الكتاب حدود الجزائر في مقولة المؤرخ شكيب أرسلان الشهيرة "ما ظننت أن في الجزائر من يفري هذا الفري"[2].

وإذا كانت هذه الأحكام صادرة عن مفكرين ومؤرخين تقليديين بمقاييس بعض مؤرخينا الحاليين، فهؤلاء أنفسهم لم يعدموا القيمة التاريخية في أهداف الكتاب كتحدي إيديولوجي، وكما يقول المؤرخ محفوظ قداش القليل التعاطف مع الحركة الإصلاحية في قوله: "بأن تخليص التاريخ الجزائري من صبغته الاستعمارية يبدأ إلا مع مبارك الميلي وتوفيق المدني"[3].

وهذه الشهادة في حد ذاتها لها دلالتها في تعضيد المساهمة الفكرية للحركة الإصلاحية الجزائرية في الحركة الوطنية، والحسم على الأقل في الشق الفكري في الموضوع القديم الجديد في ما مدى المساهمة السياسية للحركة الإصلاحية في الحركة الوطنية. والذي نطمح من خلال هذه الرسالة الجامعية ومن خلال هذا الجهد لمبارك الميلي أن نقف على تلك المساهمة ولو بصورة غير مباشرة.

إن البحث العميق في هذه المسألة بموضوعية، يقود إلى نتائج خطيرة كما يقول عبد المالك مرتاض "فتاريخ مبارك الميلي من هذا الوجه، له شأن خطير على قيام الثورة الجزائرية من جهة، وعلى قيام حركة التأليف التاريخي من وجهة أخرى".

و لم يكن كتاب الجزائر في القديم والحديث مجرد رد للتحدي، بل أن الأفكار التي

---

[1] عبد الحميد بن باديس : قال الشيخ الرئيس ، جمع و إعداد محمد الطاهر فضلاء ، دار البعث ، قسنطينة ، 1968، ص202.

[2] شكيب ارسلان: تاريخ الجزائر....ج 2 ط 1932 صفحة الغلاف الداخلي .

[3] Mehfoud Kadache : Histoire de nationalisme algérienne . T1. SNED. Alger .1980. P224

جاءت فيه كانت القاعدة الأساسية التي ارتكز عليها مبارك الميلي في نشر دعوته الدينية والسياسية والاجتماعية[1]. التي كنا قد تتبعنا جهوده في مختلف الميادين، ومنها إدراج تعليم تاريخ الجزائر في البرامج التعليمية للحركة الإصلاحية.

كما يذكر أبو القاسم سعد الله أهمية الكتاب في قوله: "فإن ظهور مبارك الميلي كأول مؤرخ جزائري حديث لم يكن محل استغراب، والميلي قد حاول أن يعيد كتابة تاريخ الجزائر على أساس وطني[2].

وهذا الاعتراف من أبو القاسم سعد الله له دلالته العلمية، وكان يرد على وصفه بشيخ المؤرخين في الجزائر بقوله: "ذلك الوصف الأولى به هو الشيخ مبارك"، كما يذكر الشيخ أحمد حماني.[3].

و لم يتأخر الباحث أحمد صاري في تثمين الكتاب من وجهة التحدي الأيديولوجي أيضا في قوله: "إن المؤرخ الإصلاحي مبارك الميلي إلى جانب زميله أحمد توفيق المدني لم يحتل التاريخ في حد ذاته إلا حيزا ضئيلا في كتابيهما، حيث أن الهم الرئيسي لهما لم يكن البحث عن الحقيقة التاريخية، ولكن استعمال التاريخ كأيديولوجيا للدفاع عن قضيته مثلما فعله المؤرخون الأوروبيون لتبرير وجودهم بالجزائر"[4].

ومما يلاحظ من خلال هذه الآراء في الكتاب من طرف مؤرخينا المحدثين أنها بقدر ما تبرر ذلك التحدي الأيدلوجي، بقدر ما تتقاعس في تأصيل ذلك، في المحاولات الجديدة للتأسيس للمنهج الإسلامي في كتابة التاريخ. ولكي تتضح القيمة العلمية للكتاب بشكل أفضل يجب إعطاءه قيمة التأسيس المنهجي وليس الإيديولوجي فقط.

ومهما كانت قراءة الباحثين لأهمية الكتاب من الناحية التاريخية، فإن مؤلفه أفصح في الصفحة الأولى من كتابه عن مبادئه وأهدافه الإصلاحية والوطنية التي يتداخل فيها القديم

---

(1) عبد الكريم بو الصفصاف: المرجع السابق، ص48.

(2) أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص425.

(3) عبد الكريم بوالصفصاف: المرجع السابق، ص 23.

(4) Ahmed Sari : l'association des Oulama musulman algérienne , et l'administration française (1931-1956) Thèse doctorat université de Provence , centre d'Aix Marseille I et UFR Histoire, juillet 1990. p35.

والجديد، والكتاب في نظر مؤلفه هو "بلاغ للشبيبة عن وطنهم"[1]، ولذلك فلا غرابة في استخدامه المضمون لقضايا وطنه.

أما بعض الجوانب الأخرى للكتاب من الناحية العلمية، فسنتعرف عليها من إجابتنا عن التساؤل الثاني الذي طرحناه في بداية هذا المبحث، عن منهج مبارك الميلي في منظور المنهج النقدي للتاريخ.

مصادره ومنهجه في البحث والتأليف:

نبحث في هذا العنصر منهج الميلي في كتابه، بداية من الكتب التي اعتمد عليها كمصادر ومراجع. ثم منهجيته في استخدامها وما مدى استفادته من تلك المصادر؟.

لقد جاء في ثبت المصادر والمراجع (المآخذ) كما يسميها مبارك الميلي. أنه اقتصر على ذكر الكتب التي استمد منها المادة العلمية، دون ذكره الكتب الكثيرة التي طالعها واستفاد منها في كتابه[2].

فقد تعامل مبارك الميلي مع أكثر من سبعين مؤلفا، شكلت كتب اللغة الفرنسية حوالي عشرين كتابا. ومما توحي به قراءة قائمة الكتب بين مصدر ومرجع اعتماده على المؤلفات المختصة في منطقة إفريقيا وتونس والمغرب كما كانت تسمى في عصور سابقة لكتابه. كما هو الحال مع كتاب بن خلدون الشهير بتاريخ العلامة عبد الرحمان بن خلدون[3].

واعتمد أكثر في كتابه على مؤلفات اختصت بتاريخ الجزائر عبر العصور مثل: تاريخ الجزائر العام لعثمان الكعاك باللغة العربية، وكتاب بنفس العنوان باللغة الفرنسية للمؤرخ TERRAG، كما توحي قراءة ثبت المآخذ أيضا بالتنوع الكبير، فقد شملت مختلف تصانيف التاريخ لدى المؤرخين المسلمين أو الأجانب، بدءا بكتب الأخبار (المؤنس في أخبار إفريقية وتونس)، كتب الرحلات (الرحلة العبدرية) كتب السياسة (الأحكام السلطانية)، كتب

---

[1] مبارك الميلي : المصدر السابق، ج1، ص 2.

[2] نفسه، ص281.

[3] كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر.

الفتوحات، كتب الأعلام، كتب الأنساب. وكذلك كتب تاريخ الدول مثل: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، وتاريخ المدن وهي بالفرنسية (تلمسان، قسنطينة) تاريخ الجزائر في القديم لـ"أقزال"، كتاب أصول البربر لـ "ريني"، وكتب في الديانة المسيحية في إفريقيا.

ومما يؤكد تنوع مصادر ومراجع الكتب التي اعتمد عليها مبارك الميلي، أنها شملت بعض الكتب في معارف ذات صلة بالتاريخ، خاصة كتب الأدب، الفقه، الطب، الآثار والتصوف.

كما استخدم وسائل للإيضاح بلغت في الجزء الثاني اثنان وخمسون رسما، بين أشكال ورسوم وصور فوتوغرافية لمساجد ومعالم أثرية. وخارطة ملونة تبين مراكز القبائل العربية في القرن الثاني للهجرة (الخريطة مثبتة في ملحق هذا البحث).

بعد هذا العرض المختصر الذي يبين مدى الجهد الذي بذله مبارك الميلي، نستعرض منهجه في تعامله مع المادة التاريخية، وموقفه من الكتابات التاريخية. وهم في هذه الحالة المؤرخين الغربيين.

ففي مقدمة كتابه ينتقد الميلي كثيرا "المؤرخين من المتقدمين الذين يكتبون كل ما يسمعون وينقلون كل ما يجدون من غير تصحيح للرواية، ولا تمحيص بالفكر والدراية"[1]. ويبين سلبية النتائج التي ترتبت عن كتابة التاريخ بتلك الطريقة في قوله" ومن اقتصروا على سرد الحوادث من دون تعليل ولا استنتاج وبذلك أهملوا روح التاريخ وسيره"[2]. ويحدد منهجه منذ البداية في قوله: "وعندي أن أحسن طريقة يسلكها المؤرخ أن يضع بين يدي القارئ الحادثة التاريخية كما هي، ثم يرشده إلى كيفية الاستنتاج منها"[3].

والملاحظ أن فكرة تقديم الحادثة التاريخية كما هي، كانت في عهده من الأفكار السائدة، وإن كانت قد بدأت تتعرض لهجمات قوية من كبار المؤرخين في الغرب بتأثير

---

[1] مبارك الميلي: المصدر السابق، ج1، ص13.

[2] نفسه ، ص نفسها.

[3] نفسه ، ص14.

التقدم الفكري والمنهجي في العلوم الطبيعية والاجتماعية، وبتأثير تبدل النظرة المعرفية التي أنتجها هذا التقدم. فكانت الثورة العلمية في التاريخ التي جسدتها مدرسة الحوليات في فرنسا ومدرسة المادية التاريخية، والمدرسة الإنجلوساكسونية في شمال أوروبا وأمريكا الشمالية التي اختصت في التاريخ المحلي، في منهج اعتمد تقطيع التاريخ في أمكنة معينة وفي فترة زمنية محددة[1].

هذه النظرة الجديدة بينت أن كتابة التاريخ هي قراءة للماضي، مرتبطة بالمناخ الثقافي للمؤلف وعصره واهتماماته الرئيسية. وأن الحادثة التاريخية هي تركيب يضعه المؤلف من عناصر شتى اختارها، مما تبقى من آثار الماضي، وهذا لا يعني – حسب الباحث لمنور مروش– انعدام الوقائع والمعطيات الموضوعية التي تركت آثارها فيما حفظه لنا التاريخ، ولكنها مجرد مادة أولية لابد من صياغتها باستعمال المفاهيم والمناهج العلمية المتطورة التي تسمح بتحويلها إلى موضوع معرفي[2].

ولكن هل كان مبارك الميلي مطّلعا على هذه الثورة المعرفية في مجال النظريات التاريخية في العالم المتطور؟.

إن مبارك الميلي الذي يعترف بتواضع قائلا: "إنني لست من فرسان هذا الميدان فالذهن كليل والمادة العربية قليلة جدا والفرنسية أجهلها وقد فات أوان تلقيها"[3]، فهذا النص يبين أنه لم يكن بإمكانه الإطلاع على هذا التجديد في مناهج التاريخ، لكن جهده الصبور ونقله من المصادر العربية، ومما كان يترجم له من الكتب الفرنسية، استطاع أن يتوصل إلى ما توصل إليه في مؤلفه.

واستفادته من المدارس الفرنسية في كتابه التاريخ واضحة في تبويب الكتاب وتقسيمه، وفي تنسيقه للمادة وحتى الأسلوب، كالتمهيد القصير لتقديم الموضوعات الرئيسية والخلاصات للمواضع المتشعبة كما هو الحال في تناوله للدولة الرستمية مثلا[4]. إضافة إلى

---

[1] ظريف الخالدي : بحث في مفهوم التاريخ ومنهجه، دار الطليعة، بيروت، ص61، وما بعدها.

[2] لمنور مروش : القديم والجديد في تاريخ الجزائر في القديم والحديث، مجلة نقد، عدد 11، 1998، ص33.

[3] نفسه، ص10

[4] مبارك الميلي :المصدر السابق، ص نفسها

وسائل الإيضاح التي أشرنا إليها في خصائص مصادر ومراجع الكتاب. هذا عن استفادته الشكلية أو ما يسمى بتقنيات البحث والكتابة التاريخية اليوم.

أما استفادته من روح المناهج الغربية الحديثة -إن صح هذا التعبير - فتلك هي خصوصيات منهج مبارك الميلي في تعامله مع المادة التاريخية .

فإنه لم يتجاوز في كل الحالات مرجعيته الإسلامية في قراءته للحوادث التاريخية، التي تعتمد في مفهومه على النقل والعقل في قوله: "إن عمدة التاريخ النقل والأثر وحليته الفكر والنظر، بهذا تتجلى الحقائق وتتضح للباحث الطرائق"[1]، وهذا لا يعني أن مبارك الميلي لم يتفاعل بالشكل المطلوب مع التطورات المنهجية، ففي هذا النص نلمس ما مدى ارتكازه وحرصه على الاستفادة من بعض جوانب المناهج في مراسلته لتوفيق المدني مبديا حاجته في ذلك قوله: "إنني يا أخي شديد الإيمان بهذا العمل، ولكن شديد العراقيل كثيرها ...وأعلم كثرة الكتب الفرنسية وحسن نظامها، ولا أحد يعرّب لي منها، وحاجتي إلى الكتب الفرنسية من حيث المادة والنظام، ومن حيث الاطلاع على مقاصدهم نحونا للتعريض بردهم في كتابنا"[2].

وبشأن مساهمة توفيق المدني، فقد أثارت تناقضات مضامين شهاداته بين ما كتبه في البصائر في قوله: "اجتمعنا من جديد بعد ست سنوات بمدينة الجزائر العاصمة بمناسبة تأسيس جمعية العلماء المسلمين فتعهدت بأن اجمع له أهم المصادر الفرنسية"[3]، ومما نشره في كتابه حياة كفاح من نماذج لمراسلة الميلي طالبا المساعدة منه[4].

من جهته مبارك الميلي يذكر في نهاية الجزء الأول أن من الرسومات الواردة في الكتاب من نقود ملوك البربر "أرسل إلينا بطوابعها السيد أحمد توفيق المدني"[5]. مع العلم أن الجزء الأول تم تقديمه للطباعة في ديسمبر 1927م، كما تم ذكره في بداية هذا المبحث.

---

(1) نفسه، ص نفسها.

(2) أحمد توفيق المدني : حياة كفاح ، ج2، (1925-1954) ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، 1983م، ص211.

(3) أحمد توفيق المدني : مبارك الميلي ، مؤرخ الجزائر ، البصائر عدد 26 ، 08 مارس 1948، ص2.

(4) نفسه، ص نفسها.

(5) مبارك الميلي: المصدر السابق، ج1، ص281.

والإشكال العلمي ليس في إثبات مساهمة توفيق المدني، فذلك واضح في مقدمة الجزء الثاني الصادر عام 1932م عن المطبعة الإسلامية الجزائرية، في اعتراف لمبارك الميلي بنفسه، إنما التساؤل عن طبيعة تلك المساهمة وحجمها. والذي أراه من تحليلي واستنتاجي لما قيل بشأن هذا: كانت في ترجمة فصول من كتب بالفرنسية في قول توفيق المدني : "وأرسله تلك المادة الخام تباعا طيلة أعوام فيدخلها في معمل فكره يجعلها تتفاعل مع ما لديه من المواد العربية الغزيرة فيخرج من ذلك تاريخا، معللا صحيحا"[1].

ومن شهادة مبارك الميلي في رسالته، يتضح أن المساعدة كانت أيضا في بعض الجوانب كتصحيح ما ترجم وضبط ما يتطلب التدقيق في التواريخ بقوله: "وأخص بالذكر صديقي توفيق المدني وعمرو دهينه ...فقد عربا لي فصولا من الفرنسية وبذلا من إعانة كل ما في استطاعتهم الأدبية"[2]. ومن هذه الجملة الأخيرة، نستنتج أن المساعدة طالت الترجمة إلى مسائل أخرى، لكنها لا ترقى إلى درجة تحرير الصياغة النهائية للفصول. وفي هذه الشهادة يبقى ما ذكره الأستاذ عبد المالك مرتاض من أن مبارك الميلي لم يذكر توفيق المدني لما ذكر من كانوا معه، وواضح من ذلك أنه أعتمد في دراسته لكتاب الميلي على النسخة المطبوعة بعد الاستقلال. أما الاعتراف بالجميل من طرف الميلي ففي الصفحة الثانية في طبعة 1932م. كما أشرت إلى ذلك في الفقرة السابقة.

وفي المراسلة السابقة الذكر إلى توفيق المدن يشير الميلي أن الكثير من العراقيل المنهجية إنما يكون تذليلها مما هو موجود في الكتب الفرنسية، لكنه لا يغفل أهمية مضمون قوله ،" والمهم في النص هو الإطلاع على مقاصدهم نحو تاريخ الجزائر"[3]، ويقف موقفا صريحا من أهداف مناهجهم قائلا: "فعن طريق العقل تعصبوا لجنسهم في تفسير التاريخ وظلمهم لأن غاياتهم تبرر وسائلهم، وليس من العار عندهم تضليل الأفكار"[4].

وهذه الحقيقة في المناهج الغربية من حيث أبعادها الإيديولوجية لا يمكن الأخذ بها،

---

[1] أحمد توفيق المدني ، المرجع السابق، ص 211.

[2] مبارك الميلي : المصدر السابق، ج2، صفحة الغلاف الداخلي.

[3] أحمد توفيق المدني : المرجع السابق، ص نفسها.

[4] مبارك الميلي : المصدر السابق، ج1، ص12.

لأنها لا تقدم تفسيرا معقولا للتاريخ الإسلامي وإن نجحت في تفسير التاريخ الغربي فستحقق في تفسير التاريخ الإسلامي كما يقول عماد الدين خليل[1].

وموقف الميلي هنا لا يقف عند وقائع التاريخ الإسلامي بل الحادثة التاريخية ككل، فقد ساير المعطيات الجديدة كمؤرخ في أخذه بمذهب النشوء والارتقاء كنظرية علمية لتفسير تطور الحياة بل كفكرة سائدة في عهده، ورفض ما يتعارض مع مرجعيته الدينية ويناقش المسألة نقاشا شاملا لرؤى العقل والنقل في قوله: "والحق الذي تشهد له الضرورة ويؤيده القرآن الكريم أن – المذهب نفسه– بصرف النظر عن بعض الجزيئات معقول ومقبول"[2].

ويقدر الضرورة التي تؤكد مبدأ النشوء والارتقاء في استحضاره لظاهرة التطور في النبات والحيوان والعمران ويرى الميلي أن هذا المذهب على هذا المستوى لا يتعارض مع القرآن ويسوق الآيات الداعية لذلك في قوله تعالى بشأن النبات: "والذي أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى"[3]. وبشأن تطور الحيوان يسوق قوله تعالى: "ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلنا نطفة في قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقة، فخلقنا العلقة مضغة، فخلقنا المضغة عضاما، فكسونا العظام لحما، ثم أنشأناه خلقا آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين"[4]. إلى أن يقول القول الفصل في نظرية التطور "وزبدة القول أن الضرورة والدين متفقتان على إثبات النشوء والارتقاء في النوع الواحد، أما الارتقاء من نوع آخر فأقرب تحقيقه الجمع بين النقيضين"[5].

وهذا الموقف أثبتته الثورات المتتالية في ما يسمى علم الجينات، فرغم النتائج المذهلة في طفرة الاستنساخ، فإنها ما تزال محصورة في النوع، فالنعجة دولي مستنسخة من النعاج وليست من البقر أو حيوان آخر[6].

---

(1) عماد الدين خليل في التدريس والمنهج التاريخي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط1، 1989، ص192.

(2) مبارك الميلي: المصدر نفسه، ج1، ص30.

(3) سورة الأعلى، الآية 5.

(4) سورة المؤمنون، الآية .

(5) مبارك الميلي: المصدر السابق، ج1، ص 40.

(6) هذه نتائج بحوث ما تزال محل اجتهادات علمية ( ).

والذي يهمنا في مسايرة مبارك الميلي للأفكار النظرية التطورية، هو شقها الفكري-التاريخي، إذ أنه كثيرا ما وظّف مصطلحات مثل "الرقي"، " التطور"، "الأمم المتقدمة"، "مبلغ حضارة"، "رفع مستوى الأمم"...إلخ، وهي مصطلحات لم تدخل القواميس العربية إلا في القرن التاسع عشر، وبتأثير مباشر من الثقافة الأوربية[1].

وأن كلمات مثل "الوطن"، "الشعب"، "الأمة " كانت في عهد مبارك الميلي لم تكسب التبلور والنسبية التي تعرفها اليوم، واستعمالها بسهولة في كتاب "تاريخ الجزائر في القديم والحديث" مثال آخر على تداخل القديم والجديد.

وقد وظف مبارك الميلي كلمة "الوطن" بمعناها الحديث، بحس تاريخي دقيق مثل "إن الجزائر اسم لمدينة تعرف قبل مجيء العرب باسم "اكسوم" و لم تكن تطلق على وطن مترامي الأطراف إلا منذ العصر العثماني"[2]، والملاحظ كما يقول مروش أن الميلي يطلق كلمة "أمة" على الجزائر مثل ما يفعله بن باديس وتوفيق المدني، مثلا يستعمل كلمة أمة بمعنى "إثني" واسع أو ضيق، ومنحصر في الاشتراك إلى أصل واحد على طريقة الأنساب العربية مثل: "الفينيقيون أمة سامية من ولد كنعان بن عمليق[3]، أو الرومانيون أمة من اللاطين (اللاتين)"، كما نجد كذلك "أمة العرب"، "أمة البربر". ونجد لديه أيضا التمييز بين "الأمة والشعب". كقوله: "القوط أمة شديدة البأس" و "الوندال شعب من القوط"[4].

هذه الشواهد كلها تؤكد استيعاب مبارك الميلي للمناهج الحديثة من قراءة وكتابة التاريخ، والتي لم تعيقه من ذلك لا مرجعيته الدينية السلفية ولا جهله للغة الفرنسية، في حدود اقتضاه هذا المؤلف الذي لا يخلو من بعض النقائص من بينها :

- عدم ذكره الكثير من المصادر والمراجع وتثبيت صفحاتها، إلا في حالات قليلة، والأمثلة كثيرة مثل ذكره لحروب صقلية يقول: "وقعت هذه الحروب بين اليونان وقرطاجة ودامت سنين كثيرة تتخللها الهدنات. ويسرد وقائع تلك الهدنات ويذكر تواريخها، والتي تجاوزت

---

(1) هذه المصطلحات موجودة بكثرة في الجزء الأول من كتابه .

(2) مبارك الميلي : المصدر السابق، ج1، ص22.

(3) نفسه، ص92.

(4) نفسه، ص246.

أربع هدنات و لم يذكر المؤلف، ولا الكتاب[1].

– عدم وقوفه في تحليل بعض الحوادث التاريخية الشهيرة كحادثة حرق طارق بن زياد لسفن جيشه، وهي الحادثة التي مر عليها وكأنها عادية جدا[2].

– بعض الاسقاطات الزمانية مثل مقارنته بين الدولتين القرطاجنية والرومانية، وتأثيرهما في البربر حضاريا. إذ أراد أن يسقط حالة الرومان على الحالة الفرنسية[3]، وحقائق تاريخية معاصرة له، كحالة التصوف المقرون في نظره دوما بالجهل، وإلى تفريط علماء الدين في ذات العلم، وأن التصوف دليل انحطاط الأمة. وهي أحكام لها ما يبررها في كثير من الأحيان، لكن حالة الطريقة اليوسفية التي ذكرها في كتابه لها شواهد أخرى في نظر بعض الباحثين[4] الذين يرون عكس ذلك، من أن هناك من الطرق من كانت تقوم بدور إيجابي لصالح المجتمع في التربية والتعليم ومواجهة المستعمر في بداية الاحتلال (حالة الأمير عبد القادر)، وبقيت تؤدي بعض الأدوار إلى أن دجّنها المستعمر، وحوّلها إلى أداة لخدمة أهدافه كما ذكرنا في مبحث الحياة الثقافية في الفصل الأول.

وهذه الهنّات المنهجية لا تنقص من قيمة الكتاب الكثير بالنظر للهدف الذي رسمه وعمل على تحقيقه وأقره في إطاره العام باحثون ومؤرخون من باب رد المفسدة الاستعمارية. ولا تقلل من النواحي المنهجية الأخرى ككثرة التحليل والتعليل وعدم السكوت عن الحوادث التاريخية، ولو بالتذكر فقط.

ومما يحسب للمؤلف صلابة الموقف الوطني الديني في مواجهة الادعاءات الاستعمارية والجمود الطرقي والكتابة في قوة موقف.

ونحن لا نزعم أننا استوعبنا في هذه القراءة التحليلية مؤلف مبارك الميلي، بحكم وقوفنا على عتبة البحث العلمي وبحكم التوجه الجديد الاختصار في الرسائل الجامعية. والأهم في نظرنا هو أننا أبرزنا خصوصيات مبارك الميلي في دراسته للتاريخ بفكره

---

[1] نفسه، ص نفسها.

[2] نفسه، ج2، ص32.

[3] نفسه، ج1، ص ص 214-215.

[4] عمار الطالبي مرتاض : مرجع سابق ، ص200.

الاصلاحي الشامل في رؤيته للواقع الجزائري انطلاقا من نظرة سلفية قادته منهجية البحث العلمي للتعايش الفكري مع نظرية النشوء والارتقاء خدمة لوطنه وللعربية وقرائه –في زمنه الأقل– وهذه هي إحدى الزوايا الجديدة في هذا المبحث الجديرة بالتوضيح ما دام الصراع محتدما في الفكر الجزائري المعاصر بين الطروحات القديمة-الجديدة، وتداعياته القائمة في الواقع الجزائري.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ثانيا: رسالة الشرك ومظاهره :

بدأ الشيخ مبارك الميلي في سنة 1936م ينشر مقالاته حول موضوع "الشرك ومظاهره"، وتعتبر هذه السلسلة من المقالات حصيلة مشاهداته واحتكاكه بالطريقيين بالأغواط وميلة، وحصلية مطالعاته لأمهات الكتب المدافعة عن السنة والمحاربة للبدعة.

وقد نشرت أولى هذه المقالات في العدد الخامس من "البصائر" الصادر في يوم الواحد والثلاثين جانفي 1936م إلى آخر مقالة، وهي المقالة السابعة عشر في العدد الخامس والأربعين الصادر في السابع والعشرين نوفمبر 1936م، التي ختمت بتعقيب قصير لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين (*) يوضح رغبة الجمعية في أن تنشر هذه المقالات في شكل رسالة مستقلة، تلبية لطلب قراء "البصائر". وأعلنت هته الأخيرة عن رغبة المؤلف في جمع هذه المقالات، وإضافة مقالات أخرى لم تنشر. والعودة إليها بالتهذيب والتبويب، ثم يقدم ذلك إلى الطبع. فلبى الشيخ مبارك الميلي طلب الراغبين، ونجده بهذا الصدد يقول في "رسالة الشرك ومظاهره" : "فاستصوبنا اقتراح الراغبين وأمسكنا عن قراء البصائر" ما بقي من حلقات السلسلة، وأعلنا استعدادنا لتنفيذ مقترحهم. ثم رجعنا إلى ما كتب بالتهذيب والتبويب وتنقيح عبارات للتقريب، وتغيير في الترتيب، وأضفنا إليها بعض الفصول، فجاء بشكل غير ما ظهرت به من قبل"[1].

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا المقام، أن الشيخ مبارك الميلي قد توقف عن نشر مقالاته بسبب المرض عند المقالة الثالثة عشر، التي صدرت في العدد الخامس والعشرين بتاريخ السادس والعشرين من شهر جوان 1936م، ولم تعد إلى الصدور إلا في العدد الثاني والأربعين بتاريخ السادس نوفمبر 1936م. وقد ابتهج قراء جريدة البصائر بعودة الشيخ إلى الكتابة، فعبّر عن ذلك القارئ علي مرحوم بقوله: "فكم كنا مسرورين بعودة مقال "الشرك ومظاهره" إلى الظهور. ذلك المقال الذي أتحفنا به العلامة الجليل الشيخ مبارك الميلي منذ

(*) هذا التاريخ ينفي نفيا قاطعا الخلط الذي وقع فيه توفيق المدني بأنه كان قد التقى مبارك الميلي وعرض عليه اسم الكتاب في عام 1925م (أنظر حياة كفاح، ج2، ص 22.)

[1] مبارك الميلي:رسالة الشرك ومظاهره ، ص ص :14،15.

أشرق نور جريدة البصائر في الآفاق. وقد دلّنا هذا الظهور على زوال مرض الأستاذ وشفائه من ذلك الألم الذي كاد يقضي عليه وعلى النهضة العلمية الحديثة بميلة وضواحيها"[1]، وكتب معنصر عبود مقالا عنوانه: "عودة الأستاذ العزيز الشيخ مبارك الميلي من الجزائر (التي كان يعالج بها). وابتهاج سكان ميلة بشفائه، ورجوعه سالما إليهم". وقد خرجت ميلة عن بكرة أبيها لاستقباله والتعاطف معه، وللتعبير عن ابتهاجها بشفائه، وقد عبّر عن ذلك الحاج محمد بن دفوس الذي تلا خطبة باسم الأهالي في المدينة[2].

وقد أستحق مبارك الميلي بهذه السلسة الرائعة من المقالات لقب بن تيمية عصره، محارب الشرك والبدع[3]، وتحولت هذه السلسة من المقالات إلى رسالة تدعى "رسالة الشرك ومظاهره". وقد تحرى فيها صاحبها ما رأى حاجة الشعب الجزائري إليه أقوى وأسلوب العصر إليه أدعى، فكل أمة وحاجتها، وكل عصر وغرضه"[4]. ويرى محمود بوزوزو[*] الذي كان معاصرا لتلك المرحلة، أن موضوع الشرك ومظاهره الذي ألف فيه الميلي هو موضوع ديني بحت. ومعنى هذا أن موضوعه هو علاقة الإنسان بربه، وهذا هو الذي يسبق إلى الذهن عند ذكر الشرك "ولكن الناظر فيه يرى أنه يتعدى ما بين العبد وربه، إلى ما بينه وبين نفسه وما بينه وبين أمته وما بين أمته وبين الأمم. ومن آثار الشرك في هذه العلاقات كلها أصبح من الموضوعات ذات المكانة، في الاجتماع والاقتصاد والأخلاق والسياسة، ولهذا يعد من الحقائق التي لا يمكن إنكارها ولا يحسن التهاون بها والإعراض عنها"[5].

وتبرز هنا نظرة ذلك الجيل الفريد إلى المفهوم الواسع للعقيدة والعبادة، التي تتجاوز النظرة الضيقة لعلاقة الإنسان بخالقه إلى علاقة أفقية أوسع وأكثر تشعبا وامتدادا، وأكثر ثراء وعطاء في ميادين الحياة المتنوعة، في الاقتصاد والاجتماع والسياسة. فالشرك في وعي هذا

---

(1) البصائر عدد 44، مقالة لابي يعلى الزواوي بعنوان "معنى الغفارة"، رمضان 1355هـ/ نوفمبر 1936، ص7.

(2) البصائر عدد 45، عودة الأستاذ العزيز من الجزائر وابتهاج سكان ميلة بشفائه 12 رمضان 1355هـ/27 نوفمبر 1936م،ص ص5 ،8

(3) البصائر عدد 44 مقالة لابي يعلى الزواوي بعنوان "معنى الغفارة " رمضان 1355هـ/نوفمبر، ص7.

(4) مبارك الميلي : رسالة الشرك ومظاهره، ص 15.

(*)محمد بوزوزو: هو رئيس تحرير جريدة "المنار" التي كانت تصدر في مطلع الخمسينيات من القرن العشرين .

(5) البصائر ، عدد27، مارس 1948م، نظرة في رسالة الشرك ومظاهره، ص3.

وعطاء في ميادين الحياة المتنوعة، في الاقتصاد والاجتماع والسياسة. فالشرك في وعي هذا الجيل هو تزييف للوعي لدى الجماهير وابتزاز لأموالهم وهدر لطاقاتهم المادية والمعنوية. وهو أيضا اعتداء على المجتمع بإحداث خلل في القيم داخله، كما أنه نوع من ممارسة السياسة، لأنه يفضي في النهاية إلى فرض سلطة أشخاص معينين أو فئات ذات مصالح على فئات أخرى أكثر هشاشة وأكثر قابلية للخضوع والانقياد.

ويصف محمود بوزوزو مجهود مبارك الميلي في "رسالة الشرك ومظاهره" أنه حلقة من سلسلة المساعي في تحرير العقل البشري، وقد كان المؤلف (رحمه الله) شاعرا بأهمية الموضوع، لأنه جاء في ظروف تستدعي تطهير المعتقد مما علق به من الضلالات التي أوقعت كثيرا من الأفراد والجماعات في الضلالة، وأوردتهم موارد الهلاك في الدنيا والآخرة"[1].

ويمكننا أن نستخلص من هذا الفهم المبكر لأهمية رسالة الشرك ومظاهره الفهم العميق والقدرة على التشخيص لأمراض المجتمع من طرف مبارك الميلي في تقديره لخطورة تلك المفاهيم والممارسات في المجتمع، إذ أنها أدت إلى :

أولا: الإفلاس الذي أحدثته الاعتقادات الخاطئة في أوساط أغلبية الشعب، الذين ظللتهم الطرقية واستغلتهم أبشع استغلال، ونتج عن ذلك ممارسات اجتماعية أصبحت تشكل خطرا على الحياة الاقتصادية للعامة الناس في تقديم خدماتهم المتنوعة لزعماء الطرق والزوايا بل طالت بعض الاعتقادات إلى الممارسات اللاأخلاقية، واعتقادات في الاستسلام لطلب الرزق وانتظاره من السماء فقط. واخطر الاعتقادات والممارسات الرضى بحالة الاستعمار بأنه قضاء وقدر، ورحيله سيكون بقضاء وقدر. حين نقف على هذا الواقع الاجتماعي المتخلف ندرك قيمة هذه الرسالة وقيمة إقرارها من طرف الجمعية التي اعتبرتها برنامج عمل في مواجهة البدع والمنكرات الملتصقة بالدين.

والأبعاد السياسية لمضمون الرسالة ونتائجها يبرزها الباحث بوزوزو في قوله: "تعتبر من الإنجازات الفكرية التي أدت إلى تبلور واضح للفكر الوطني الاستقلالي لدى الجيل الإصلاحي في هذه المرحلة (1948)، فقد صار هذا الأخير يعمل لتجسير " العلاقة نظريا

---

1. المرجع السابق، نفس الصفحة.

على الأقل بين فكر الإصلاحيين وطروحات يسمون أنفسهم بالوطنيين الاستقلاليين، والبحث عن نقاط للتواصل بينهما.

ومن جهة أخرى يمكن القول أن طرح تلك الأفكار النقدية للمجتمع من طرف مفكر له مرجعيته الدينية قد أعطى صورة جديدة للفكر الإصلاحي الإسلامي في نظر المثقفين باللغة الأجنبية. وفي نفس الوقت دور الدين في يقظة المجتمع، الأمر الذي جعل الاستعمار يتفطن لأهمية المذهبية الدينية لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي أساس قوتها العمل الديني.

وقد أشرنا من قبل إلى المرجعية الفكرية الإصلاحية للميلي الذي لم يكتب "فيما كتب إلا ما تخيله فكره، و لم ينسج فيما جمع على منوال غيره"، الذي تأثر بالحركة السلفية لابن تيمية صاحب رسالة " التوسل والوسيلة"، وكذا بمحمد بن عبد الوهاب صاحب"فتح المجيد بشرح كتاب التوحيد" كما تأثر بالحركة الإصلاحية الحديثة لمحمد عبده صاحب "رسالة التوحيد" ولكنه -رغم هذا التأثر- بقي متميزا في تجديده للحركة السلفية في ضوء الواقع الجزائري.

وهذا لا يعني أن أهمية الرسالة كانت جزائرية فقط، فأصداؤها قد تعدت الجزائر إلى بلدان أخرى، فقد تقرر تدريسها في ثانوية "لوكارنو" بتونس، وتم نشرها وتوزيعها في كل من السعودية ومصر والأردن، بل تم إدخالها إلى السودان[1].

فقد كانت رسالة الشرك ومظاهره تدرس بالمعاهد العليا بالجزائر، قبل الاستقلال لأهميتها العلمية، مهما كانت أبعادها السياسية.

والرسالة بعد تهذيبها وإعادة ترتيب أبوابها تم عرضها على مجلس إدارة الجمعية الذي وافق على مضمونها ودعا إلى نشرها. وقال فيها وفي مؤلفها الشاعر محمد العيد آل خليفة الأبيات التالية:

هذا الأخ الميلي فبك مثوب ... لله بالذكرى فهل من واع؟

يجلو وجوه الشرك وهي خفية ... للناس شأن العالم النقاع

1- انظر: رسالة أحد جزائريين مقيمين بمدينة بن زرتيس الى رئيس تحرير جريدة البلاغ، عدد جوان 1930

اليوم من أفكـــار نجتني مـــا نجتني من علم ومن إمتـــاع
فأوسي من التوحيد خلدا طيبا ونشقي من غرفة الضـــواع

وقد تم التعريف بالكتاب من الناحية العلمية في مباحث الفصل الثالث، الذي شـــكل المصدر الأساسي لمفهوم الإصلاح وأسسه وأبعاده، من خلال مضمونه الديـــني بمختلـــف جوانبه العقدية والفلسفية.

من جهة أخرى إن الدراسة النقدية التحليلية لمضمون الكتاب من الناحية النقديـــة، سواء لمنهجه أو مصادره، فهي تعد من الأبحاث في مجال الدعوة، ومن تخصص الدارســين في أصول الدين وعلم الكلام. وبحثنا هذا بتعلق بظروف تأليف هذا الكتـــاب وتقييمـــه مـــن الناحية الفكرية والسياسية وعلاقة ذلك بالأوضاع الاجتماعية السائدة التي كانت مادة لهـــذا الكتاب كما صنف الكتاب بأنه الرد العلمي على الفكر الطرقي. وقد شكل الكتاب في حد ذاته موقفا فكريا واضحا من مبارك الميلي في القضايا الإصلاحية.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثاني : آثاره المنشورة في الصحف

لقد تمت متابعة جهود مبارك الميلي في الصحافة كوسيلة حيوية في المشروع الإصلاحي التي أكدت مساره الطويل في التحرير والتسيير. وقد شكلت كتاباته في الصحف المصدر الأول والأساسي في مادة هذا البحث، إذ تم التعرف على جوانب من جهوده الإصلاحية في بعض قضايا الإصلاح من تلك الكتابات الصحفية .

وأن طبيعة البحث في التاريخ تقتضي البحث في هذه الكتابات المنشورة في الصحف كأحد أهم آثاره الفكرية، وهي من أهداف هذا البحث، لأنها جهد إصلاحي يبرز شخصية مبارك الميلي الصحفية، ولذلك فقد تم الجرد الشامل لكل الصحف الإصلاحية وجمعت جل مقالاته التي رتبت حسب التسلسل الزمني لصدور الجرائد المنشورة بها، بدءا من جريدة المنتقد التي شرع الكتابة الصحفية فيها وصولا إلى جريدة البصائر التي ختم بها مشواره في الصحافة كمدير ورئيس تحرير.

وهذه الآثار لم تكن لولا رسالة مبارك في الحياة عن طريق الكتابة التي عبر عنها في قوله: "إذا كانت الدواة هي دائي، فإن دوائي إنما عشت فيه من أجلها، فلا خير في حياة بلا دواة، فبهما تصقل الأذهان وتحفظ الأوطان وتحترم الأديان"[1]، وقد كتب هذه العبارة وهو في مدينة فيشي الفرنسية للعلاج من داء السكري الذي أرهقه تحت وجع وضغط الكتابة. وقد تم صب مقالاته المنشورة في الصحف الإصلاحية على شكل جداول حسب الجرائد التي كتب فيها مبارك الميلي. وهي الطريقة التي أدت إلى ذكر جل مقالاته لأن الاقتصار على ذكرها في هوامش البحث لا يفي بالغرض المطلوب، في إبراز مدى مساهمته في الصحافة الإصلاحية.

كما أن الجداول بهذه المعلومات تتضمن أفكارا أساسية عن أهمية تلك المقالات من حيث كونها مادة للبحث في تاريخ الحركة الإصلاحية، لأنها غطت فترة زمنية أيضا أساسية في تاريخها من بدايتها التأسيسية في العشرينيات ثم تطورها عبر عشرية الثلاثينيات ومن خلالها تم التعرف على مختلف مواقف الشيخ مبارك الميلي.

---

[1] مبارك الميلي : فيشي : البصائر عدد 119 ربيع الثاني 1357 جوان 1938 ص2.

أما من حيث الموضوعات التي تضمنتها المقالات فمن الصعب تصنيفها، لأن ذلك يفرضه علينا منهج البحث هو سياق كتابتها وقد ذكرنا ذلك في فصول من هذا البحث ويمكن التذكير بخصوصية أساسية في تلك المقالات وهو أن مبارك الميلي كان كاتبا صحفيا له حضوره المميز بين زملائه في الصحافة الإصلاحية كما اقره ذلك في قوله " لست كاتبا مكثارا ولا مهذارا، ولا ولاجا في كل موضوع لهذا اخترت لقلمي موضوع وهذا الاختيار كان عن نقد العلماء السلفيين"[1].

وهذا الاختيار كان عن تفكير وتشخيص للواقع الديني الذي رأى الميلي أولوية الإصلاح فيه، وذلك، منهجه كما عرفنا في الفصل السابق.

وكما برر مبارك الميلي أولوية إصلاح العقائد عن طريق إصلاح التعليم واللغة العربية، برر أيضا إصلاح العقائد عن طريق أولوية الكتابة في الصحافة، كما جاء في رده على أحد الكُتّاب الذي كتب في الشهاب يدعوا كتّاب الإصلاح إلى إعطاء الأولوية إلى الكتابات التي تحفز الشباب على التعلم في مسائل الصناعة والعمران والتجارة، لأن الكتابة في إصلاح الدين قد أميتت بحثا مع بن تيميه وأضداده ولن يكون أي جديد في زمن، كما يقول صاحب كتاب جليل[2]، ويرد عليه مبارك الميلي بمقال تحت عنوان "إصلاح العقائد أول مهم" قائلا : "أنا معك في الكتابة في المواضيع التي ذكرت لكني لست معك في تقدير الأولوية، إذ كيف يفتح بصره على علوم العمران والأكوان من يعتقد أن هذه العلوم –التي خدمها أسلافنا وترقوا بها هي علوم النصارى ومن يتعاطاها كافرا؟ !"[3]، وهذا الرأي لا يعكس تعصب الميلي فقد دعا صاحب –كتاب جليل- الكتابة في تلك المواضيع على أن لا يدعوا غيره ممن يعتقدون رأي مبارك الميلي في أولوية ذلك، وعلى أية حال فإن هذه الأولوية لم يكن مبارك الميلي حبيسا لها، فقد توسعت كتاباته حتى في مواضيع أخرى في

---

(1) مبارك الميلي : حي على الصلاح ، حي على الخرب و الكفاح ، البرق ، عدد 09 ، 30 شوال 1345هـ ، الموافق لـ 02 ماي 1927 ، ص 1

(2) كتاب جليل لرجل عظيم (بدون إمضاء) الشهاب، عدد 107، جويلية 1927، ص 2،3.

(3) إصلاح العقائد أول مهم " بامضاء إصلاحي، الشهاب، عدد 110، أوت 1927 ص 2.

مراحل لاحقة من تطور الحركة الإصلاحية خاصة لمّا أصبح رئيس تحرير البصائر، لكن بصفة عامة ظل إطار الإصلاح الديني ميزته في كتابة المقال الصحفي.

أما من حيث الأسلوب فقد تميز الشيخ مبارك الميلي بصفة رجل إعلام بميزتين أساسيتين لهما علاقة مباشرة بالمشروع الإصلاحي الذي يحمله وهما : المقال النّزالي الذي برع فيه من دن أن يترل إلى سفاسف الأمور في مواجهة خصوم العلماء، الذين تصدى لهم بكل حزم واسكت هجماتهم لتشويه صورة القائمين بالعمل الإصلاحي، وحتى أن بعض هؤلاء ومن أشهرهم الحافظي[1] استهدفوه شخصيا، موجهين إليه اتهامات مجانية في محاولة للنيل منه، لكنه عرف كيف يقيم عليهم الحجة ويبطل إدعاءاتهم المضادة أمام الرأي العلم[2]. الأمر الثاني تمثل في غلبة الجانب العقلي والأسلوب التحليلي في كتاباته، بحيث اختص في ذلك ضمن علماء الحركة الإصلاحية. حتى أنه اعتبر من طرف إخوانه من أمثال عبد الحميد بن باديس، والشيخ الطيب العقبي بالفيلسوف الكبير.

ما يعزز هذا القول أن الدارس لمقالاته يلاحظ أن الميلي يخاطب عقل القارئ قبل كل شيء، ويحاول كما ذهب إلى ذلك أحد الباحثين إلى التعمق في القضايا الاجتماعية والدينية والسياسية، ليستخرج منها الحقائق الخفية غير مكتف بالقراءة السطحية للواقع والأحداث المطروحة أمامه[3]. أما أبرز جولاته على صفحات الصحف التي كتب فيها، فكانت صراعه ضد الطرقية عن طريق أول مقالة عنوانها "العقل الجزائري في خطر" نشرها في العدد السادس من جريدة المنتقد[4] ليكمل فيها بعد المواجهة عن طريق نشر سلسلة من المقالات حملت عنوان رسالة الشرك ومظاهره في جريدة البصائر خلال عهدها الأول قبل أن يجمعها في شكل كتاب نشرته جمعية العلماء بالنظر إلى قيمته العلمية والشرعية. وأصبح مصدرا لا غنى عنه في هذا الباب[5]، وكذا تصديه لقضية تعليم المرأة على صفحات مجلة

---

(1) مبارك الميلي : حول ثرثرة الحافظي ، الشهاب عدد 111-116 ، أوت سبتمبر 1927.

(2) محمد ناصر ، المرجع السابق ، ص 159. أنظر كذلك الفصل الثالث من هذا البحث ص93.

(3) نفس المرجع ص 171.

(4) مبارك الميلي: رسالة الشرك ومظاهره ن ط2، مكتبة النهضة الجزائرية ، الجزائر ، 1966 ،ص 284.

(5) أحمد حماني : المرجع السابق ن ص19.

الشهاب ودفاعه عنها بإخلاص إلى جانب عبد الحميد بن باديس والبشير الإبراهيمي، في مواجهة المعارضين لتعليمها بحجج شرعية وموضوعية [1]. على أية حال كان الدور الذي لعبه الشيخ مبارك بصفته رجل صحافة طليعيا، ومساهم بصورة فعالة في تطوير المقالة الصحفية بالجزائر منذ تأسيس الصحافة الإصلاحية في منتصف العشرينيات[2]، وأكدت ذلك شهادات العديد من زملائه من أمثال أحمد بوشمال، والشيخ عبد الحفيظ الجنان، والزواوي خليل بن القشي، وكل واحد من هؤلاء أدى أيضا دورا كبيرا في عمل الجمعية الإصلاحي خلال تلك الفترة[3]. وللبعد الوطني حضوره القوي في كتابات مبارك الميلي، فقد أظهر غيرة شديدة على الوطن الجزائري، داعيا الاستفادة من الأمم التي تسير نحو الرقي والتقدم، و لم يستسيغ أفكار اليأس والقنوط كما جاء في رده لّما استفزه مقال صحفي بعنوان "هذه جزائركم تحتضر"، فقد حلّل عنوان المقال ووقف عند دلالاته السياسية واللغوية، واستنتج أنه يصّب في نتيجة عكسية لما كان يقصده صاحب المقال، انطلاقا من حرق هذا الأخير وغيرته على مصير الوطن الجزائري، فدعاه مبارك الملي قائلا: "ولا أرتضي منك يا عزيزي وأنت في غض شبابك أن تيأس وتقنط إن يرحمنا الله بشباب متنور يرفع الأمة إلى المستوى اللائق بالحياة، وهو يوم يراه المقصرون بعيدا ويراه الحازمون قريبا"[4]، ورغم انشغاله بقضايا الإصلاح الوطنية في كتاباته إلا أنه ساهم بمقالات في القضايا العربية والإسلامية أظهر فيها أيضا حسا قوميا عربيا وإسلاميا، ورؤية للوحدة العربية في إجاباته عن السؤال الذي طرحته مجلة الرابطة العربية على نخبة من المفكرين العرب من بينهم مبارك الميلي [5].

---

(1) مبارك الميلي : تعليم المرأة الكتابة ، ج6، مجلد12 ، أوت سبتمبر 1926.

(2) محمد ناصر ، المرجع السابق ن ص 142.

(3) أحمد حماني : نفس المرجع ، ص15.

(4) العربي التبسي : هذه جزائركم تحتضر ن النجاح ، عدد 238 –240، أوكتوبر 1925.

(5) الشهاب : الانبراطورية العربية، رد الأستاذ مبارك الميلي، ج9 ، مج12، ديسمبر 1936، ص400.

إضافة إلى تحمسه لتشكيل وفد من علماء الجزائر للمشاركة كتعبير حقيقي عن تمسك الأمة الجزائرية بقوميتها الإسلامية، فقد أبان فيه أيضا عن شعوره الإسلامي تجاه حال الإسلام والمسلمين[1].

من جهة أخرى يمكن الإشارة إلى أن مبارك الميلي كان مشتركا في الكثير من المجلات العربية كما يتبين من متابعته لما ينشر في الصحافة العربية، نجده ينتقي مواضيع ثم يعلق عليها ويقدمها في ركن المباحث العلمية والتسلية في جريدة البصائر.

كما يستنتج أنه كانت تربطه صلات ببعض مسؤولي الصحف ودور النشر العربية، كما هو الحال مع صاحب دار المنهل السعودية عبد القدوس الأنصاري الذي نشر له مقالات بالمجلة عالم 1937م، سعيت للحصول عليه فلم أتمكن من ذلك.

أما أهم العلاقات الفكرية والعلمية للشيخ مبارك الميلي فقد كانت مع الوسط العلمي الزيتوني الذي لم تنقطع على الإطلاق، فقد ظل الزيتونيون المهتمون بالإصلاح في الجزائر يتابعون خطوات مبارك الميلي، وبمجرد إصدارهم العدد الأول من المجلة الزيتونية أرسلوه له، وقد ذكر ذلك في رسالته لهيئة تحرير المجلة، لما قدم لهم ملاحظاته واقتراحاته بشأن مضمون وخصوصية المجلة، وذلك في لطافة فائقة عبّر عنها في قوله: "إنها من هوى عاقل، في حبه للزيتونية وأساتذتها"، ومما جاء في ملاحظاته، إن القواعد العلمية لا تستعمل في التفهيم بهذه الصحف السيّارة التي يخاطب بها كل الطبقات، ويقصد فيها تقريب المعاني[2]. وقد علقت هيئة تحرير المجلة الزيتونية وشكرته كثيرا مع تأكيد خصوصيتها.

ومن الحوار الذي دار على صفحات المجلة الزيتونية أن الخلاف ليس جوهريا، فقد انطلق الميلي من واقع المستوى الثقافي الجزائري، الذي كان يكفيه معالجة القضايا القريبة من اهتماماته والتي كانت تعبّر عنها الصحافة الإصلاحية الإسلامية.

أما هيئة تحرير المجلة فكان تعليقها مبنيا على أن جمهورها هو الأساتذة والطلبة في المقام الأول.

---

(1) مبارك الميلي : المؤتمر العام للخلافة الإسلامية د الشهاب ، عدد 1344 ، أفريل 1927 ، ص1

(2) مبارك الميلي : مملكة الرابطين، ونكبتهم للمعتمد، البصائر ، العدد 119، ربيع الثاني1357هـ، جوان 1938، ص2.

وقد احتفظت هيئة المجلة بتقديرها واحترامها لمبارك الميلي إلى ما بعد وفاتـــه، وقـــد خصته بملف خاص عن ذكرى أربعين يوما عن وفاته، تضمنت الخطب والقصائد التي قيلـت في المناسبة التي أحيتها جمعية الشبان المسلمين، وشارك فيها كبار أساتذة الجـــامع الأعظـــم ومنهم من تعلم على أيديهم مبارك الميلي، وكذلك ممثل عن الجزائر (الشيخ عبـــد الحفيـــظ الجنان، مدير التربية والتعليم في تلك الفترة)، والطلبة الجزائريين بالزيتونة [2].

هذه هي آثار مبارك الميلي المثوبة في صحف الحركة الإصلاحية الإسلامية، وهذه هي بعض مميزات شخصيته الصحفية، وفيها معاني كبيرة، والتي عبر عنها مبارك الميلي أحســـن تعبير في التزامه برسالتها النبيلة في خدمة قضايا الفكر والإنسان وحرية التعبير.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[2] المجلة الزيتونية ، ج10 ، المجلد 5 ، مارس 1945.

خلاصة الفصل:

لقد أبان الشيخ مبارك الميلي بهذين الأثرين العلميين عن شخصيته العلمية والفكرية التي سبرت أغوار المجتمع الجزائري بالبحث والتنقيب في تاريخه منذ القديم، مقدما بذلك محاولة علمية جادة في تأسيس النهضة العلمية والثقافية والفكرية في الجزائر.ساهمت بقوة في نشر الوعي الوطني الجزائري الذي مهد إلى جانب جهود المصلحين الآخرين في انقلاب فكري في الحياة التعليمية للجزائريين في المراحل اللاحقة من تاريخهم.

فبعد أن تم اكتشاف تاريخ الجزائر من طرف مبارك الميلي وصحبه، كان نشره وتأصيله في المراحل التعليمية والأبحاث العلمية المتعلقة بإعادة اكتشاف الجزائر بحد ذاتها كأمة وشعب لها انتمائها العربي الإسلامي والأمازيغي.

و لم يكن هذا الجهد والسبق في التأليف وليد الصدفة أو مجرد ترف، بل كان واجبا وطنيا وضرورة اعتمدت صاحبها على المنهج العلمي في البحث والتأليف في استخدامه الموروث الفكري الذاتي والاستعانة بنتاج العلوم الحديثة ومناهجها للبحث في التاريخ.

وفي هذا الفصل تبين وأن الشخصية الفكرية للميلي عميقة التكوين وشاملة لمناحي متطلبات العمل الإصلاحي، وذلك في استيعابه المبكر لأهمية الصحافة ودورها في إحداث الوعي واليقظة في صفوف المجتمع من أجل الخروج به من التخلف والجمود الذي عان منه كثيرا.وأسفرت جهوده الصحفية في نهضة فكرية وثقافية تعد اليوم من المصادر الأساسية للبحث في تاريخ الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر.

الخاتمة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مما سبق عرضه وتحليله ومناقشته في حياة وآثار الشيخ مبارك الميلي يمكن استخلاص هذه النتائج.

إن دراسة حياة آثار الشخصيات التي أدت جهودا معينة في الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية، يفيد في التعرف على تلك المراحل التاريخية؛ لأن الأدوار التي أدتها، والجهود التي قامت بها تلك الشخصيات، تعد جزءا عضويا من السياق العام لتلك الأوضاع.

فالدراسات البيوغرافية تمكن الباحث من الوقوف على حقيقة مدى المساهمة التي قدمتها تلك الشخصيات في صنع أحداث معينة من التاريخ.

وفي بحثنا هذا، حيث تعلق الأمر بشخصية مر على رحيلها ما ينوف عن الخمسين سنة، و لم يفرد لها بحث مخصوص شامل – حسب اطلاعنا على الأقل- فقد عرفنا بهذه الشخصية وبينا جهودها المتميزة، من خلال آراء ومواقف الميلي في قضايا الإصلاح في فترة حرجة من تاريخ الحركة الوطنية وهي فترة ما بين الحربين العالميتين. وكانت للحركة الإصلاحية الجزائرية الإسلامية مساهمتها الواضحة في النظرية والتطبيق للحسم في المسألة الوطنية، وكما تتبعنا، كانت أفكار مبارك الميلي الإطار العام والتأسيسي في بعض جوانب تلك المساهمة في الحركة الوطنية الإسلامية الجزائرية كفصيل في الحركة الوطنية وخاصة على مستوى الهوية الجزائرية.

تميز مضمون البديل الفكري الإصلاحي الذي قدمه مبارك الميلي في خلفياته ومنطلقاته بمرجعية ذاتية من الموروث الحضاري للأمة الجزائرية، ناضل من أجل تجديده وفق متطلبات الصراع، و لم يساوره شك في قدرة ذلك المضمون في أن نقاوته من شوائب الجمود الذي علق به والعودة به إلى سلفيته الصحيحة سيحقق للأمة ما تصبو إليه من تغيير.

ولذلك وجدنا مبارك الميلي من الفاعلين في تنقية الموروث الحضاري دون هوادة، وذلك يعود لليقين في أن العمل هو الكفيل بإثبات ذلك. ولقد أثمرت جهود مبارك الميلي

وصحبه في إيمانهم بأنهم يزرعون بذورا من نفس الأرض، عكس خصومهم (حالة الاندماجيين) الذين دخلوا الصراع وخرجوا منه بيد فارغة وأخرى لاشيء فيها.

وتجلت ثقة مبارك الميلي في مرجعيته أنه لما احتد النقاش في المسائل والأفكار المطروحة كحل للمسألة الجزائرية "الأهلية" عن طريق التجنيس والاندماج في الكيان الفرنسي رغم بريق التقدم والرقي، فضل مبارك الميلي الميتة الجزائرية الإسلامية على الرقي والتقدم في غيرهما. وهذا لا يعني أنه كان يدعو لتلك الميتة، بل كان الأمر مجرد افتراض لتدعيمه في برهانه على التمسك بالعمل في سبيل الرقي والتقدم من المقومات الحضارية للأمة الجزائرية.

و لم يكن ذلك تصلبا فانفتاحه على جوهر الحضارة الغربية في عمومها وتمدنها كان من دعاته طيلة حياته الإصلاحية، كما هو الحال في استفادته من مناهج البحث ودعوته لتعليم اللغة الفرنسية بعد التمكين للعربية، ويبدو أكثر تفتحا في موقفه المتميز (التقدمي) في تشجيعه لتعليم المرأة.

وقد التزم مبارك الميلي في نهجه الإصلاحي منذ البداية النظرة المستقبلية ،و لم يكن عمله رفقة زملائه رؤية ماضوية،بل اقترنت حركتهم بنعوت: النهضة الإصلاحية ،الشباب الناهض،الخ...لدرجة أنهم وسموا ووصموا بالمتمردين باسم الدين وألصقت بهم عنوة شعارات معبرة عن حركات تغييرية شرقا كالوهابية ،و في مراحل لاحقة نسبوا إلى "الشيوعيين"رغم بعدهم عن هؤلاء بعد السماء عن الأرض.

كانت تلك النعوت حصيلة الصرامة التي مارسها مبارك الميلي في نقد الذات وعدم التلاعب بالأولويات أو التكتيك في ذلك أو أسبقية المطالب غير الواقعية في تلك الفترة، بل كان فكر مبارك الميلي تحقيق الممكن وهو الإصلاح الديني بموازاة الإصلاحات الأخرى، انطلاقا من شمولية مفهومه للإصلاح.

الخطاب الإصلاحي الذي كان يوجهه الميلي عن طريق وسائله المتعددة بمضمونه الديني زاوج فيه بين العلمية الموجهة للنخبة بمختلف تشكيلاتها في مؤلفاته وآثاره في

الصحف من جهة أخرى.والتعبئة للجماهير الواسعة من الشعب عن طريق الوعظ والإرشاد وهي الأساليب التي تفوقت فيها الحركة الإصلاحية الإسلامية لعملها في العمق،عكس خصومها من الاندماجيين الذين كانوا نخبويين ويخشون العمل الجماهيري.

وهنا يبرز جهد مبارك الميلي في تأسيس عمل نضالي أعاد دور قيادة المجتمع للعلماء ليكتسبوا سلطة أخلاقية تفوقوا بها ،ولذلك كان الميلي قد واجه بحسم بعض علماء عصره الذين ركنوا لقيادة الدهماء (الحالة الطرقية)، أو حتى بعض الزعماء السياسيين في انسياقهم تحت مطالب حزبية ضيقة وتوظيفهم العامة في ذلك ؛ فالمشروع الإصلاحي عند مبارك الميلي كان عكس ذلك، إذ العلاقة كانت عطاء دون مقابل، أي إصلاح المجتمع دون انتظار تزكية لزعامة أو ما شابه ذلك، وما كان يؤخذ من دعم مادي من المجتمع تم استخدامه مباشرة وفي وضوح وحزم وبحساب دقيق ، في نشر التعليم وبناء المدارس والمساجد والنوادي وسواها من المؤسسات التي كانت تقوم بدور لافت في إنهاض المجتمع من كبوته وتعمل على إخراجه من الظلمات التي أغرقها فيها المستعمرون وحلفاؤهم.

ولذلك كانت حصيلة جهوده_رحمه الله_ في الأغواط مثلا "إقصاء الدهماء من قيادة المجتمع، وكذلك الحال في ميلة التي تحولت من مركز بلدي كانت تسيطر عليه العامة إلى مدينة تشع منها أنوار الإصلاح بعودة السلطة الاجتماعية للعلم والعلماء ممثلة في شخص الميلي وأصحابه. وتنسحب هذه الحالة على كل المناطق التي عمل بها رواد الإصلاح بصفة عامة.

إن المكانة التي تبوأتها الحركة الإصلاحية في القاعدة الواسعة للشعب الجزائري لم تمنعها من التعاون مع بقية الفصائل الأخرى (حالة المؤتمر الإسلامي مثلا) في تنمية المردود الإصلاحي وتوظيفه في خدمة القضايا الوطنية ولو من رؤى متباينة.

وقد أيد مبارك الميلي المؤتمر الإسلامي (1936م) مما يعني أن انفتاحه على الأطراف الأخرى حين تتوفر المعطيات وتصدق الإرادات في اتخاذ المواقف المطلوبة تجاه القضايا الوطنية تهون الخصوصيات في المطالب ويفرض التكتيك نفسه، سواء مع الفصائل الوطنية أو تجاه الاستعمار كما هو الحال في مهادنة السلطة الاستعمارية في الأغواط من أجل بذر

المبادئ الإصلاحية،واستفادته من شخص بوالصوف المستشار البلدي في ميلة لصالح المبادئ الإصلاحية، هذه المواقف من مبارك الميلي التي هي من مواقف الحركة الإصلاحية هي التي أفضت إلى التقاء جمعية العلماء مع الهيئات النضالية الوطنية التي تشكلت عقب الحرب العالمية الثانية ثم تطورت إلى أن صب في مجهود التحضير للعمل الثوري المسلح الذي شاركت فيه الحركة الإصلاحية بطريقتها الخاصة المعروفة .

إن جهود مبارك الميلي التي ساهم بها من خلال كتاباته ومؤلفاته وبشخصيته المتميزة ومكانته في جمعية العلماء لما تميز به من حصافة الرأي وعمق التحليل والصلابة في المواقف قد وفرت للجمعية في ظروف لاحقة النواة الصلبة لاتخاذ المواقف المناسبة كحالة أزمة أحداث أوت أربع وثلاثين صحبة بن باديس بقسنطينة ضد اليهود في مقابلتهما للسلطات الاستعمارية على المستوى المحلي آنذاك، كما أن رفضه لاحقا العروض الفرنسية بعد وفاة ابن باديس والتلميح لاستخلافه خارج الإطار القانوني لجمعية العلماء بينت القدرات السياسية لمبارك الميلي في تقدير مآل الأمور، إذ كيف كان يتصور وضع الجمعية لاحقا ، فالشيخ البشير الإبراهيمي في منفاه بآفلو، وهو نائب الرئيس ،وبقية أعضاء المجلس الإداري محاصرون في مدنهم. ورغم هذا فقد رد على العروض الفرنسية بشدة في أن يتم تعيين أي شخص إلا في إطار الأطر الشرعية للجمعية، وحين يستعيد الشيخ الإبراهيمي حريته.

ولجوء السلطات الفرنسية في عرضها بقصد تزكية مبارك الميلي لهذا الغرض، يؤكد مكانته القوية داخل الجمعية، كما يؤكد حقيقة أخرى طالما غابت عن الباحثين، وهي : أن الشيخ مبارك الميلي يعد من بين أكبر أقطاب الحركة الإصلاحية عموما. ولهذا نجده قد تحمل في تلك الظروف الصعبة من حياة الجمعية المسؤولية في إدارة شؤونها.

ولعّل هذا الاستنتاج كان يفرضه الواقع لو طالت أيام العمر بها، رغم شخصيته المتحفظة، ومنهجه الذي يعتمد العمل في صمت وبعيدا عن الأضواء،وهو ما يؤكد صحة الأحكام التي ذهب إليها جل الباحثين من أنه الشخصية الأكثر عمقا ودقة وفاعلية في الجميعة، رحمه الله.

وإذا كان الجهد الفكري للميلي غير موجه بصفة مباشرة ضد الخطاب الكولونيالي وتوابعه بصفة عامة، فإن جهده في إقصاء الطرقية واقتلاع جذورها من المجتمع (على الأقل في صفوف الجيل الجديد من الجزائريين، يعد أكبر خدمة أسداها للحركة الوطنية، في مرحلة المواجهة القادمة مع المستعمر، إذ باتت الطرقية هيكلا مهمشا لا يحسب له أي حساب في المعادلات السياسية الاجتماعية التي كان الاستعمار يراهن عليها للسيطرة على المجتمع الجزائري وتأطيره وفق الخطة التي رسمها .

مكننا البحث من اكتشاف أبعاد خفية من شخصية مبارك الميلي وبالأخص منها: العالم العامل المصلح، التقي النقي الزاهد المتجرد؛ حيث بلغ هذه المكانة عن طريق العلم وتقدير شرفه وأهميته فبلغ في طلبه "حد التبتل" على حد تعبير الإبراهيمي...المربي المدرس صاحب القدرة على صياغة الأهداف التربوية الواضحة،وهو ما استفادت منه مؤسسات جمعية العلماء، الرجل المحاور المنفتح على غيره، وهذه من الصفات الأساسية في القيادات الفكرية والثقافية، دون أن نهمل تواضعه الجم الذي دلت عليه كثير من مظاهر حياته وعمله، وقد كان لذلك أثره في حياة كل من عرفه وعاشره.

وفي الأخير لا يسعنا إلا أن نقترح، من باب الوفاء لهذه الشخصية الكريمة المتعددة في عطائها المتنوعة فيما قدمته من فكر وثقافة وتراث ما تزال الكثير من رؤاه وحقائقه قابلة للتطبيق والتنزيل في ارض الواقع..نقترح:

- العناية بتراثه الواسع نشرا وجمعا وتحقيقا .
- توجيه الباحثين الشباب إلى الاهتمام بتراث جمعية العلماء المسلمين الجزائريين عامة، لاستخراج القواعد الصحيحة في مجال التغيير والدعوة والإصلاح
- توجيه العناية إلى تراثه الخاص، لكونه أقل أعضاء رواد الإصلاح اهتماما به وآثاره المطبوعة والمنشورة في الصحف، في ميادين مختلفة.
- تخصيص ملتقيات على مستوى الجامعات لفكره وآرائه وأفكاره، على غرار ملتقيات محمد العيد، محمد الأمين العمودى، وغيرهم ..فليس الميلي أقل درجة حيث يكون الاهتمام به باهتا كما هو في الوقت الحاضر.

- تسمية بعض المراكز الجامعية، ذات الخصوصية الإسلامية ، باسمه إحياء لاسمه وفكره في عقول الأجيال الجديدة،ووفاء لذكراه الطيبة.

- تبني مراكز ومخابر البحث لأعماله وإعادة نشرها وطبعها؛ خاصة وأنها لم تطبع إلا طبعات قليلة، فضلا عن الاهتمام بتوسيع الدراسة حول تلك الأعمال من خلال فرق البحث الأكاديمية.

أخيرا نأمل أن نكون، من خلال هذا البحث، قد أجبنا على الأسئلة المحورية الكبرى التي طرحناها في "إشكالية الموضوع"، فاكتشفنا الشيخ مبارك من خلال آثاره اكتشافا علميا، وإن لم يكن كاملا، فقد فتحنا الباب لتعميق البحث في بقية جوانب الموضوع، سواء تعلق الأمر بشخصية الميلي، أو بآثاره وأعماله التي كانت منصبة على مفهومه الشامل للإصلاح كنقطة أساسية في عمله الإصلاحي طيلة حياته.

ونعتقد أنه تأسيسا على الشهادات والأحكام التي أطلقها معاصروه أنه كان في مستوى الأحكام التي صدرت في حقه؛ فكان المؤرخ الذكي، والسلفي المجدد.. ومدعم الحركة الإصلاحية بفكره وجهوده .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الملاحـــــــــــق

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

* ملحق -I- *

مقالات الشيخ مبارك الميلي
في صحف الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مقالات منشورة بجريدة المنتقد

عنوان المقال	العدد	الصفحة	تاريخ النشر	الأفكار الأساسية للمقال
هل نحن في بداية نهضة ؟	03	ص1	صفر 1344هـ / سبتمبر 1925م	• نقد للأوضاع القائمة في المجال الديني • نقد للأوضاع القائمة في المجال الاجتماعي بسبب الوضع الديني. • نظرة مقارنة للإيجابيات الحضارة الغربية وعدم الاستفادة منها. • إشادة ببوادر النهضة في تأسيس الصحافة الإصلاحية
المصلحون والمرجفون	14	ص1	أكتوبر 1925 م	• أصول الديانة الإسلامية وهي التي تقود البشرية : • الاعتماد، الأحكام، الأخلاق. • التعصب للكتاب والسنة وبذلك نحن سلفيون.
حول مقال هذه جزائركم نختضر.	18	ص1 ص2	ربيع الثاني 1344 هـ/ نوفمبر 1925م	• رد على الإثارة من عنوان يزرع روح اليأس حسب رأيه. • وهو عبارة عن نقد إيجابي لصاحب المقال الذي اعتز به كثيرا وهو الشيخ العربي بن بلقاسم التبسي كتبه بإحساس قوي ولغة لم يستسغها "الميلي"
العقل الجزائر في خطر الجمهورية ضمن الملوكية				• هاتان المقالتان غير متوفرتان من : • أرشيف ولاية قسنطينة ناقصتان .... 5 أعداد ناقصة من الجريدة. • نفس الملاحظة بأرشيف دوريات تونس.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مقالات منشورة بجريدة الشهاب "الأسبوعية"

عنوان المقال	العدد	الصفحة	تاريخ النشر	الأفكار الأساسية للمقال
العدالة بآثارها	04	ص1	1925/12/03م	• الفرق الشاسع بين العدالة كمفهوم قانوني والممارسة التي لا أثر لها في واقع الجزائريين. • عنصرية المعمرين تجاه السكان الأصليين. • مضمون من قانون الأنديجانيا.
جزء من المقال يدور حول الشرك والقبور	09	ص4	31 جمادى الثانية 1344ه/ 07 جانفي 1926م	• رد على أبي يعلى الزواوي في الاستدلال من الكتاب والسنة حول موضوع: الشرك بالقبور. • ناقص الصفحة 3 من العدد التي هي بداية وعنوان المقال من إمضاء بيضاوي.
التعليم الديني في الجزائر وحظ الزوايا منه	13	ص1 ص2	31 جمادى الثانية 1344ه/ جوان 1926م	• تشخيص للحالة التي يعلم بها الدين في الزوايا وأثر ذلك على المجتمع. وفي نفس الوقت تضمن الرد على د على أبي يعلى الزواوي الذي حمل العلماء مسؤولية ذلك، لأن المبني يرى ذلك من مسؤولية الطرقيين والعلماء السلفيين المتحالفين ضمنيا بسكوتهم معهم.
المؤتمر الإسلامي العام للخلافة	23	ص1	شوال 1344هـ/ 22 أفريل 1926م	• دعوة لتشكيل وفد جزائري للمشاركة في أشغال المؤتمر بالقاهرة. • عدم حضور المؤتمر فرصة للاندماجيين الداعين إلى الابتعاد عن العروبة والإسلام. • تحسيس فرنسا بأنه من الضروري أن يتكلم المسلمون الجزائريون وذلك لمصلحتها.
ابن ملجم القرن العشرين	78		2 رجب الثاني 1345هـ/ 6 جانفي 1927م	• أول رد كتابي على حادثة محاولة اغتيال ابن باديس • رأي قوي في وصفه للطرقية ووحشيتها، وتحميله بعض العلماء السلفيين ومنهم أبي يعلى الزواوي المتعاطف مع ابن عليوة (ابن يعلى سيرد ليبرئ نفسه) • دعوة الحكومة لمواجهة هؤلاء القوم الفوضويين.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مقالات منشورة بجريدة الشهاب "الأسبوعية" (تابع)

عنوان المقال	العدد	الصفحة	تاريخ النشر	الأفكار الأساسية للمقال
الأدب الجزائري يبعث من مرقده بارقة أمل	83		شعبان 1345هـ/ 10 فيفري 1927م	• تثمين كبير للأديب محمد الهادي السنوسي في إصداره كتاب "شعراء الجزائر" في العصر الحديث. • أهمية رابطة اللغة العربية في إحياء الأمة الجزائرية. • تذكير بانحطاط الأدب الجزائري، وخروج هذه المحاولة التحديد كتاريخ للأدب الجزائري الحديث.
الكتاب الاصلاحيون والضلال الخرافيون	86		27 شعبان 1327هـ/ 03 مارس 1927م	• رد تهكمي قوي ولاذع على أحد كتاب "البلاغ" الطرقية عن مقال الميلي: " ابن ملجم القرن العشرين". بيضاوي. *ملاحظة:* بيضاوي هو الاسم المستعار الذي كان الميلي يوقع به مقالاته في بداية كتاباته.
عرض الحالة التي جرت إليها موافقتي عليها	98	7	25 ذي القعدة 1345هـ/ مارس 1927م	• استياؤه العميق للمواجهة الوضيعة بين الإصلاحيين وخصومهم. • استجابته لموقف العقبي ومباركة ابن باديس في لقاء للصلح من اقترحه الطرقيون عن طريق "المباهلة".
النقوض والردود تطهير العقائد أولا	110	ص3	19 صفر 1344هـ/ أوت 1927م	• رد على صاحب "كتاب جليل" منشور في العدد 107 من الشهاب.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مقالات منشورة بجريدة الشهاب "الشهرية"

عنوان المقال	العدد	الصفحة	تاريخ النشر	الأفكار الأساسية للمقال
بين محبي الحقيقة المتعاونين على الوصول إليها المصلحون والسنة	ج1 م: 12		أفريل 1936 م	• حوار بين مصلحين : الميلي، الورتيلاني: حول إسناد حديث النبي صلى الله عليه وسلم "لا تنزلوهن الغرف، ولا تعلموهن الكتابة يعني النساء وعلموهن الغزل وسورة النور" الذي رواه الحاكم في مشروعه. • بحث من إسناده في عدة كتب و لم يتأكد من صحة الإسناد أو إبطاله اكتفى بقوله: نكتفي بما لدينا ولا نقف ما ليس لنا به علم.
الإمبراطورية العربية	ج9 م: 12		ديسمبر 1936م	• إجابته عن سؤال وجهته مجلة " الرابطة العربية" إلى الزعماء وكبار القادة والمفكرين من العالم العربي ومنهم مبارك الميلي، السؤال كان حول إمكان إنشاء امبراطورية عربية؟ • البداية تكون بتوحيد العمل الثقافي عن طريق الجمعيات والصحافة والنشر • بتوحيد الأخلاق عن طريق تجديد الخطب الجمعية السهلة المفيدة. • توحيد الدين اعتقادا وعبادة ومعاملة، وعدم الخوض في الخلافات البسيطة مع تنمية مواكبة العلاقات التجارية وال صناعية.
حول قضية الشحوم	103	14	30 ذي الحجة 1345هـ/ جوان 1930م	• المسألة علمية، انقسام الباحثين فيها إلى قسمين: • أحرار ومحافظين ومنهم الحافظي حسب "الميلي" وطعنه من ابن العربي الذي هاجم من افتوا بحلية الشحوم ونشر ذلك في صحيفة وادي ميزاب (36). • الميلي يرد عليه حججه التي قال أنها غير قابلة للنزاع

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مقالات منشورة بجريدة الشهاب "الأسبوعية" ثم "شهرية"

عنوان المقال	العدد	الصفحة	تاريخ النشر	الأفكار الأساسية للمقال
حول ثرثرة الحافظي	من 111 إلى 116.	ص ص 8 — 16	20 أوت 1927م	• بداية الرد القوي على المولود الحافظي الأزهري في رده على فتوى مبارك الميلي من مسألة الشحوم المستوردة، التي حمل فيها الحافظي الميلي بأنه أفتى بتحريمها مشيرا إلى استناد هذه الأخير من فتوى بن العربي المالكي.
			06 أكتوبر 1927 م	• مشابهة للحافظ ابن بكر بن العربي، والتنقيص من قيمته العلمية. — حسب الميلي- • رد مبارك الميلي بقوة ودافع عن ابن العربي دفاعا مستميتا.
				• وخلص للتذكير بأنه لم يبت في الفتوى إنما نبه إلى أن الاستناد إلى جواز طعام أهل الكتاب "غير كاف مبينا أن الأوربيين اليوم أغلبهم ملحدون وأصحاب الكتاب قلة.
آراء وأفكار الاتحاد والاندماج	152	ص 9 — 13	جوان 1928 م	• رده على السيد زرقين أحد النواب الداعين للاندماج. • رفضه الصريح للاندماج وتنبيهه إلى عدم خلطه مع مفهوم الاتحاد الذي حاول زرقين تمرير الاندماج عن طريقه.
تعليم المرأة الكتابة	ج 6 م: 12	ص 253 ص 263	أوت/ سبتمبر 1936 م	• رأيه الداعي إلى تعليم المرأة الكتابة خلافا لما كان يتحفظ بشأنه بعض الإصلاحيين • أنظر تفاصيل رأيه في الفصل الرابع من هذا البحث.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مقالات منشورة من جرائد: الإصلاح، البرق، وادي ميزاب

عنوان المقال	العدد	الصفحة	تاريخ النشر	الأفكار الأساسية للمقال
جريدة البـــــرق: حي على الصـــــلاح حي على الحرب والكفاح	09	ص1	20 شوال 1357هـــ/ ماي 1927م	• استجابته لزملائه في مواجهة كتاب الطرقيين في حملة إعلامية تحت عنـــــوان "ديـــوان المصلحين" أبعاد في خلفية الخصومة لخلفية التكوين، الزيتوني، الأزهري. • إقراره بأنه كاتب صحفي في نقد العلماء السلفيين.
جريدة وادي ميزاب: المذاهب والاتحاد	34	ص1	جوان 1927م	• توضيح ودعوى للعمل الإسلامي بين الإباضية والمالكية • المقال منشور بصحيفة "إباضية"
جريدة الاصلاح: الإصلاح وحاجتنا إليه	05	ص1	أكتوبر 1929م	• مفهومه للإصلاح • مجالاته الواسعة: ديني، اقتصادي، اجتماعي.
جريدة الإصلاح: الكتاب وقضية التجنيس	12	ص1	فيفري 1930م	• دعوته لفحص الموضوع من طرف كتاب متخصصين في الجوانب: القانونية، الدينيـــة، الاجتماعية الأخلاقية.

جامعة الأمير

مقالات منشورة في جريدتي: السنة، الشريعة

عنوان المقال	العدد	الصفحة	تاريخ النشر	الأفكار الأساسية للمقال
بيـــــان وإرشـــــاد		ص04	1933	تبرؤ الجمعية من إصدار جريدة المنبر التي جاءت لترد علـــى جريـــدة "المعيـــار" للطرق والصحيفتان فاحشتان في مضمونهما. دعوته القراء لمقاطعتهما.
جريـــــدة الشريعة التقريـــــر المالي	02	ص1 ص2 ص3	ربيع الأول 1357هـــ/ جويلية 1933م	ملخص مدقق لميزانية الجمعية في اجتماعها السنوي 19*33 باعتباره أمين عام ماليتها. توجيهات إسلامية لأوجه الاتفاق والتصرف في المال.
سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين		85 158	جمادى الأخيرة 1354ه/ سبتمبر 1935م	التقرير المالية للسنة المالية محاضرة في السرف المالي: **وجوهه، ووجوب مقاومتها وكيف تقاوم".**

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مقالات منشورة بجريدة البصائر سنة 1936

عنوان المقال	العدد	الصفحة	تاريخ النشر	الأفكار الأساسية للمقال
الشرك ومظاهره	05	ص1	06 ذو القعدة 1954هـ/ 31 جانفي 1936م	• هام : المقالات عبارة عن سلسلة من 17 حلقة عالج فيها حالة الفساد الذي حصل في عقيدة المسلمين الجزائريين بسبب عدم الفهم الصحيح للإسلام، وبعد إقرارها لأهميتها من طرف ج،ع،م،ج تم توقيفها بدء من العدد 45 ليتم نشرها في كتاب مستقل.
حركة العلم والدين اجتماع تأسيس جمعية حياة الشباب بميلة	07	ص2	21 ذي القعدة 1354هـ/ 14 فيفري 1936م	• تقرير عن تأسيس جمعية حياة الشباب بميلة. وقانونها الأساسي وأعضاؤها وتبرعاتهم.
ملخص خطابنا	08	ص2	28 ذي القعدة 1354هـ/ 24 فيفري 1936م	• ملخص الخطاب الذي ألقاه بمناسبة تأسيس جمعية حياة الشباب بميلة، وحثه الحاضرين على تدعيم طلب العلم من بناء المدارس، وأهمية العلم في حياة الإنسان والأمم.
حول مقال الشرك ومظاهره	14	ص7	18 محرم 1354هـ/ 10 أفريل 1936م	• اقتراح إلى رئيس التحرير بجريدة البصائر لتحويل المقال إلى الصفحات الداخلية للجريدة لكي يعطي فرصة للقارئ بمواضيع جديدة في صدر الصفحة.
تقرير عن تأسيس الجمعية الدينية الإسلامية الميلية	20	ص4	ربيع الأول 1355هـ ماي 1936م	• تقرير فيه توضيح عن تعدد الجمعيات الدينية بميلة كوسائل لنشر مبادئ الاصلاح.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مقالات منشورة بجريدة البصائر سنة 1936 (تابع)

عنوان المقال	العدد	الصفحة	تاريخ النشر	الأفكار الأساسية للمقال
سير الجمعية وأعمالها تفقد العشب (1)	28	ص8	28 ربيع الثاني 1354هـ/ 17 جويلية 1936م	• تقرير عن نشاطات وفد ج،ع،م،ج برئاسته لتفقد شعب الجمعية في عدد من مدن الشمال القسنطيني وتأسيس فروع جديدة.
سير الجمعية وأعمالها تفقد الشعب (2) بلاد قبائل الحدراء	29	ص8	05 جمادى الأولى 1354ه/ 24 جويلية 1936م	• تابع تقرير وفد نشاطات الجمعية بمنطقة قبائل الحدراء برئاسته
سير الجمعية وأعمالها تفقد الشعب (3)	30	ص8	12 جمادى الأولى 1354ه/ 31 جويلية 1936م	• تابع تقرير وفد نشاطات الجمعية بمنطقة قبائل الحدراء برئاسته
سير الجمعية وأعمالها تفقد الشعب	31	ص8	19 جمادى الأولى 1354ه/ 07 أوت 1936م	• تابع تقرير وفد نشاطات الجمعية بمنطقة قبائل الحدراء برئاسته
إعلام إلى طالبي مجلدات الجمعية	33	ص7	17 جمادى الثانية 1354ه/ سبتمبر 1936م	• إعلام عن استمرار خدمات الجمعية ومراسلاتها رغم غيابه، وتعيينه من ينوبه. • كان غيابه بسبب المرض للعلاج بالجزائر العاصمة.
لفظة الغفارة	48	ص4	شوال 1355هـ/ 25 ديسمبر 1936م	مناقشته لأبي يعلى الزواوي في أن لفظة الغفارة لفظة بربرية الأصل ومعناها الزيارة . رأي أنها أقرب لـ: لفظة "الخفارة" ويمكن أن تكون عربية ولكن لم يجزم بذلك.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مقالات منشورة بجريدة البصائر 1937

عنوان المقال	العدد	الصفحة	تاريخ النشر	الأفكار الأساسية للمقال
إلى حكومة الجبهة الشعبية	65	ص1	23 أفريل 1937م	• موقف صريح من تنكر حكومة الجبهة الشعبية، واستمرار قمعها لنشاطات الجمعية في المساجد والزوايا.
آثار المدينة المنورة	80	ص4	3 ديسمبر 1937م	• عرض إلى العلاقة بين عنوان كتاب بهذا الإسم ومقالة بنفس العنوان، الكتاب صادر عن دار المنهل السعودية.
الشيخ الفضيل الورتلاني في طريقه إلى مقر أسوته، وما ينصب للجمعية من عراقيل.	86	ص1 ص2	13 نوفمبر 1937م	• موقف فيه إدانة للسلطات الإدارية بمنطقة قترات عمالة سطيف التي منعت الورتلاني من التدريس بمسجد البلدة واقتحمته في صلاة الجمعة.
السنة الثالثة	90	ص1	6 شوال 1356 هـ/ ديسمبر 1936م	• تذكير بذكرى صدور البصائر واعتبار ذلك من أعياد المسلمين في الجزائر، وأهمية التاريخ الهجري. • تذكير بحالة القمع الممارسة من طرف السلطات الاستعمارية.
	84	ص1	29 أكتوبر 1937م	تقديم خطة عمل متكاملة لدور "البصائر" كجريدة اصلاحية. ومن هذا القدر بدأت مسؤوليته كمدير ورئيس تحرير جريدة "البصائر".

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مقالات منشورة بجريدة البصائر سنة 1938

عنوان المقال	العدد	الصفحة	تاريخ النشر	الأفكار الأساسية للمقال
اجتماع رؤساء مجالس شعب الجمعية للعمالات الثلاث	97	ص1 ص2	1938/01/28 م	• تقرير عن أشغال ونتائج اجتماع ممثلي مجالي العمالات الثلاث (الجزائر، قسنطينة، وهران)
التوحيد ووحدة الأديان فيه	99	ص1 ص2	1938/02/11م	• تلخيص لخطاب الشيخ المراغي من مصر، ورأيه في مسألة التوحيد التي تطابق فيها رأيه مع دعوة الجمعية. • توجيه الدعوة لخصوم الجمعية بالجزائر للاستفادة من هذا "العالم المستقل من خارج الجزائر".
التجنس وفتوى جمعية العلماء فيه.	100	ص1 ص2	1938/02/18م	• تذكير بجذور المسألة منذ الثلاثينات وما دار بشأنها من جدل على صفحات "الإصلاح" للشيخ العقبي، وأحد دعاة التجنس "حسان زناتي". • رصد لردود أفعال الفتوى في مختلف الأوساط من المستحسنين للفتوى، المرتابين المتعاطفين مع الجمعية، مع الخصوم (زناتي).
جمعية العلماء وخصومها	109	ص1 ص2	1938/01/23	• توضيح في الخصوم في داخل الوطن من المسلمين مع خصوم الخارج من غير المسلمين ضد الجمعية. • انتقاد حاد للزاهري الذي أنشأ جريدة "الوفاق" لهذا الغرض. دفاعه عن استقلاله في تسيير البصائر عكس ما اتهمه الزاهري من أنه مسير من مدير أعلى (يقصد بن باديس).
الاجتماع للمولد النبوي	112	ص3	ماي 1938	• انتهاز الجمعية لمناسبة لبث تعاليم الإسلام الصحيح. • آراء العلماء المنكرين للاحتفال بسبب البدع. • دعوة إلى الالتزام بتوجيهات الجمعية في هذا الشأن بمحاربة مظاهر السرف وتوفير الأموال لخدمة المشاريع الخيرية الضرورية.

مقالات منشورة بجريدة البصائر سنة 1938 (تابع)

عنوان المقال	العدد	الصفحة	تاريخ النشر	الأفكار الأساسية للمقال
من يسمع يخل	114	ص3	1938/03/20م	• رد جاء على الزاهري (مدير الوفاق) في اتهامه بدعوته للفتنة باستمرار كتاباته ضد الطرقية. • دفاعه بحجج قوية وتقديم حقائق ضد الزاهري.
التعليم التعليم	114	ص2	1938/03/20م	• مغزى أولوية الجمعية في نشر التعليم والنتائج المسجلة. • مسؤولية الطرقيين في التعاون مع الإدارة الفرنسية في منع الجمعية من فتح المدارس، والتدريس بالمساجد والنوادي.
				• مسؤولية بعض الموظفين في الإدارة الفرنسية في ذلك. • مسؤولية رجال الإدارة الفرنسية • مسؤولية بناء الكتاب والصحفيين والنواب.
فيشي	119	ص4	ربيع الثاني 1357ه/ جوان 1938م	• ربورتاج عن مدينة فيشي الفرنسية التي بقي بها مدة للعلاج. • إعجابه بمظاهر التقدم والآداب العامة. • مقارنة بين المعمرين بالجزائر وإنسانية الفرنسيين التي لم تؤثر بهؤلاء
المباحث العلمية والتسلية مملكة المرابطين ونكبتهم للمعتمد	121	ص4	جوان 1938	• عرض ونقد لكتاب من تاريخ الأدب العربي بالمغرب العربي. • تصحيح لأخطاء تاريخية نضمها الكتاب يتعلق بالحدود الجزائرية. • انصافه المعتمد الذي أبخسه الكاتب تحت تأثره بيوسف ابن تاشفين.
المعلم	125		جمادى الثانية 1357 هـ/ أوت 1938م	• أهمية ما ينتجه المعلم من معارف بناء على ما يحصله من تنوعها كالعسل الذي تجنيه النحلة. • الموقف التربوي من المعلم غير الكفء، والمعلم السيء الخلق. • زيادة العلم من الاتفاق عليه بالصحة، ونقصان الصحة، وعدم النقاق بالقلم.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مقالات منشورة بجريدة البصائر سنة 1938 (تابع)

عنوان المقال	العدد	الصفحة	تاريخ النشر	الأفكار الأساسية للمقال
فاتحة السنة الرابعة	114	ص1 ص2	3 شوال 1357 هـ/ نوفمبر 1938م	• تذكير بالدور الديني التوجيهي لجريدة "البصائر" • دعوة للكتاب، العلماء، الأدباء الشباب للكتابة بالجريدة.
فرنسا والعرب المسلمون	145	ص1 ص2		• عرض لمقال ترجمته ونشرته صحيفة كويتية عن صحيفة فرنسية. • تعليقه على مضمون المقال الذي يدعو فرنسا لتفهم حقيقة تعاونها مع العرب المسلمين، وهو ما تدعو إليه الجمعية في إطار مبادئها وشخصيتها القومية العربية الإسلامية.
التجديد والاجتهاد	145	ص2 ص3		• عرض لمناظرة بين الشيخ الطاهر بن عاشور والشيخ الحجوي من المغرب وطرح هذا الأخير لحاجة المسلمين لفقه يتماشى والمستجدات. • مقارنة بين مواقف العلماء الرسميين في بلدان المغرب العربي.
إياب إلى عشرة القراء والكتاب.	129	ص1	7 رجب 1357هـ/ ديسمبر 1938م	• تجديد الصلة بقراء وكتاب الجريدة بعد غياب عن العمل. • آثار المواجهة مع الواقع والإرادة المتجددة للمواجهة.
الحياة للعلم	129	ص8		• عرض لمقال من إحدى المجلات العربية، تحيز فيه العالم الشريف الرضى أحد علماء النجف بعدم ذكره في خطابه أي عالم يمثل علماء السنة، فأعاب عليه ذلك، مذكرا بابن تيمية ومواقفه السنية المعروفة.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مقالات منشورة بجريدة البصائر سنة 1939

عنوان المقال	العدد	الصفحة	تاريخ النشر	الأفكار الأساسية للمقال
تعصّب وشيوعية	155	ص2	فيفري 1939م	• تقديمه لحلقات مترجمة من كتاب الشباب الجزائري للأستاذ فرحات عباس Le jeune Algérien • دعوته للتفاهم بين الجزائريين المثقفين بالعربية والفرنسية وأهمية الترجمة في تحقيق هذا الغرض.
البصائر والشعب الجزائري.	153	ص2	18 فيفري 1939م	• تعقيب على أحد قراء البصائر بتحويلها إلى يومية وإشارته إلى مقارنة أرسلها أحد الكتاب يقارن فيها ما وصلت الصحيفة في عهده.
حول كتاب العقبي إلى رئيس الجمعية	156	ص2	10 مارس 1939م	• رد على السعيد الزاهري عن بعض التهم منها استيلاء الميلي على " البصائر" وإبعاده العقبي.
موقفنا من الصحف الطرقية	157		17 مارس 1939م	• ذكر للعوامل التي جعلته لا يساير كتابات صحف الطرقية. • تساؤله عن تمادي هذه الصحف في السب والقدح للجمعية وبعض رموزها، وإن أقلام المصلحين لا تزال قادرة على الرد المناسب كما فعلوا في السابق وهزموا شر هزيمة أقلام الطرقيين

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مبارك بن محمد الميلي
مدير صحيفة «البصائر» ورئيس تحريرها
ميلة . قسنطينة . (الجزائر)

Mobarek ben Mohammed El-Mili
Directeur
Rédacteur en chef du journal
El-Bassair
Mila - Constantine «Algérie»

في ١٠/ ٤/ ١٩٥٨

الشاب الظريف أديب الأدباء السيد أحمد بن ذياب سلام من
عليكم ورحمة الله وبركاته

تلقيت رسالتكم الحسنة، فكان أول شيء لفت نظري فيها الجمع بين
الخضوع وتركيب الكلمات التي هي من آداب الباحث إلى
أن تكون كذلك بعد مرور من مقتضى حال فاعلمه

ثم إن رغبتكم مشكورة أن أكتب لكم بيان البلاغ الحالة تؤخذ
بأني في حاجة إلى تقريره وتأكيده.

يعلم الله بأني وطني إن البصائر عندي بعد كل أعمالي العزيزة
لأشد تألما كلما رأيتها تنحرف عن التوفيق ويدب إليها الخلل. وقد كنت شديد الحرص
على بعض المتجندين في أيام كان الشر الخطير منذرا بها. ولكنه لم يستحكم في
وقد انقرض ذلك.

ولقد كان لدي من أمثالكم كلمات مجموعة. والعمل لا يكون فضل
دخول للشيء أو ترك. وعندما تغرب زمن الشروع نفسح أبواب الخوض إلى
مناقشة مسألة تحليل الحلاقة. فيخصص لها مبلغ المناقشة. ويجعل لكل
مناقشة متحدث

والآن أرجو من جنابكم أن تتقبلوا بارك الله تعالى بجعلها على
لسنة من تمثلوا أنكم أحدهم. كما نرجو أن تستجيبوا في الوقت
المناسب إلى الكتابة في المجلات

والسلام عليكم من مخلصكم مبارك محمد الميلي

* ملحق -II- *

رسائل بخط يد الشيخ مبارك الميلي، لأحد شباب الحركة الإصلاحية تبين عنايته بعنصر الشباب في عمله الإصلاحي.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مبارك محمد الميلي
مدير صحيفة البصائر، ورئيس تحريرها
ميلة، قسنطينة . (الجزائر)

ميلة في 4 ربيع الثاني 1358/ 1939/05/01

الشاب الظريف أديبنا الفاضل السيد أحمد بن ذياب

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

تناولت رسالتكم أمي فكان أول شيء منها هجومكم على الموضوع وتركككم للمقدمات التي هي من الأدب البالي إلا أن يكون لها مبرر من مقتضى حال خاصة.

ثم أن رغبتكم محترمة إلا أنكم أطلتم في بيان الباعث إطالة تؤذن بأني في حاجة إلى تقريره وتأكديه.

أعلم أن من بين واجبي أن للبصائر عندي فوائد أهمها إعطاء الفرصة لأمثالكم كي يتعرفوا إلى الوطن ويدرسوا المجتمع وقد كنت شديد الحرص على بعث المتجولين أيام كان الشيخ الطيب مديرها ولكنه لم يسمع لي ولغيري في ذلك.

ولقد جان لدي من أمثالكم طلبات محفوظة، والعمل يكون قبل دخول شهر أوت، وعندما يقرب زمن الشروع نقسم الوطن إلى مناطق حسبما تمليه المصلحة فيظهر لنا مبلغ المناطق ونجعل لكل منطقة متجول.

والآن أرجوكم أن تتصلوا بالإدارة اتصالا يجعلها على بيّنة من عنوانكم بعد عودتكم من تونس لتخبركم في الوقت المناسب.

والسلام عليكم من مقدر رغبتكم مبارك بن محمد الميلي.

رد الشيخ مبارك الميلي عن رسالة الأديب أحمد بن ذياب الذي طلب التعاون مع جريدة البصائر

* ملحق –III– *

خريطة الجزائر ومراكز القبائل في القرن الثامن للهجرة، تضمنها ملحق كتاب الجزائر في القديم والحديث (الجزء الثاني).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

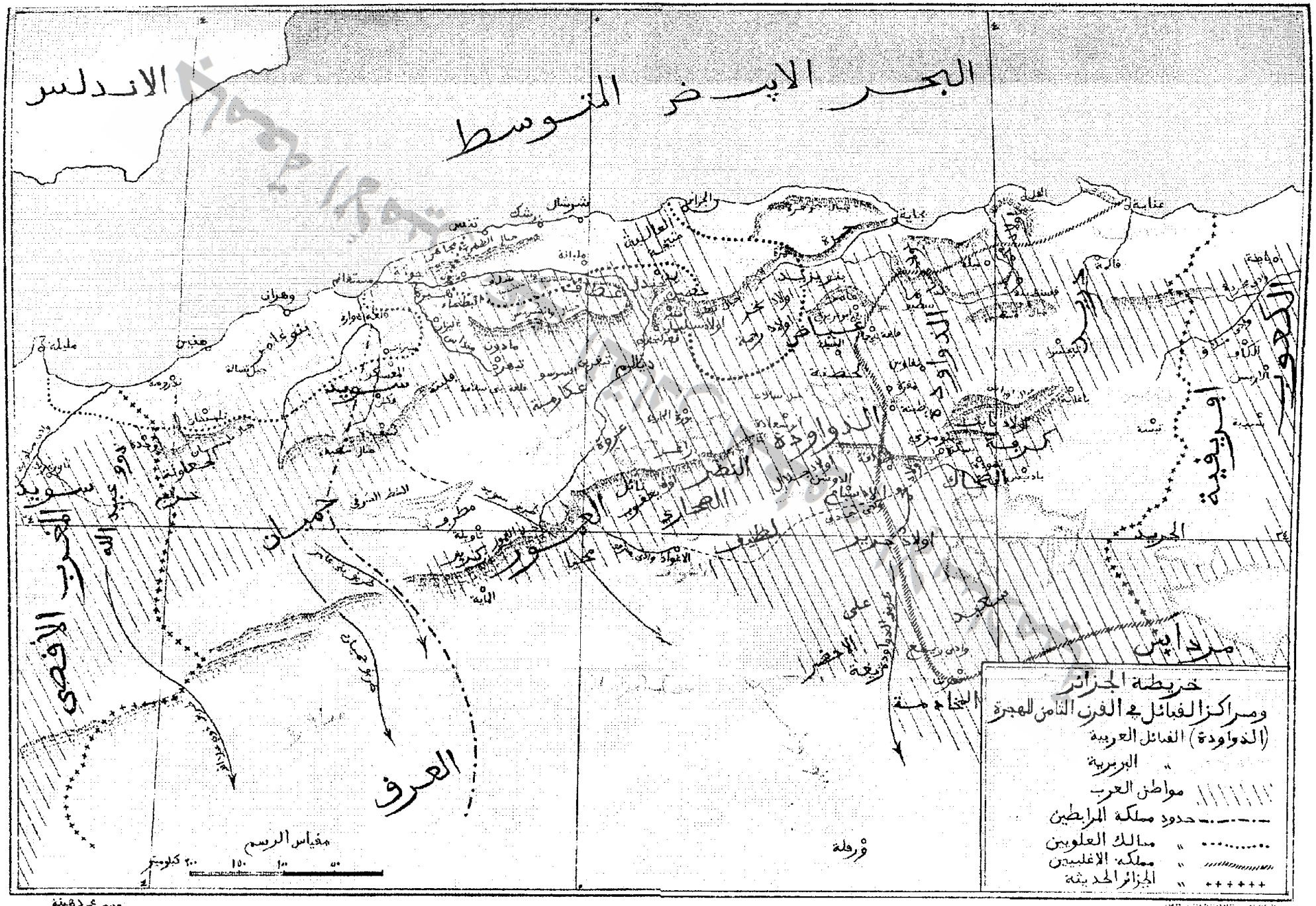
الاندلس
البحر الابيض المتوسط
الجزائر
افريقية
الحدود
الدواودة
الدواودة
النطر الصحارى
العرب
العرف
المخزن الاقصى
سويد
جبيان
مرداس
مغاس الرسم
٢٠٠ كيلومتر
١٥٠
١٠٠
٥٠
خريطة الجزائر
ومراكز القبائل في القرن الثامن للهجرة
(الدواودة) القبائل العربية
" البربرية
مواطن العرب
حدود مملكة المرابطين
" ممالك العلويين
" مملكة الاغلبيين
" الجزائر الحديثة

فهرس الأعلام

(أ)

أبو القاسم الحفناوي:42

أبو بكر بلقاسم: 120. 127.

أبو حامد الغزالي :80. 84

أبو يعلى الزواوي: 65.

أبي بكر بن العربي المالكي:79.94.

أحمد التيجاني :89. 135.

أحمد بن التهامي شطة: 120. 127.

أحمد بن الحكيمي: 141

أحمد بن تيمية: 79. 81. 84 174. 176. 179.

أحمد بوزيد قصيبة: 54. 120.

أحمد بوشمال: 181.

أحمد توفيق المدني: 15. 18. 57. 68. 64. 104. 116. 157. 162. 163. 167. 170.

أحمد حماني: 60. 64. 66. 68. 85. 105. 106. 117. 163.

أحمد مصطفى بن عليوة: 65. 66. 67.

الأخضر بن عميرة: 139.

الأزهر بلقاسم الجزائري: 69.

الإسفرائيني: 79.

الإكسندر ميليران : 5.

الأمين العمودي: 15. 20. 21. 69. 109.

ابن العربي الحافظ: 79. 94.

ابن حجر العسقلاني: 81.

(ب)

الباقلاني: 79. 84.

البشير الإبراهيمي:14. 15. 20. 42. 57. 58. 59. 61. 69. 95. 102. 104. 106. 123. 149. 180.

بشير الصفر:55.

البشير الطيار (الحاج): 139.

بلوم ليون:97.

بن الحاج :20.

بن الموفق (الدكتور) :68.

بن تامي : 10.

بن زروق السعيد : 139.

بن زكري: 120.

بن عمر بني مبارك: 139.

بوالصوف:52. 53. 54.

بوشامة :20.

بوفمة :90.

بوقرط:20.

بوكردنة:20.

بوير:40.

بيبلس:1.

بيجو:26.

بيرجو:30.

(ت)

تركية:49.

(ج)

جمال الدين الأفغاني:77. 78.

الجويني:84.

(ح)

الحداد:28.

الحسن بن قارة مصطفى:139.

حسين لحول :9.

حسين مهدي: 69.

حفصية (الجدة) :49.

حمدان اللونيس:42.

(خ)

خالد (الأمير):3. 4. 5. 6. 7. 11. 19. 45. 107.

الخديوي: 77.

خليفة بن عمار :9.

الخليفة جلول: 135.

(د)

دريدي محمود:139.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

دوروكس:24.

(ر)

رابح إبراهيمي (الجد): 50

رينيه: 96.

(ز)

الزواوي خليل بن القشي: 181.

(س)

سعدان الحكيم:20.

(ش)

شكيب أرسلان:162.

(ط)

طارق بن زياد: 171.

الطيب بن محمود غيموز:50.

الطيب العقبي:15. 17. 20. 22. 57. 58. 60. 77. 94. 103. 147. 180.

(ع)

عبد الحفيظ الجنان:54. 55. 119. 181.

عبد الحليم بن سمايا : 14. 43.

عبد الحميد بن باديس:3. 14. 15. 16. 17. 18. 19. 20. 21. 22. 39. 40. 42. 43. 44. 53. 54. 57. 58. 59. 61. 64. 66. 73. 78. 79. 81. 85. 98. 99. 101. 104. 106. 109. 110. 111. 115. 123. 124. 128. 135. 137. 143. 144. 158. 162. 170. 180.

عبد الرحمان الجيلالي:69. 157.

عبد الرحمان بن خلدون: 83. 160. 164.

عبد العزيز الهاشمي: 69. 118.

عبد القادر (الأمير) :5. 6.

عبد القادر المجاوي:42.

عبد القادر بن ياجور: 69.

عبد القدوس الأنصاري:182.

عبد المالك (الأمير):6.

عثمان الكعاك: 164.

العربي التبسي:57. 58. 61. 69. 104.

العربي بن مهيدي: 64.

علي عبد القادر (الحاج):7.

عمارة بن عميرة: 139.

عمرو دهينة:168.

(غ)

غرافة :9.

غورجو:35.

(ف)

الفخر الرازي:79.

فرحات الدراجي:69.

فرحات عباس :11. 13. 20. 69. 97. 99.

(ق)

القشيري:79.

قيرنوت :24.

(ك)

كنعان بن عمليق:170.

كيطولي:24.

(ل)

لخضر الميلي: 141.

لعرابة محمود:139.

(م)

الماوردي:84.

محمد السعيد الزاهري:15. 57. 62. 63. 93. 94. 95. 118. 119.

محمد الشريف الصائغي:115. 119.

محمد الصالح بن جلول :12. 13. 20. 21. 97.

محمد الصالح بن عتيق:137.

محمد الطاهر الساحلي الجيجلي:141.

محمد الطاهر بن عاشور:55.

محمد العربي كبيس: 141.

محمد العيد آل خليفه:15. 57. 63. 175.

محمد النخلي القيرواني:55.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

محمد الهادي بن معنصر: 139.
محمد بن دفوس: 174.
محمد بن ديهنة:120.
محمد بن رابح إبراهيمي: 49
محمد بن معنصر المُيلي:54.
محمد بن ناصف: 137. 139.
محمد خير الدين:57. 63. 64. 69. 103.
محمد عبده:14. 77.
محمد علي بن عزوز:122.
محمد فريد وجدي:39.
محمود بن كحول:60.
المُدني بن يس: 141.
مصالي الحاج :8. 9. 97.
مصطفى بن خوجة:43.
المعري: 81.
معنصر عبود: 174.
مقدي زكريا :9.
المقراني: 28. 87.
موريس (فيوليت) : 21. 22. 36.
المولود الصديق الحافظي:64. 93. 180.
المولود بن الموهوب:14. 43.
ميرانت ميو:58.
ميشال:17. 96.

(ن)

نابليون الثالث :1. 26. 33. 38.

(و)

ويلسن :5.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الأماكن

(أ)

الأردن: 176.

أرمامن: 49.

الأزهر: 64.

أستراليا: 37.

الأغواط: 67. 72. 88. 89. 90. 91. 113. 117. 118. 120. 124. 126. 127. 130. 133. 135. 136. 137. 139. 140. 153. 154. 156. 173.

إفريقيا : 4. 7. 8. 20. 22. 23. 39. 67. 96. 97. 164. 165.

آفلو: 59. 104. 106.

أمريكا: 23.

الأوراس:2

أوربا: 67.

(ب)

باتنة: 63.

باريس: 3. 7. 35. 98.

بسكرة: 15. 60. 62. 63. 145.

البليدة: 124.

بوقاعة: 64.

البياضة: 118.

بيروت: 80. 84. 169.

(ت)

تبسة: 61.

تلمسان: 165.

تونس: 8. 43. 53. 54. 55. 56. 57. 58. 69. 72. 88. 112. 115. 120. 135. 142. 143. 164. 176.

(ج)

الجزائر: 1. 2. 3. 5. 6. 7. 8. 9. 10. 11. 13. 14. 15. 17. 18. 19. 20. 21. 22. 23. 24. 25. 27. 28. 29. 30. 31. 32. 35. 36. 37. 38. 39. 40. 41. 42. 43. 44. 45. 47. 54. 56. 58. 59. 60. 61. 63. 64. 65. 66. 67. 73. 78. 86. 87. 98. 103. 105. 107. 115. 120. 135. 142. 145. 147. 148. 156. 157. 158. 159. 160. 161. 163. 164. 165. 167. 176. 182. 184.

جيجل: 140. 141.

(ح)

الحجاز: 59.

(د)

دمشق: 5.

(ز)

زواوة: 65.

الزيتونة: 14. 53. 54. 55. 56. 57. 58. 63. 69. 88. 94. 95. 113. 115. 118. 120. 135. 137. 141. 142. 156.

(س)

سطيف : 15. 64. 140.

السعودية: 176.

السودان: 30. 176.

سوريا: 8. 59.

سيدي بومعزة: 115. 116. 119. 122.

سيق: 61.

(ش)

الشام: 65.

الشقفة: 141.

(ع)

عزازقة :65.

عميش: 118.

عين البيضاء: 115.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

عين ماضي: 89. 135.

(ف)

فاس: 135.

فرساي: 5.

فرقان:63.

فرنسا : 3. 6. 8. 10. 11. 12. 13. 20. 21. 22. 24. 30. 31. 32. 45. 46. 67. 73. 96. 98. 104. 137. 158.

فيشي: 67. 178.

(ق)

القاهرة: 42.

القبائل الكبرى: 65.

قرطاجة: 170.

قسنطينة: 12. 13. 14. 19. 24. 39. 42. 43. 49. 51. 53. 54. 58. 61. 62. 63. 64. 68. 72. 79. 88. 90. 93. 94. 95. 101. 106. 113. 115. 116. 117. 120. 123. 124. 130. 142. 143. 145. 146. 147. 161. 162. 165.

ل

لبنان: 8. 80.

م

المحمدية: 99.

المدينة المنورة: 123.

مستغانم: 65. 66.

مسكانة : 115.

مصر: 8. 64. 176.

المغرب: 6. 8. 99. 164.

موزال: 49.

ميلة: 51. 52. 53. 54. 68. 69. 72. 90. 91. 101. 113. 114. 120. 126. 130. 137. 138. 139. 140. 147. 154. 173. 174.

الميلية: 49.

(و)

وادي العثمانية: 90.

وادي ميزاب : 145.

الوادي: 118.

وهران: 20. 42.

(ي)

اليونان: 170.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

قائمة المصادر والمراجع :

أ- المصـــــادر:

الكتـــب :

- "تاريخ الجزائر في القديم والحديث" (الجزء الأول)، مطابع أ. بدران وشركاءه، بيروت،لبنان، 1963.
- "تاريخ الجزائر في القديم والحديث" (الجزء الثاني)، المطبعة الإسلامية الجزائرية بقسنطينة، 1932.
- رسالة الشرك ومظاهره، دار البعث قسنطينة، سنة 1973.
- سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين المنعقد بمركزها العام نادي الترقي بالجزائر، دار الكتب الجزائر، 1982.

الجرائد والمجلات: النجاح، المنتقد، الشهاب، البرق، الإصلاح، السنة، الشـــــريعة، وادي مـــيزاب، البصائر (**ملحقI**).

ب- المراجـــــع :

باللغة العربية :

1. أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية (1900-1930) الجزء الثاني، الطبعـــة الثالثـــة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983.
2. أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية (1930-1945) الجزء الثالث، الطبعـــة الثالثـــة منقحة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986.
3. أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، الجزء الأول، القسم الأول، المؤسسة الوطنيـــة للكتاب، الجزائر، 1992.
4. أبو القاسم سعد الله: محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث (بداية الاحتلال)، طبـــع الشـــركة الوطنية للنشر والتوزيع، مركب الطباعة، رغاية، الجزائر، 1982.
5. أحمد الخطيب: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحـــي في الجزائـــر، المؤسســـة الوطنية للكتاب، الجزائر 1985.
6. أحمد حماني : صراع بين السنة والبدعة، ج2، ج1، ط1، دار البعث الجزائر، 1405 ه،/ 1984م.
7. بسام العسلي: الجزائر والحملات الصليبية، ط2، دفتر النفائس، بيروت (1403 هـــ/ 1989م)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

8. البشير الإبراهيمي: من آثار محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ج2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.

9. الجيلالي صاري، محفوظ قداش: الجزائر في التاريخ، المقاومة السياسية 1900-1954، الطريق الإصلاحي والطريق الثوري، ترجمة عبد القادر حراث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1987.

10. خليل عماد الدين: دراسات تاريخية، ط1، المكتب الإسلامي، بيروت، 1403/1983م

11. سليمان الصيد: نفح الأزهار عما في مدينة قسنطينة من الأخبار، ط1، المطبعة الجزائرية للمجلات والجرائد، الجزائر 1414 هـ/ 1994م.

12. طريف الخالدي: بحث في مفهوم التاريخ ومنهجه، ط1، دار الطليعة، بيروت، لبنان، 1981.

13. عبد الرحمان الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ج2/ ط2، مكتبة الشركة الجزائرية، الجزائر 1358هـ/ 1985م.

14. عبد الرحمان عواطف: الصحافة العربية في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985.

15. عبد الكريم بوالصفصاف: " جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في تطوير الحركة الوطنية الجزائرية"،1931-1945، قسنطينة، دار البعث، ط1،1981.

16. عبد الكريم بوالصفصاف: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وعلاقاتها بالحركات الجزائرية الأخرى (1931-1945)، دراسة تاريخية وإيديولوجية مقارنة، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، طبع المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، وحدة الطباعة بالرويبة (الجزائر)، 1996.

17. عبد المالك مرتاض : نهضة الأدب المعاصر في الجزائر (1925-1940)، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983.

18. عبد المالك مرتاض: الثقافة العربية في الجزائر بين التأثير والتأثر، ط2، دار الحداثة، ديوان المطبوعات الجامعية، بالجزائر1982.

19. عبد المالك مرتاض: فن النثر الأدبي في الجزائر (1931-1954) ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983.

20. العربي التبسي : مقالات في الدعوة إلى النهضة في الجزائر (جمع وتعليق أحمد شرفي الرفاعي). دار الشهاب ، باتنة ، ج2، 1402 هـ/ 1981م

21. العربي التبسي: مقالات في الدعوة إلى النهضة الإسلامية في الجزائر (جمع وتعليق أحمد شوقي الرفاعي)، ج2، ط1، دار الشهاب بالجزائر (1404- 1984).

22. علي خنوف: السلطة في الأرياف الشمالية لبايلك الشرق الجزائري، مطبعة العناصر، الجزائر.

23. عمار طالبي: ابن باديس حياته وآثاره، أربعة أجزاء، ط1، دار ومكتبة الشركة الجزائرية، الجزائر، 1968.

24. عماد الدين خليل: ابن خلدون إسلاميا، ط2، المكتب الإسلامي، بيروت (1405 هـ/1985م).

25. عماد الدين خليل: في التاريخ الإسلامي فصول في المنهج والتحليل، ط1، المكتب الإسلامي، بيروت، (1401 هـ/ 1981م).

26. فرحات عباس: "حزب الشعب وثورتها، ليل الاستعمار"، أبو بكر رحال، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، بدون تاريخ.

27. مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي: ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، 1406 هـ/1971م.

28. مازن صلاح حامد مطبقاني: "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية"، دار القلم، سوريا، 1986.

29. محمد الصالح بن عتيق: "أحداث ومواقف من رجال الدعوة الإصلاحية والحركة الوطنية بالجزائر، منشورات دحلب، 1982.

30. محمد الطاهر فضلاء: دعائم النهضة الوطنية الجزائرية، ط1، دار البعث، الجزائر، 1404-19847.

31. محمد الطمار: تاريخ الأدب الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.

32. محمد خير الدين : مذكرات، ج1، (د.ط) مطبعة دحلب الجزائر، 1985.

33. محمد طهاري: الحركة الإصلاحية في الفكر الإسلامي المعاصر، (الكتاب الثالث) الشيخ عبد الحميد بن باديس، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والوزيع، الجزائر، 1999.

34. محمد علي دبوز: نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج3، ط1، المطبعة العربية، الجزائر، 1389 هـ/ 1969م.

35. محمد علي دبوز: أعلام الإصلاح في الجزائر، ج3، ط1، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، 1978.

36. محمد قطب: كيف نكتب التاريخ الإسلامي: دار الوطن للنشر، الرياض، 1412 هـ.

37. محمد قنانش: الحركة الاستقلالية في الجزائر بين 1919-1939. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع – الجزائر، 1982.

38. محمد قنانش: المواقف السياسية بين الإصلاح والوطنية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، بالجزائر.

39. محمد قنانش، محفوظ قداش: حزب الشعب الجزائري 1930-1939، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993.

40. محمد ناصر: أبو اليقظان وجهاد الكلمة، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1983.

41. محمد ناصر: الصحف العربية الجزائرية من 1847 — 1939، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983.

42. محمد ناصر: المقالة الصحفية الجزائرية، ج1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر، 1398هـ/ 19778م.

43. محمد ناصر: المقالة الصحفية الجزائرية، ج2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1398هـ/1973م.

44. يحي بوعزيز: الإيديولوجيات السياسية للحركة الوطنية الجزائرية من خلال ثلاثة وثائق جزائرية، ديوان المطبوعات الجامعية 12-86.

45. يحي بوعزيز: الاتجاه اليميني في الحركة الوطنية الجزائرية من خلال نصوصه (1912-1948)، ديوان المطبوعات الجامعية 05-91.

46. يوسف مناصرية: الاتجاه الثوري في الحركة الوطنية الجزائرية بين الحربين العالميتين 1919-1939، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988.

الرسائل الجامعية

- أحمد مريوش: الشيخ الطيب العقبي ودوره في الحركة الوطنية الجزائرية، رسالة ماجستير، معهد العلوم الاجتماعية والتاريخ، الجزائر العاصمة، 1993.

- أنيسة زغدود: جهود العلماء المسلمين الجزائريين في مقاومة الطرقية، رسالة ماجستير، معهد العلوم الاجتماعية والتاريخ، الجزائر العاصمة،1996.

- الطاهر عمري : دور بنى المجتمع الجزائري في مقاومة الاستعمار (1830-1900)، بحث مقدم لنيل شهادة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، 1998.

- علي حشلاف: المواقف السياسية لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين من خلال صحفها (1931-1933)، رسالة ماجستير، معهد العلوم الاجتماعية والتاريخ، الجزائر،

- نور الدين ثنيو: قضايا الحركة الإصلاحية عند رابح الزناتي ومحمد الأمين العمودي خلال الثلاثينيات، بحث مقدم لنيل شهادة ماجستير في التاريخ، 1996.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

Ahmed Sari : L'association des Oulamas musulmans algérienne, et l'administration française (1931-1956) Thèse doctorat université de Provence, centre d'Aix Marseille I et UFR Histoire, juillet 1990.

باللغة الفرنسية :

- A. Rey. Goldziguer : « Le Royaume Arabe (La politique Algérienne de Napoléon III, 1861-1870, SNED, Alger,

- Ali Merad : Le réformisme musulman en Algérie de 1925 à 1940, Mouton, Paris, Haye, 1967.

- Boyer : L'évolution de l'Algérie, Médiane. Paris, 1960.

- Charle Robert Ageron: « Histoire de l'Algérie contemporaine » PVF,7-2 France,1980, 4éme Edition

- Mahfoud Kadache : Histoire de nationalisme algérienne, T1, SNED, Alger,1980.

الدوريات والوثائق:

- مجلة الثقافة (الجزائر)

- مجلة الأصالة (وزارة الشؤون الدينية – الجزائر)

- المجلة الزيتونية (تونس 1945)

- مجلة العلوم الإسلامية (جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية)

- مجلة نقد، العدد 11.

- مجلة Afrique Française (1934).

- J. Desparmet : Naissance d'une histoire nationale d'Algérie in Afrique Française N° 7, juillet 1933.

- L'Algérie du demi siècle - Les autorités locales, janvier 1954, Archives historiques- wilaya de Constantine

- Notes du C.I.E, au préfet de Constantine 3 Histoire et position politique de l'association des oulamas – de congrès la fédération des élus du parti du peuple Algérien parti communiste d'Algérie et du Musulman », 4 décembre 1941

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهـــرس الموضوعـــات

المقدمـــــة ..... أ

القسم الأول

مبارك الميلي، حياته ومواقفه من قضايا عصره

الفصل الأول: أوضاع الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي

المبحث الأول: الحياة السياسية 5

* حركة الأمير خالد 5
* حركة نجم شمال إفريقيا 7
* حزب الشعب الجزائري 8
* حركة اتحادية المنتخبين الجزائريين 9
* الحركة الإصلاحية الإسلامية وتأسيس جمعية العلماء 14
* المؤتمر الإسلامي (سنة 1936) 19
* المشاريع الإصلاحية الفرنسية 23

المبحث الثاني : الحالة الاقتصادية 26

الفلاحة 26

الصناعة 30

المبحث الثالث: الأوضاع الاجتماعية 33

المبحث الرابع : الأوضاع الثقافية 38

خلاصة الفصل 45

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الثاني : نشأتـــه وتعلمـــــه

المبحث الأول : ميلاده ونشأته 49

المبحث الثاني : تعلمـــــــه 52

المبحث الثالث : علاقته برواد الحركة الإصلاحية في الجزائر 57

خلاصة الفصل 72

الفصل الثالث : آراؤه ومواقفه الإصلاحية

المبحث الأول : مفهوم الإصلاح ومرجعيته 75

المبحث الثاني: مواقفه من الطرقيين والإدارة الاستعمارية 87

موقفه من بعض علماء عصره 93

المبحث الثالث : مكانته ودوره في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين 98

الأفكار الأساسية لجمعية العلماء 99

موقفه من العروض الفرنسية 103

المبحث الرابع: آراءه وموقفه من الإندماج والتجنس 107

خلاصة الفصل 111

القسم الثاني

وسائل الإصلاح عند مبارك الميلي

الفصل الرابع : جهوده الميدانية في إصلاح المجتمع

المبحث الأول : جهوده في التربية والتعليم 113

المبحث الثاني : موقفه من تعليم المرأة 130

المبحث الثالث: التدريس بالمساجد وتأسيس الجمعيات والنوادي 135

المبحث الرابع: تأسيس وتطوير الصحافة العربية في الجزائر 142

خلاصة الفصل 153

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الخامس : آثاره الفكرية في التأليف والصحافة

المبحث الأول : مؤلفاته المطبوعة 156

أولا: كتاب تاريخ الجزائر في القديم والحديث 156

ثانيا: رسالة الشرك ومظاهره 173

المبحث الثاني : آثاره المنشورة في الصحف 178

خلاصة الفصل 184

الخاتمـــــــة 185

الملاحـــــــق

فهرس الأعـــلام

فهرس الأماكـــن

المراجع والمصادر

فهرس الموضوعات

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية